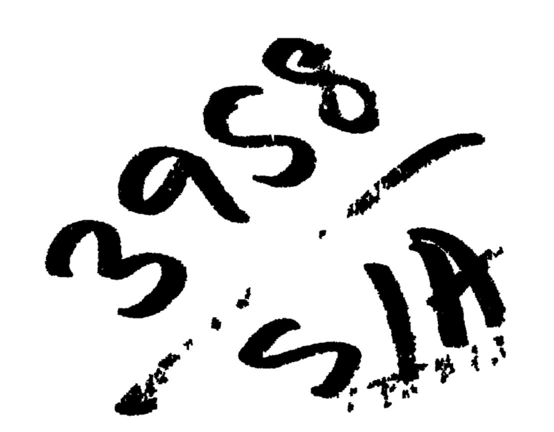
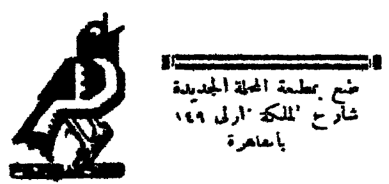


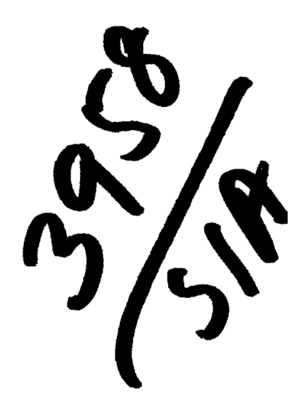
المماليك في مصر



طبع بمطبعة المجلة الجديدة
شارع الملكة نازلي ١٤٩
بالقاهرة



المماليك في مصر



طبع بمطبعة المجلة الجديدة
شارع الملكة نازلي ١٤٩ بالقاهرة

الى الجامعة المصرية

تقدمة ولاء واخلاص

انور زقلمة

مقدّمة المؤلف

لست أدرى السبب الذى غرمت من أجله تاريخ مصر فى عهد المماليك ، فقد قامت فى رأسى منذ مدة طويلة فكرة كتابة تاريخ شامل كامل لعصر المماليك فبدأت بجمع المصادر والكتب والمذكرات التى أستعين بها فى تحرير هذا الموضوع . ولما بدأت أكتب وجدت إن الموضوع تشعب بى وكبر حجم الكتاب وأصبح من المتعسر اصداره فى أقل من عدة مجلدات ، فاخترت أحد أبواب كتابى القديم وهو علاقة المماليك بغيرها من الدول الاجنبية . وصدرته بمقدمة عن المماليك ومنشأهم وأقسامهم . وبذا لم يصبح هذا الكتاب فصلا تاريخيا كاملا عن عهد المماليك كما أردت له أولا ، بل صار سفراً مجملا لتأثير حكم المماليك فى مصر والعالم أجمع وخصوصا فى الشرق

وسيجد القارىء بين طيات هذا الكتاب تاريخا مفصلا لمصر وسوريا تحت حكم المماليك ، وبيانا لاتساع الامبراطورية المصرية تحت حكمهم من المحيط الهندى جنوبا إلى الاناضول شمالا وبلاد المغرب غربا والصين شرقا ، ومما يزيد فى قيمة كتابى هذا ، الفصول الممتعة التى كتبتها فى تاريخ علاقة المماليك بالمغول و[illegible] [illegible]ية والسودان وأرمنيا وردوس وقبرص والبرتغال والبندقية والبلاد العربية والهند [illegible] التركمانية والاتراك العثمانيون وغيرهم . وكذلك فيه بحث فريد عن علاقات المماليك بالبابوية وملوك الدول الاوربية فى تلك العصور

ولا ريب عندى إن عصر المماليك امتع جزء فى تاريخ مصر السياسى والادبى والاقتصادى على الاطلاق لما اتصف به ذلك العصر من الغرائب ؛ ولما حواه من متناقضات ، ومع كثرة مصادر هذا العصر التاريخية : فانه يعتبر اليوم من أ[illegible] أجزاء تاريخ مصر على الاطلاق ، فانه بينما نجد الحوادث مفصلة باسهاب كبير و[illegible] المصادر [illegible] ما اذا بنا [illegible] نا توا إلى عصر خال تماما من

المصادر والتفصيلات ولذا لاتزال اجزاء طويلة من تاريخ مصر فى هذا العصر غامضة ومكتوبة بطريقة خيالية لايقبلها المؤرخ ابداً وقد حاولت قدر استطاعتى وقدر المصادر التى استقى منها إن أربط تاريخ هذه العصور ربطا محكما وإن أحقق كثيراً من الحوادث التى كنت أشك فى صحتها ، ولعلى أفلحت فى كثير منها . وقد بدأت كتابى بمقدمة صغيرة عن تاريخ مصر من الفتح العربى إلى نهاية دولة الايوبيين التى ورثها عنهم المماليك لاعتقادى ان مصر من يوم إن فتحها عمر بن العاص حتى حملة بونابرت هى وحده لاتتجزأ

وانى أرجو بهذا العمل ان أكون قد قمت بما يجب على نحو العلم وبلادى . وارجو القراء الكرام ان ينظروا إلى هذا الكتاب نظرة صفح عما اكون قد وقعت فيه من غلطات أو هفوات ولا يسعنى اخيراً إلا ان اسدى شكرى على هذه الصفحات الى جميع من ساعدونى فى جمع او تحرير هذه الصفحات ؟

انور زقلـــه



مكتبة الكتاب ــ مصادر البحث

رأيت قبل ان أبدأ فى تحرير هذا الكتاب ان أعرض أمام القارىء جميع الكتب والنشرات والمذكرات التى استعنت بها فى تحرير كتابى هذا ، فهــذه المصادر كما يقول اللورد روزنبرى هى كالأساس الذى يبنى عليه المنزل ، وإنى لاأبغى من وراء هذا العرض إلا ان أعطى للقارىء محب التوسع فى البحث مصادر تعينه على بحثه ، فهذا الفصل فى مكتبة الكتاب يحتوى على جميع المصادر المهمة التى أخذت منها كتابى وقد أشرت فى الهوامش إلى الجهات التى نقلت منها معلوماتى عندما كنت أنقل حرفياً ، أو حينما كنت اختصر أواعرب أواستمد الفكرة وأصوغها بلغتى فقد المعت لذلك الماعا فى نهاية الفصل ، وهناك مصادر اخرى غير التى سأذكرها أغفلت بيانها لعدم أهميتها ولاحتوائها على غلطات مادية كثيرة . وكنت أحب أن اتوسع فى بيان أهمية هذه المصادر ومركزها الأدبى كما عمل اللورد روزنبرى لما خصص الفصول الاولى من كتابه عن نابليون فى سنت هيلانه للبحث فى مصادر كتابه ولكننى وجدت إن البحث سيتشعب معى وسيطول بيان هذه المصادر طولا قد يكون مملا فاكتفيت بما سأذكره وأظن فيه الكفاية اذا اضفناه الى الهوامش التى ذكرت فيها كثيراً من هذه المصادر وأهميتها الأدبية والعلمية

لا يعتمد الانسان فى كتابة التاريخ الا على اثنين : شاهد عيان ، او مؤرخ موثوق به ، وكلا الاثنين له اهمية عظمى فى تدوين التاريخ . فكتابة الاول تعتبر مذكرات كتبت عن عصر معين واكثر هذه المذكرات تكتب لاغراض خاصة تقلل من قيمتها التاريخية ومهمة المؤرخ فى هذه الحالة هو اظهار اغلاط هذه المذكرات وتنقيتها من الشوائب التى لحقتها لانه يبحث تحت نور الحقيقة بعد ان تجرد من ملابسات العصر ، ولذلك اعتمدت فى كتابة هذه الصفحات على كلا الفريقين

فاما المعاصرون لهذه الحوادث فكثيرون ولدينا كثير من مؤلفاتهم بالعربية وباللغات الاجنبية . واهم هؤلاء الكتاب على الاطلاق هو المقريزى . ولحسن الحظ وجدت طائفة من الكتاب والمؤرخين فى هذا العصر متتابعة ، كانها السلسلة كل حلقة من حلقاتها تكمل الاخرى ، فقد بدأ هذا العصر ابى الفداء فأرخ وقته ومات وتبعه المقريزى فكمل تاريخه وهكذا حتى نهاية عصر المماليك

فابو الفداء اذن هو اول هؤلاء الكتاب ولد عام ١٢٧٣ ومات عام ١٣٣١م وشغل وظيفة نائب حماه واشترك بنفسه فى عدة حروب ووقائع نخص بالذكر منها واقعة « مرج الصفر » بين الناصر وغازان ، وحصار ملطية ، ولذا كتب فى هذه الحروب كتابة موثوق بصحتها ولذلك اعتمدنا فى ايرادها على وصفه لها ، ثم جاء بعد ابى الفداء النويرى الذى ولد عام ١٢٨٠ م وتوفى عام ١٣٣٢ والنويرى هذا مثله مثل ابى الفداء اشترك فى حروب المماليك اشتراكا فعليا واورد كثيرا من وصف وقائعهم وتمتاز كتابته باحتوائها على المستندات والرسائل التى تدل على روح ذلك العصر

وفى عام ١٣٥٨ م ولد أعظم هؤلاء المؤرخين المعاصرين المقريزى (بعض المؤرخين يختلفون فى سنة ميلاده فيجعلونها ١٣٦٤ م) وليست أهمية هذا المؤرخ مقصورة على عصرنا هذا فانه فى نفس عصره وفى الوقت التى كتب فيه كتابه أوفد تيمور رسولا خاصاً جاء إلى مصر ليحصل على نسخة من تاريخ المقريزى وفعلا نال ذلك الرسول بغيته فى يناير سنة ١٤٣٦ وفى حياة المقريزى . وقد شغل المقريزى (ودعى بهذا الاسم نسبة الى الجهة التى نشأت فيها أسرته فى بعلبك) وظيفة رئيس شرطة القاهرة وشغل أيضاً وظيفة ناظر الوقف فى دمشق واشتغل حيناً قاضيا فيها ، ولم يك مطلقاً من رجال البلاط السلطانى . ومن أجل هذا لايتملق فى كتابته ، ولم يغضب أبداً إلا مرة واحدة فى عصر برسباى وذلك لأن هذا السلطان أساء اليه ولذلك نجده كثيراً ماقسا فى حكمه عليه . ورغم ذلك فهو كاتب خصب مجيد ، تمتاز كتابته بما عليها من مسحة الصدق والحيدة ليس فى عصره فقط الذى شهده بنفسه

بل فى العصر الذى سبقه . ومات المقريزى عام ١٤٤١ فخلفه فى اتمام ذكر حوادث العصر أبو المحاسن الذى يمكننا ان نعتمد عليه لعشرين عاما بعد وفاة المقريزى ، ولد أبو المحاسن عام ١٤٠٩ وهو ابن الامير تغرى بردى الذى كان مملوكا يونانيا للسلطان برقوق ، وكان لوالده نصيب وافر فى الحوادث التى حدثت فى عصر السلطان فرج وكاد هذا المملوك إن يشنق يوما لولا شفاعة زوجة السلطان فيه والتى كانت يونانية أيضاً مثله ، وقد تربى هذا المؤرخ فى البلاط السلطانى وكان محبوبا من جميع السلاطين . ومما كتبه هو عن نفسه انه عندما كان طفلا توجه إلى السلطان « شيخ » وطلب منه طعاماً لأنه كان جائعا فامر شيخ أحد الخدم بان يعطيه خبزاً فاجابه الطفل : « إن هذا طعام الشحاذين ، أعطنى لحماً ودجاجا أو فاكهة أو حلوى » فسر السلطان من اجابته وأعطاه ثلثمائه دينار ووظف له راتباً شهريا . وبهذه الكيفية عاش أبو المحاسن فى كنف البلاط ولذلك جميع أحكامه عن أعمال السلاطين غير موثوق بها . فبينما المقريزى يطعن فى برسباى نجد أبا المحاسن يحسن أعماله لأنه كان من رجال بلاطه . ولهذه الاسباب فانا نكاد أن لا نقبل أحكام أبى المحاسن ولكن يشفع له كونه عالماً مدققا وانه كمل سلك الحوادث الذى انقطع تدوينها بموت المقريزى . وفى حكم قايتباى مات أبو المحاسن عام ١٤٧٠ م وبموته فقدنا مصادر المعلومات ، وقلت لدينا التفاصيل ، إلى ان بدأ ابن اياس يكمل هذه السلسلة . وقد عاش هذا المؤرخ حتى الفتح العثمانى وشهده بنفسه فكتابته عن هذا العصر هو المورد الوحيد للجزء الأخير من تاريخ الطبقة التانية من المماليك ، ولما كان ابن اياس قد عاش بعد زوال نفوذ المماليك فلكتابته قيمة المؤرخ كما أنه لها حجة الشاهد وتمتاز كتابة ابن اياس بايضاحها الشديد وايجازها المخل ، وانتهى تاريخ ابن اياس عند عام ١٥٢٢ م اذ مات بعد ذلك بعامين سنة ١٥٢٤ م

ثم أشير إلى كتابين جليلين وهما تاريخ سلاطين المماليك تاليف دترستين طبع ليدن بهولندا وتاريخ سلاطين المماليك تأليف ابن ابى الفضائل ومترجم الى الفرنسية بقلم مسيو (بلوسية) ومطبوع بها فى باريس ولا يوجد منه الا الجزء التانى فى مكتبة الجامعة المصرية تحت رقم ٣٨٢٧ تاريخ .

ويجب إن نشير هنا الى بعض المصادر الصغيرة التى وجدت فيها من المعلومات مافات كثيراً من المصادر العظيمة . فاشير إلى كتاب صغير وضعه رجل قبطى يدعى « ابن زنبل الرمال » باللغة العربية عن تاريخ هذا العصر ، وقد بقى هذا الكتاب مطموراً فى دار الكتب البطريركية حتى قيض الله له الاستاذ الكبير توفيق اسكاروس فاظهره . فسعت الدار الملكية للكتب فى الحصول على نسخة خطية منه وفعلا تم ذلك وهى موجودة الآن بدار الكتب الملكية . ويجب إن أعبر عن مايكنه قلبى هذا للاستاذ توفيق من الشكر الجزيل على ما ابداه نحوى من المساعدات بأعارتى مجموعة من الاخبار الصغيرة التى نقلها عن هوامش كتب قبطية متفرقة عثر عليها أثناء قراآته فى دار الكتب البطريركية — وقد نقلت هذه القصاصات ودونتها فى هذا الكتاب وا كثرها كان موجوداً على رقوق خطية — ويجب إن لا ننسى كتاب عجائب الاثار للجبرتى فهو دليلنا العربى الوحيد عن نهاية عصر الطبقة الثالثة من المماليك

واما عصر اسرة المماليك الثالثة فتعوزنا فيه المصادر العربية والافرنجية . ولا بد ان تكون له مصادر نفيسة باللغة التركية التى أجهلها ولكن يجب إن ننوه عن مؤرخ قبطى يدعى « شمس الدين » كتب عن تاريخ مصر وأحوالها تحت حكم الاتراك . ومما تمتاز به كتابته بيانه لحالة مصر الاقتصادية فى ذلك العصر

وفى عهد الاتراك أيضاً زار مصر كثير من الاجانب أجادوا فى وصف أحوال مصر . ونبدأ فنذكر منهم الدكتور ريتشارد بوكوك الذى زار مصر عام ١٧٣٧ مستصحباً معه راهبا فرنسيسكانيا كاثوليكيا ، وهذا يفسر لنا سبب اللعنات الهائلة التى صبها هذا الرحالة على الاقباط اذ كانت العداوة مستحكمة اذ ذاك بين الكنيستين الغربية والكنيسه المصرية ، وقد زار هذا الرجل العاصمة والفيوم وجال فى انحاء الصعيد بطريق النيل ، وزار كثيراً من الاديرة القبطية ووصفها . وتمتاز كتابته بصدق الوصف ونظر ثاقب . وفى نفس هذا الوقت زار مصر « فردريك نوردون » أحد ضباط البحرية الدنماركية وكتب عنها كتابا ليس له قيمة تاريخية بالمرة

وفى سنة ١٦٩٢ م كان المسيو دى ماييه قنصلا جنرالا لفرنسا فى مصر . وقد بقى هذا الرجل فى مصر ٣٠ عاماً دارساً منقبا عن أحوالها وتعلم اللغة العربية وكتب

كتابا نفيسا عن أحوال مصر فى أواخر القرن السابع عشر وأول القرن الثامن عشر الميلادى

وفى أواخر عصر المماليك وفى أوائل حكم محمد على زار رجل انجليزى اسمه « لان » مصر مرتين الاولى سنة ١٨٢٥ م ، والثانية سنة ١٨٣٣ وقد كتب هذا الرجل كتابا سماه « اخلاق وعادات المصريين الحديثين The manners and custons of modern Egyptians » وقد وصف هذا الرجل مدينة القاهرة وأهلها وصفاً عتماً وخصوصاً من الوجهة الاخلاقية والمعاشية . ويجب ان لاننسى الكتاب الفخم الصغير الذى حرره لاستافرو لاسنجيان « الرومى وعنوانه « ثورة على بك » The revolt of Aly Bey ومطبوع فى لندن باللغة الانجليزية سنة ١٧٨٤ م وموجود بدار الكتب الملكية وهذا الكتاب له قيمة عظمى تاريخية لأن مؤلفه عاشر على بك وخدمه فحكم عليه حكم اطلاع ومعرفة . وقد كتب كلوت بك كتابا عن مصر فى أوائل حكم محمد على وكان عصر المماليك لايزال ماثلا للاذهان فجاء كتابا بديعاً من وجهة وصفه للمصريين وأخلاقهم وعاداتهم ، وهذا الكتاب مترجم ترجمة نفيسة بقلم مسعود بك

إلى هنا انتهينا من مذكرات المعاصرين وبق إن نذكر كتب كبار المؤرخين الذين لهم الفضل الاول فى تصحيح تلك المذكرات وتبويبها وتمحيصها . فاذكر أولا كتاب حافظ بك عوض عن الحملة الفرنسية ففى مقدمته فصل ممتع حقاً وبديع عن طبقة المماليك الثالثة وتأثير حكمهم فى مصر والشرق ، وكذلك كتاب الاستاذ توفيق اسكاروس نوابغ الاقباط فى القرن التاسع عشر وكتاب تاريخ مصر للاستاذين الاسكندرى وسليم حسن

وأحسن كتاب أذكره لمحب البحث والاطلاع من عصر المماليك . كتاب السير وليم موير عن تاريخ دولة المماليك ، فانه خير كتاب فى هذا الموضوع ويجب ان أذكر إنه معرب تعريباً بديعاً جدا ونسخه تباع فى جميع المكاتب فى مصر . ولا بد ان أذكر الى جانب هذا الكتاب كتاب مدام بوتشر عن تاريخ الامة القبطية فهو كتاب جليل فيه فصول تاريخية مهمة عن المماليك وعلاقتهم

بالاقباط والنزلاء الاجانب ، ثم يجب ان أذكر كتاب الدكتور ويل « تاريخ الخلفاء» كمصدرمتين فى سياق احوال حكومة هذا العصر وكذلك كتاب « دونفشير » Lettres Sur L,Egypte ودوسافارى L,Egypte Musulmane Par Devonshire Par Savari وفى ثنايا أعداد المجلة الاسيوية يجد القارىء بعض الاحيان مقالات بديعة عن عصر المماليك وحكمهم فى الشرق (راجع المجلة الاسيوية سنة ١٨٨٨ م صفحة ٣٠٥) وأحيل القارىء أيضاً إلى دليل دار الآثار العربية تأليف ماكس هرتز . وقد أخذت الدار هذا العام تعد دليلاجديدا لمحتوياتها لم يصدر بعد . وقد جاء فيما دونته البعثة الاثرية الفرنسية ، كثير من الاشياء الشائقة عن عصر المماليك وخصوصاً عن الآثار ومما يذكر بالفخر لهذه البعثة ، نشرها الصور الفخمة للاثار العربية المصرية ، وفى كتاب وصف مصر بحث طريف عن الحالة المالية لمصر فى عهد المماليك فليرجع اليه من شاء زيادة التوسع فى حالة مصر الاقتصادية فى ذلك الوقت

والذين يهمهم البحث فى هذا الموضوع أحيلهم على كتاب ولكن الالمانى وهو كتاب متقن شامل فى هذا الموضوع وهو فى خمسة أجزاء لايهمنا فى بحثنا إلا المجلدين الرابع والخامس اللذين كثيراً ما كنت أستعين بأصدقائى عارفى الالمانية فى ترجمة نتف منهما وكثيراً ما كنت أرجع اليهما فى تصحيح بعض الحوادث أو التواريخ . وهذا الكتاب خاص بتواريخ الخلافة العربية . وهناك كتاب آخر لولكن أيضاً فى ثمانية أجزاء بديع جداً فى نفس الموضوع . وفى النهاية أذكر مصدرين أولهما فرنسى وثانيهما انجليزى فالأول تاريخى والثانى يعنى بالوجهة الاقتصادية بصفة خاصة

Egypte Depuis La Conquete des Arabes Jusqua la Domination Francaise

Egypt in The Nineteenth Ceutnry by Cameron

وانى أرجو إن لايمل القارىء من الاطلاع على هذه الصفحات الكثيرة

منذ الفتح العربى حتى المماليك

يمكننا ان نقول ان مصر منذ الفتح العربى حتى الحملة الفرنسية هى حلقة تاريخية واحدة لا يمكن تجزئتها ولو ان عهد المماليك كان عهداً فريدا فى نوعه إلا انه كان نتيجة لما تقدمه من الحكومات والعصور ولذا كان واجباً على ان أكتب كلمة تمهيدية مختصرة جداً عن الحكومات التى توالت على مصر منذ الفتح العربى حتى عهد حكم المماليك

« عصر الخلفاء الاول »

فتحت مصر فى السنة الثامنة عشرة للهجرة فى عهد ثانى الخلفاء الراشدين ولكن لم يكن لها شأن يذكر فى الدولة العربية فى أيام ولاة الخلفاء. ودام الحال على هذا المنوال نحو قرنين ونصف تعاقب عليها أكثر من مائة عامل لم يؤل على يدهم لمصر خير يذكر ولو استثنينا عمرو بن العاص القائد الشهير الذى أنشأ أول جامع عرف بمصر بمدينة الفسطاط التى اختطها لا نجد غيره من الولاة له منشآت يذكر بها

وبقيت مصر منذ فتحها حتى عام ٢٥٤ هـ محكومة بعمال يرسلون اليها من قبل الخلفاء الراشدين ثم من قبل بنى أمية وبعدها من قبل بنى العباس

« الدولة الطولونية »

فى سنة ٢٥٥ هـ آلت ولاية مصر الى احمد بن طولون وكان والده من موالى خليفة بغداد. وفى ثانى سنة من ولايته أعلن استقلاله ولم يقر للخليفة العباسى إلا بالسلطة الدينية. وكان هذا العمل مبدأ لدخول مصر فى دور جديد فافرد لها فى التاريخ جزء خاص واستقلت فيه بباب اذ كان لها بين العالم الاسلامى الشأن الرفيع والمكانة التى لا تبارى

وحكم من هذه الدولة خمسة ملوك لم تزد مدة حكمهم عن ٣٤ سنة وفى هذه ..ـة القصيرة وخصوصاً فى أيام مؤسس هذه الدولة نمت الثروة وانبسط الرغد فى مصر

« الدولة الاخشيدية »

انقرضت دولة بنى طولون بعد أربع وثلاثين سنة وكان يظن ان أيامها تطول وخلفتها الدولة العباسية التى قبضت على الازمة الدينية والسياسية بمصر ولكنها لم تلبث إلا القليل وزالت سلطتها كما زالت دولة بنى طولون من قبل لأن أبا بكر محمد بن طفج النائب عن الخليفة الراضى بالله استضعف مولاه فاستقل بالبلاد فى سنة ٣٢٤ ﻫ وتلقب بالاخشيد ومعناه ملك الملوك وهولقب ملوك فرغانه اذ كان يزعم انه من سلالتهم وفى عهد هذه الدولة لم تذق البلاد طعما للراحة والاطمئنان اللذين كانوا يعللونها بهما وأهم حادثة تاريخية تذكرعن هذا العصرتمكين الارتباط بين حكام مصر وحكام آسيا لاسيما بلاد الشام التى مازال يجرى عليها ما كان يجرى على مصر

الدولة الفاطمية

فى سنة ٣٦٢ ﻫ افتتح المعز بن المنصور البلاد المصرية وهو من دولة حكمت شمالى افريقيا حتى حدود مصر المستقلة عن الخلفاء من دولة بنى العباس وملوك هذه الدولة يسمون بالفاطميين لانهم كانوا يدعون انهم من نسل السيدة فاطمة الزهراء بنت النبى — وكانت قبيلة مؤسس هذه الدولة تقيم فى السفح الغربى من من جبال الاطلس ثم استولت على القيروان

والذى حمل المعز على افتتاح هذه البلاد هو انه فى سنة ٣٠٠ ﻫ كان قد خطر لاحد أجداده ان يغزو مصر لظنه فى نفسه القدرة على ذلك فجرد عليها سرية لم تنجح . ولكن الاسكندرية ومدينة الفيوم بقينا فى حوزته فلما آلت الخلافة الى المعز بعث اليها جوهراً احد قواده فى حملة أخرى فتمكن من فتحها باسم مولاه

وباستيلاء الفاطميين على مصر دخلت البلاد فى عصر مغاير لسابقه وانتقلت الازمة الدينية من العباسيين لهم وكان الفاطميون مبغضين اليهم لتمذهبهم بمذهب الشيعة

وفى عهد الاول والثانى من خلفاء هذه الدولة صلحت أحوال مصر وكثر فيها العمران ولكن بعد قليل حل بها الفوضى والخبال فى أيام الحاكم بأمر الله لان الاضطراب والتخوف اللذين كانا من دأب هذا الخليفة وطغيانه وجوره كل ذلك

عرض به للفتن والثورات التى كان يؤدى اليها ماكان يصدره من الاوامر عن حمق ونزق وقسوة قلب . بعد ذلك نهضت مصر نهضة جديدة . والفضل فى ذلك لحكمة الوزير بدر الجمالى وحزمه فى سياسة الامور ولكن هذا الخير الذى جاء بعد أوانه لم تطل أيامه فوقعت البلاد ثانية فى الفتن فى عهد الاخيرين من خلفاء الفواطم وفى غضون تلك الايام ظهر الصليبيون أمام القسطنطينية ثم استولوا على بيت المقدس وانتزعوه من مصر سنة ٤٩٣ هـ

« الدولة الايوبية »

٥٦٧ — ٦٤٨ هـ

لما صار الاخيرون من الخلفاء الفاطميين لعبة فى يد وزرائهم لم يبق لهم فى الخلافة إلا اسمها وغدا الوزراء كثيرى الشغب يتنازعون السلطة فيما بينهم لما وقر فى نفوسهم من الطمع فى الملك الى ان بلغت بهم الجراءة ان نتكوا بأحد الخلفاء تخلصا منه وقصارى القول ان الدولة الفاطمية انقرضت وراحت ضحية تنازع الوزراء . وما لبثت مصر والشام ان تولى عليهما صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب

وكانت أيامه وأيام من خلفه وهم أول من تلقبوا بالسلاطين أيام اضطراب وفتن وداخلية فى البلاد وخارجها لما وقع فيها من الحروب الهائلة ولكن هذا العصر اشتهر على الاخص بالحروب التى تفجرت ينابيع الدماء فيها وهى الحروب الصليبية التى قامت ابتغاء انتزاع بيت المقدس من حوزة المسلمين

واحتاج صلاح الدين ومن بعده خلفاؤه ليقوم بحروبه العظيمة ان يستعين بجند أغراب يجمعهم من أطراف الارض وخصوصا من الجركس والاتراك فكانوا سبباً فى القضاء على دولته كما هو مبين فيما يلى من فصول ، وهو موضوع بحثنا هذا

نشأة المماليك وحكمهم

— ١ —

الحوادث التاريخية التي آلت إلى استخدامهم فى مصر

يمكن أن يسمى عصر المماليك بحق بالعصر المظلم لأنه أغمض عصر فى تاريخ مصر ، ولانه من جهة أخرى كان مظلماً بالحجب التى حالت دون المؤرخين للوصول إلى حقيقته ، ولكنه بالرغم مما يوصف به كان عصراً قائماً بنفسه له مظاهر وتعاليم وفلسفة ونظم اجتماعية واخلاقية خاصة به .

ولهذا العصر تأثير شديد فى مجرى الحوادث فى تاريخ مصر فى العصور التى تلته لان النير الذى ألقاه المماليك على رقاب المصريين كان أثقل من أن تتخلص منه مصر فى حوالى ثلاثة قرون [١] ولذا يمكننا أن نقول أن مدنية هذا العصر كثيرة المتناقضات ، ولذلك وصفت هذه الفترة بانها عصر الظلام ، أوعصر الفوضى أو العصور المظلمة ووصفها الغير بانها عصر النظم المحلية وحكم الاقطاع أو عصر الفروسية والشجاعة وغير ذلك من المظاهر المختلفة التى جعلت تاريخ هذا العصر أمتع جزء فى تاريخ مصر

وفى هذا العصر عاشت مصر نفس الحياة التى عاشتها أوربا فى القرون الوسطى فى عصر الفرسان والاقطاع

آل تراث الايوبيين بعد انقراض الملك منهم الى المماليك البحرية سنة ١٢٥٠ ، فقد اضطر صلاح الدين الايوبى لكى يتمكن من القيام بحروبه الصليبية الى أن يشترى ١٢ اثنى عشر ألف مملوك من الجراكسة والاتراك وبعد أن دربهم على الحركات العسكرية والفنون الحربية ألف منهم جنداً لم يلبث أن صار أشد الجنود الاسيوية الاصل بأساً وأقواهم بطشاً . وكانت سلطة مواليهم قد آلت

---

(١) لا يزال كثير من العادات الباقية من عصر المماليك فاشية فى أرياف مصر ، وخصوصا فى الصعيد ، حتى الان ومنها سير وجهاء البلاد وخلفهم عدد جم من الخدم كما كان يفعل المماليك عند سيرهم على رؤوس ا . 'عيهم

على توالى الايام الى حوزتهم فغلبوهم على أمرهم وتصرفوا فى أحوال الدولة على أهوائهم ثم لم يلبثوا أن اسقطوهم عن عروشهم واختاروا السلاطين لهم من بينهم وأخذوا يؤلفون برسم أنفسهم فرقا من المماليك على الوجه الذى الفت به فرقهم فتضاعف عددهم وحصلت لهم العصبية الكفيلة بالقدرة على تنفيذ أحكامهم والتغلب على سواهم .

وطريقة جلبهم الى مصر أنهم كانوا وهم فى مقتبل العمر يباعون فى أسواق النخاسة بيع الارقاء ثم ينقلون الى ذلك القطر الذى قدر لهم أن يقبضوا على زمام أحكامه دون أن تربطهم به صلة وطن ولا آصره قرابة

ولم يكن عجباً أن يعاملوه وأهله معاملة البلدان المفتوحة والامم المغلوبة على أمرها اذ لم يكن يعنيهم من شأنه وشأن أهلها سوى التفنن فى ضروب ابتزاز الاموال واستدرار الخير فتطوروا بطور الحضارة والترف والفوا النعيم وغضارة العيش وبلغوا فى ذلك الغاية حتى أصبح حكمهم القائم على أساس التوحش والهمجية سلسلة متصلة الحلقات من الفوضى والاختلال والمكايد المراد بها تعزيز الاطماع الذاتية وتفشى وسائل العنف والقهر بما يؤدى إلى سفك الدماء وازهاق الارواح لتحقيقها

ورغم توالى حضور المماليك وغيرهم من قبائل الغزاة الى مصر وتوطنهم فيها فقدا ستمر النقص فى السكان منذ الفتح العربى حتى قدرتهم (عدد السكان) الحملة الفرنسية بمليونى نفس . وانا إذا بحثنا عن أسباب هذا النقص لا نلبث أن نتأكد رجوعها كلها الى ما كانت عليه حكوماته من اختلال نظام واستبداد حكم وعماية عن الصواب ونزوع إلى الفوضى التى اغتصبت زمام الحكومة وتصرفت فى شئونها بالعبث والافساد حتى ضاع الغرض المقصود منها

ومن الاسباب المباشرة لتناقص عدد السكان كثرة عدد الطواعين التى أصابت مصر . ولكن من المسئول عن عدم وقاية البلاد من هذا البلاء ؟ اليس هم بالطبع حكام البلاد الذين لم يكن لهم غرض الا أرواء شهواتهم والقبض على السلطة فوق رقاب العباد ؟

ويرى « كوفيه » وقد نقل عنه كلوت بك أن من أسباب تناقص عدد السكان

هو طغيان الصحراء على الوادى الخصيب

وقد نشأ عن الفوضى الطويلة التى حلت فى مصر محل النظام طوائف كثيرة من صغار الزعماء استمدوا من قوة الحسام ما انتحلوه لأنفسهم من حق التصرف فى نفوس الاهلين وايرادهم موارد الهلاك

ومن أين كان لمصر ان تسترد صحتها وشبابها وقوتها وقد ضيق عليها الأنفاس أولئك الالوف المؤلفة من صغار الظلمة الطاغين ومن أين لذلك البلد أن يرد غير موارد الهلاك وأن يكون مثله إلا كمثل المصاب بالبرص ليس لدائه طب إذا أصبح ميدانا للحروب الاهلية ومجالا تعبث فيه طوائف الفاتحين الغزاة بالخراب والفساد

* * *

« مثل المماليك فى تاريخ المشرق ، دوراً مهما جعل من الواجب على المؤرخين ان يضعوا له بحثاً خاصا ، وتحقيقا دقيقا ، ليظهروا ما كان لتلك الطغمة من الأثر الطيب أو السيء ، وليشرحوا أيضاً ما اذا كان فى ظهورهم وتقوية شأنهم ، بل وفى ذ كائهم وقوة بأسهم ، فائدة للامم الاسلامية ، بحيث استطاعت ان ترد وقتا ما بهؤلاء المماليك الحروب الصليبية من القرن الثالث عشر إلى القرن التاسع عشر ، أو هل كان ظهور أولئك المماليك على مسرح السياسة الشرقية . سواء فى آسيا أو فى شمال افريقيا ، سببا فى اضمحلال النهضة العربية ، وقضاء على الحياة الفكرية »

أنى أميل الى الرأى بان المماليك وخصوصاً الطبقة الاخيرة منهم كانت سبباً لبلاء هذه الديار وعذاب أهلها مدة طويلة من الزمان ، اذ صير وادى النيل ميدانا للسلب والنهب والمظالم كما سنرى ذلك مفصلا فيما يلى :

* * *

كلمة مملوك هى اسم مفعول من « ملك » ، وهو ظاهر المعنى لا يحتاج لايضاح وقد ذكر المؤرخون ان منشأ المماليك من جهات « قفجان » من شمالى آسيا ، وأنه لما غزا المغول تلك الاصقاع تحت قيادة « باتوخان » حفيد جنكيز خان ، ساموا أهلها الذل وفتكوا بهم فتكا ذريعا ، حتى هاجر سكان الولايات القزوينية والقوقاسية من ديارهم ، فضعفت قبائلهم وتشتتت فى بلاد آسيا الصغرى . وكانت تجارة

الرقيق الابيض والاسود فى شدة انتشارها ، فكان النخاسون يبتاعون أحسن أبنائهم وأجملهم وأقوامهم ، من أقاربهم ، وآبائهم ، أو كانوا يختطفوهم فيبيعونهم لمن شاء من أمراء وأغنياء الديار السورية والعربية والمصرية فيشب الفتى وقد نسى قومه وجنسيته واندمج فى سلك أمثاله المماليك تحت رعاية مملوك منهم ، أو أمير من أمراء العرب أو غيرهم ، يقربونهم اليهم ، ويحبونهم لجمالهم وذكائهم وولائهم فى خدمتهم ، فيرقونهم بعد ان يشتد ساعدهم فى بطانتهم ، وعند ذلك تتطلع نفوسهم إلى مراتب العز ومنازل الامارة والشرف بل الى الملك ذاته لأنهم كانوا يعرفون ان أمثالهم من المماليك الأرقاء الذين ابتيعوا صغاراً ! وربوا فى احضان أسيادهم وملوكهم ، شبوا على الفروسية والاقدام ، ووصلوا إلى أرقى مناصب الملك والسيادة ولم يكن يخفى على صغيرهم قبل كبيرهم ان سلاطين المماليك بعد الدولة الايوبية . من عهد الظاهر بيبرس ، فالملك قلاوون ، فالسلطان حسن وبرقوق وبرسباى وقايتباى وجميع ملوك هذه الدولة وسلاطينها ، لم يكونوا إلا مماليك ، أو أبناء مماليك مثلهم

ومدة حكم هؤلاء المماليك لايمكن ان يجد لها الانسان مثيلا فى تاريخ العالم كله وذلك لان مركزهم كان استثنائيا لانه لم يسمع مطلقا — ولو أنه حدث أن العبيد والارقاء فى ثوراتهم يسودون مواليهم سيادة لاتلبث ان تنقشع سحبها — ان طائفة من الارقاء المشترين بالاموال من أسواق آسيا يكثر عددهم ويؤويهم ارقاء مثلهم ثم يحكمون قطراً غنيا كمصر ، ويضعون أيديهم على بلاد أخرى خارج هذا القطر ، ويصبح مملوك اليوم منهم حاكم الغد . ولكن مماليك مصر يعطوننا هذا المثال

وقد كان نهوض هذه الطائفة تبعاً للسنة التى جرى عليها العباسيون وهى جلب الالوف من العبيد من قبائل التركمان والمغول واستخدامهم حرساً لهم ومصدراً لجيشهم ليناهضوا بهم الجنود العربية فاستفحل أمرهم وقتئذ وأصبحوا سدى الجيش ولحمته فكانوا يأتون عبيداً فلا يلبثون ان يصبحوا ذوى الامر والنهى فى بيت الملك . يشعلون نيران الفتن والقلاقل حتى عجلوا أجل الخلافة المنهوكة المنحلة وسلك سبيلهم فى ذلك خلفاء الفاطميين فاصابهم مثل ما أصاب من سبقهم من الخلفاء العباسيين

وقد نحت دولة الايوبيين بعدهم هذا النحو إذ كانوا غرباء فى البلاد فاحتاجوا الى الاعتزاز بامثال هؤلاء »

« ان القبائل المقهورة فى أواسط أسيا كانت لاترى غضاضة فى بيع أفلاذ أكبادها للنخاسين الذين كانوا يعدونهم لحسن المستقبل والسعادة فى الغرب . وقد سهل عمل النخاسين ماكان يذاع عن ثروة مصر الكبيرة التى يمكن الحصول عليها بأقل جهد . لذلك لم يقتصر الأمر على سبايا الحروب وأسرها بل كان يتدفق على البلاد الغربية سيل من أبناء القبائل الشرقية لتهافت السلاطين والامراء على شرائهم أحياناً بأثمان باهظة

ولما كانت هذه الفئة تنشأ نشأة حربية كان أسعدهم حظاً وأعظمهم مقدرة من تفك رقبته بأمر السلطان فيصبح أميراً على عشرة أو خمسين أو مائة . وقد يثب أحدهم وثبة واحدة تجعله أمير ألف . وأخذ عددهم يتضاعف بشراء مماليك جدد كانوا ينالون ما نال أمراؤهم من الحرية والثراء . وقد كانت السلاطين بطبيعة الحال أكثر الناس انكبابا على شراء المماليك . ولذلك استخدموا مواردالحكومة فى احاطة أنفسهم بجمع عظيم من هؤلاء المماليك . فقد علمنا أن أحد السلاطين اشترى منهم نحو ستة آلاف . وبينما كان السواد الأعظم من الامة يعيش عيشة الفقر غارقا فى حمأة الجهالة كان المماليك المقربون لدى الامراء ولا سيما حاشية الملك يتعلمون علوم السلم والحرب ، وكان الواحد منهم ينهض من درجة حاجب أو تابع تدريجياً حتى يصل الى مرتبة سيده . فمملوك اليوم هو قائد الغد بل ليس بعزيز عليه أن يصبح سلطاناً »

« وقد قص المقريزى فى كتابه عن تاريخ مصر رواية عن المماليك وهى وان كانت من القصص التى لايعتمد على روايتها المؤرخ ، ألا أنها تعطينا فكرة صادقة عن الآمال والامانى التى تدور فى نفس المملوك وهو قادم فى طريقه الى مصر » روى الاسحاقى عن عبد الملك الاشرف قايتباى المحمودى ، أنه لما جلبه (الخواجا) ! محمود الى مصر وكان معه رفيقه أحد المماليك الذى جلب معه تحدثاً مع الجمال الذى يحملهما الى مصر فى ليلة مقمره فقالا لعل هذه الليلة هى ليلة القدر التى يستجاب فيها الدعاء ، فليدع كل منا بما يحبه . فاما قايتباى فقال أنا

أطلب من الله تعالى سلطنة مصر ، وقال الثانى وأنا أطلب من الله ان أكون أميراً كبيراً . أما الجمال فقال أما أنا فاطلب حسن الخاتمة فصار قايتباى سلطانا وصاحبه أميراً . فكانا اذا اجتمعا يقولان فاز الجمال من بيننا »

فانظر كيف كانت تطمع نفس المملوك الى السلطنة وهو لا يزال فى الطريق الى مصر !

« وقد بينا فيما سبق أن نهوض هذه الطائفة كان نتيجة لما اختطه العباسيون على أن القياس على حالة بغداد قياس لاأساس له ، لان القبائل الهمجية التى نزلت هناك اختلطت بالسكان وأصبحت جزءاً منهم . أما الحالة فى مصر فكانت على نقيض ذلك تماماً ، وهذا هو موضع العجب . فمماليك مصر لم يختلطوا بأهلها بل ظلوا بمعزل عنهم محتفظين بجنسيتهم وعاداتهم ، فكانت حكومتهم على رأسها الأمير أو السلطان فى حين أن باقى المماليك كان لهم سلطان نافذ لاينازعهم فيه أحد

اذا علمنا كل ذلك وعلمنا مبلغ السلطة الهائلة التى لاتحد التى تمتع بها المماليك فى مصر عرفنا السبب الذى من أجله أقدم كثيرون من الناس على بيع أولادهم وبناتهم ليكونوا فى حاشية سلطان مصر ! . . لابل علمنا السبب الذى كان يدعو كثيرين من الجراكسة والتركمان أن يفدوا زمراً الى أرض الآمال »

أجمع المؤلفون الذين عنوا بوضع تاريخ عن عصر المماليك على تقسيمهم الى طبقتين أو قسمين « المماليك البحرية ١٢٥٠ — ١٣٨١ م » والمماليك البرجية « ١٣٨١ — ١٥١٧ » ، وقد جرى أكثر المؤرخين على ذلك ضاربين صفحاً من أعظم عصر قويت فيه شوكة المماليك وكثرت مظالمهم وعظم نفوذهم واضحت فيه مصر حقلا لمطامعهم وأغراضهم أى عصر الاتراك أو المدة المحصورة مابين الفتح العثمانى واستقلال محمد على بمصر .

ونرى فى كتاب فتح مصر الحديث أن حافظ بك عوض قد قسم المماليك الى طبقتين كبيرتين

١ — الطبقة الاولى من ١٢٥٠ — الى الفتح العثمانى ١٥١٧ أى تحتوى الطبقتين السالفتى الذكر

٢ — الطبقة الثانية من ١٥١٧ الى أن مذبحة القلعة الشهيرة أو الى استقلال

محمد على بمصر وذلك لأنه يرى أنه لا عبرة لقولهم أن القسم الأول من المماليك البحرية كان من جنس غير جنس المماليك الشراكسة لأن المماليك فى أول أمرهم وفى أواخر الدولة العباسية الى مذبحة القلعة ، ثم فى أيام محمد على واسماعيل وتوفيق لم يكونون من جنس خاص ، ولا من أمة معلومة ، بل كانوا دائماً خليطا ممن يباع ويشترى من الفتيان الحسان الاقوياء ، سواء أكانوا من شواطىء بحر قزوين وأواسط أسيا من تتار ومغول وشركس ، أم كانوا من بحرايجة من الاروام وجزر البحر الابيض المتوسط

وهذا السلطان الظاهر « حوش قدم » من مماليك الطبقة الاولى ، يلقب بالرومى لأنه يونانى الاصل ، ويلقب بالناصرى مع اسلامه ، وكان له ولع عظيم بالعلوم والآداب اليونانية القديمة . وربما كان فيهم من أجناس مختلفة من الشعوب القائمة حول الادرياتيك أو من جزائر ايطاليا والبحر الابيض على الاجمال

ولأنه يرى أيضا ان الفتح العثمانى لم يقض على سلطة المماليك بل زادها عتوا وتجبراً وعلى ذلك يمكننا أن نقول أن المماليك حكموا مصر من عام ١٢٥٠ م الى حوالى ١٨١١ مع استثناء مدة الحملة الفرنسية وأول ظهور سلطة محمد على الفعلية فأما أنا فأميل الى تقسيمهم الى أربعة أقسام .

١ — المماليك البحرية ١٢٥٠ — ١٣٨٧ م

٢ — المماليك البرجية ١٣٨١ — ١٥١٧ م

٣ — المماليك البكوات ١٥١٧ — ١٨١١ م

٤ — مماليك الاسرة العلوية

ولست فى هذا التقسيم أراعى اختلاف جنسيات المماليك بعد أن أوضحت أنه جميعاً لم يكونوا فى أى طبقة من وطن واحد ولا من أمة واحدة . ولست أراعى إيضافى هذا التقسيم المناطق التى سكنوها . فاقول مماليك بحرية لانهم سكنوا جزيرة الروضة وبرجية لانهم سكنوا الابراج ولا مماليك بكوات لان هذا كان نعتهم أيام الاحتلال العثمانى

لست أراعى ذلك ولكن أراعى اعتبارات أخرى فان أكثر سلاطين الطبقة الاولى أتيح لهم الحكم باسم سلاطين من الاطفال . فقد تولى قلاوون الملك بصفته

وصيا على ابن بيبرس (سيف الدين شلامس) فلم يلبث أن خلعة من الملك ووثب مكانه على العرش . وتولى كتبغا الحكم بصفة وصيا على السلطان لاجين فلم يلبث ان استبد وحده بالملك

أما ملوك الطبقة الثانية فقد صار اليهم الامر حقاً فحكموا بأسمائهم وتولوا الامر بأنفسهم حقاً على الرغم من أنه لم يكد ينال مصر من هذا التغيير نفع كبير .

« وعلى كل فان مماليك هاتين الطبقتين كانا أرقى أخلاقا وأفضل سياسة من مماليك الطبقة الثالثة ، وكان يظهر فيهم من وقت لآخر فحول سياسة ورجال عدل ونظام ورفق بالرعية وكان مما يصلح شأنهم ، إن الوراثة كانت توجد فيهم من وقت لآخر مما ثبت دعامة الملك ولم يدعها مطمعا لكل سفاك للدماء طامح للسلطة والامارة

وقد امتاز مماليك هاتين الطبقتين بما تركوه فى القاهرة وضواحيها من الآثار النفيسة والمساجد البديعة النادرة المثال وما أبقوه من العمائر التى تدل على ذوق رائق ورفاهية تضرب بها الامثال

وقد وصفهم العلامة « لاين بول » فى كتابه المسمى « القاهرة » فقال

« لقد جمع هؤلاء المماليك بين المتناقضات التى لم تجمع فى طبقة من الامراء فى أى زمان أو مكان ، فبينما نعرف أنهم عصبة من الافاقين ابتيعوا بيع السلع ونشأوا أرقاء ، وربوا سفاكين للدماء ، ظالمين للعباد ، مخربين للبلاد ، نجد منهم ميلاغريبا للفنون ، يحق لأى ذى عرش وصولجان أن يفخر به على الانداد والاقران ، ولقد أظهر هؤلاء المماليك فى لباسهم ، وفراشهم ومسكنهم وعمائرهم ذوقا سليما ، ورفاهية بالغة ، يصعب على أوربا الآن فى عصرها « الاستاتيق » المحب للجمال والتأنق ، أن تدانيهم فيه

انظر الى مايوجد الآن فى القاهرة من المساجد الكبيرة التى تناطح ما ذنها السحاب تجد انها بنيت فى عصر مماليك هاتين الطبقتين . انظر الى جوامع قلاوون ، والناصر ، والناصر بن قلاوون ، والسلطان حسن ، وبرقوق ، والمؤيد ، والاشرف وقايتباى

ثم انظر الى قباب قبور المماليك بالصحراء، تر من جلال البناء، وبديع العمارة، مالا يدانى وكل مابنى بعد فى العصر الاخير من القرن التاسع عشر، انما هو تقليد وتشبيه بهاتيك العمائر التى تفخر بها القاهرة على مدن العالم.

وأما مماليك الطبقة الثالثة أى المماليك البكوات فان أغلب المؤرخين كانوا لايعتبرون عصرهم من ضمن عصور حكم المماليك ولذا اضطررت ان التجأ الى مصادر كثيرة والى تطويل قد يكون مملا لاثبت ان الحكم الفعلى فى عصر الاتراك كان لمماليك هذه الطبقة دون غيرهم. وانهم لم ينقصهم فى هذا العصر الا لقب السلطنة الذى استبدلوا به لقب « شيخ البلد » ولم يأبه المملوك كثيراً لذلك واكتفوا بالجوهر، والحكم الفعلى دون لقب السيادة. »

« ظل حكم المماليك على مصر طوال الحكم العثمانى إذ أنه كلما كان يتقلص مجد الباب العالى من وقت لآخر كان كذلك يقل نفوذ ولاته فى مصر فيزيد نفوذ البيكوات المماليك تبعاً لذلك. وبقى المماليك على عهد العثمانيين — كما كانوا من أجيال عدة — يكثرون من عددهم بشراء مماليك جدد كانوا يفدون على مصر من سيبريا وبلاد الجركس وما جاورها من البلدان، وصار رؤساء المماليك يسمون باسم « شيخ البلد » وكانوا كثيراً مايتنازعون ويتقاتلون للحصول على هذا اللقب فيتلو ذلك هياج يعم البلاد جميعها وكان « الشيخ » إذ عاضده الامراء يستفحل أمره فينزل الباب العالى وواليه فى مصر على أرادته، فكأنه هو الحاكم الفعلى للبلاد

ولما كان الباب العالى مشتغلا بحروبة مع الروسيا فى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر، نبه ذكر شيخ البلد « على بك الكبير » واستطاع كسر شوكة الانكشارية الذين كانوا عدة العثمانين اذ ذاك فى مصر، وأخذ يزيد فى عدد المماليك فى بلاطه حتى بلغوا ستة آلاف. وعندئذ اتخذ موقف المستقل وطرد الوالى العثمانى الى القسطنطينية، ثم توجه بجيشه الى سورية فاخضعها وأخضع البدو كذلك، فاعترف شريف مكة بسيادته على البلاد المقدسة ومنحه لقب سلطان. وبعد ان حكم حكما زاهراً ائتمرت به جماعة وذبحوه غيلة فى سورية »

يقول كلوت بك فى كتابه (لمحة الى مصر) ترجمة مسعود بك صفحة ٧٦

« صارت مصر فى سنة ١٥١٧ أى أيام السلطان سليم الاول أقليما تابعاً للدولة

العثمانية ولقد أيقن هذا السلطان عقب استيلائه عليها أنه سيتعذر على حكومته لبعد مصر من مقر السلطنة اظهار سطوتها وتعزيز سلطتها فيها . وكان من جهة أخرى فى حاجة الى مداراة المماليك واستمالتهم اليها ليأ من جانبهم فابتكر لادارة شئون البلاد اسلوبا أحكم تدبيره بحيث اذا طبق أفضى الى تحقيق متمناه من ذلك فانه جزأ السلطة العامة أجزاء جعل كل جزء منها وقفاً على طائفة من طوائف المماليك وفرقهم وأتم ذلك على وجه يقتضى مراجعة الدولة العلية وتداخلها كلما اختل التوازن والتعادل من قوى تلك الاجزاء

أما شئون الحكومة ومناصبها فقد عهدت الى ديوان أعضاؤه من كبار المماليك وزعمائهم وأما الادارة المحلية فقد نيطت بأربعة وعشرين بيكا منهم هم رؤساء تلك الفرقة والطوائف وزعمائها

وكان لهؤلاء أن يجبوا المفروض والضرائب الجزئية فيأخذ الديوان منها حصة تعدل الجزية السنوية التى يجب دفعها الى الباب العالى . وكان للسلطان فى البلاد وال برتبة الباشا يمثله فيها لدى أهلها وحكامها وكانت تنحصر مهمته فى ابلاغ الاوامر التى يتلقاها من السلطان الى الديوان وايصال مبلغ الجزية الى خزينته وصيانة البلاد من الاعتداء الخارجى ومقاومة نمو الاحزاب وتفاقم خطرها

وألفت فرق من مستحفظان الانكشارية والاسباهية بقيادة رؤساء يسمون الوجاقية لتأييد الباب العالى والذود عن حقوقه واختصاصاته ولكنهم بالنظر لاعتيادهم فى مصر خصب العيش وأخذهم بمذاهب أهل الحضر من الترف والنعيم ذهبت منهم البسالة فنشأوا على كراهية المغامرة التى جعلت الانكشارية من أولى البأس والشدة ونجم عن هذا وذاك أن احتفظ المماليك بعصبيتهم ولم يفقدوا شيئاً من صولتهم . وكان لأعضاء الديوان ان يرفضوا أوامر الباشا ويمسكوا عن المصادقة عليها بشرط توافر العلة والمبرر بل كان فى قدرتهم العمل لابعاده وعزله من منصبه

ومن ثم تضاءلت على توالى الايام سيادة الباب العالى على مصر وأصبحت ضيقة النطاق حتى صارت من النصف الثانى من القرن الثامن عشر الى الخيال أقرب منها الى الحقيقة

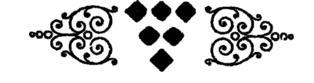
ثم كانت ثورة على بك الكبير التى انتهت باعلان تنصيبه سلطانا على مصر وقد انصدع من جراء هذه الثورة صرح السيادة العثمانية فاصبحت عرضة لخطر السقوط والزوال حتى سهل على المماليك منذ هذا الحين اقعاد البشوات ونفيهم بلا معارض ولا مشاق وكان هؤلاء يشعرون بضعفهم وحرج مركزهم الى حدانهم كانوا اذا وصل اليهم بلاغ يدعون فيه الى التنحى عن منصب الولاية ومغادرة المدينة بادروا من فورهم الى الطاعة فغادروا قصورهم المشيدة بلا مخالفة ولا محاولة مقاومة وجاء من بعدهم خلف تفوقوا عليهم فى الاحتياط وحسن التدبير وصدق النظر فانهم على الرغم من اتصافهم مثلهم بفضيلة الفتوة والبسالة والاقدام أبوا مزالق المناداة باستقلالهم ولم يطفروا الى هذه الغاية التى كانوا يعرفون أنه يسوء الدولة العلية ذكرها لا سيما وأنهم يعتقدون ان ما هم عليه من الاستقلال الفعلى يغنيهم عن اعلان استقلالهم الأسمى بل تظاهروا باحترام الدولة واجلال الأوامر الواردة عليهم من السلطان مع التجافى عن تنفيذها

وكانوا فيما عدا ما تقدم ينتقصون الجزية السنوية ويقصونها من أطرافها متقدمين الى الخزينة بالأعذار الوجيهة كزعمهم انهم نفقوها فى مصالح الدولة وتأييد شوكتها وبلغت الجرأة احيانا بهم الى الوقوف عن دفعها بالمرة متذرعين بباطل الاعذار وفاسد الدعايات . وماكان فى سعة الباب العالى تجاه هذا العبث الا ان يغمض الطرف ويجر ذيل الأغضاء عليه علماً منه بما يعقب التحفز لاصلاحه أو قمعه من النتائج الخطيرة بالنسبة له ومن ثم اتجهت سياسته الى غاية واحدة هى القاء بذور التدابر والانقسام بين المماليك مع اتخاذ الوسائل لمنع تغلب حزب على حزب حتى لا يتمكن الحزب القوى الغالب من تأييد شوكته وتوطيد سلطته على وجه تتم به الوحدة ويتوافر النظام . وكانت هذه السياسة سيئة العواقب على الأمة المصرية التى كانت تسوء على الدوام احوالها ويضطرب حبل شئونها كلما سادت الفوضى وعم الاختلال وتحسن كلما ارتكزت السلطة على اساس وطيد من الهمة والهيبة والنظام »

* * *

وقد تمكن الفرنسيون بقيادة نابليون بونابرت عام ١٧٩٨ م من الاستيلاء على مصر عنوه من الباب العالى ولكن أغراض هذه الحملة فشلت فترك نابليون مصر

فى ٢٢أغسطس ١٧٩٩م ثم غادرها الفرنسيون نهائياً فى ١٨ سبتمبر سنة ١٨٠١م وبعد ان ترك مصر الفرنسيون حاول الاتراك احتلالها مرة أخرى ولكن احتلالهم لم يطل اذا نزع الحكم منهم بعد حين محمد على — يوليه سنة ١٨٠٥ م — وبدأ محمد على لكى يكون صاحب النفوذ الحقيقى فى البلاد ان يخلصها من المماليك وحكمهم ولما كان لاطاقة له على ذلك فى ذلك الوقت اتفق معهم اتفاقا وقتيا (سنة ١٨١٠ م) ولما لم يخلدوا للسكينة استأصل شأفة زعمائهم فى مذبحه القلعة (فبراير سنة ١٨١١م) « صفر سنة ١٢٢٦ هـ » وبذا انتهت الطبقة الثالثة منهم وأما الطبقة الرابعة فسيأتى عنها التفصيل فيما بعد واندمجت بقية شعبة المماليك فى الشعب المصرى وزالت هيبتهم من الحكومة باقصائهم عنها نهائيا بيد عرابى



اخر عهد مصر بالمماليك (1)

— ٢ —

جرى أكثر المؤرخين على اعتبار المماليك طبقتين « المماليك البحرية » و« المماليك البرجية» وزاد عليهم بعض الكتاب طبقة أسموها «المماليك البكوات» والذى أراه انهم طبقات أربع فأضيف إلى الطبقات المتقدمة طبقة أدعوها « مماليك الاسرة العلوية » وبذا أقيم الدليل القاطع على خطأ الرأى الشائع بأن محمد على قضى على المماليك فى مذبحة القلعة .

اتفق محمد على والمماليك عام ١٨١٠ م على أن يخلدوا الى السكينة ويعودوا إلى سكنى دورهم فى القاهرة . وكانت تلك خدعة من محمد على الذى كان فى شغل لاعداد الحملة على بلاد العرب لتخليصها من أيدى الوهابين . ولم يكن فى مقدوره تسيير جندى واحد لهذه المهمة مادامت فى مصر هذه الطغمة الشريرة تناصبه العداء . وقد أكد له سوء نيته محاولتهم اغتياله . وذلك أنه كان فى السويس يدبر أمر السفن التى ستنقل حملته فأرسل اليه وكيله « محمد بك لاظ الكخية » يحذره من المماليك ويعلمه باكتشاف مؤامرة لاغتياله فى الطريق فى أثناء عودته الى عاصمة ملكه . فتنبه محمد على لذلك وبدلا من مكثه فى السويس الى اليوم المحدد لعودته تركها فى غلس الظلام على ظهر نجيب سريع العدو غير مخبر أحداً بوجهة سيره . فوصل القاهرة فى فجر اليوم الثانى يصحبه أربعة من الخدم . ونجا من هذه المؤامرة التى حققت ظنونه من جهتهم وعجلت برغبته فى الانتقام منهم وأبادتهم قبل وثوبهم على عرشه .

وكان لابد لمحمد على أن يلبى دعوة الباب العالى فى استخلاص الحرمين من أيدى الوهابيين فاستعد لذلك فى فبراير سنة ١٨١٠ م وجمع جيشاً مؤلفاً من ٤٠٠٠ مقاتل ووضع على رأس هذه التجريدة نجله « طوسون باشا » ثانى

-١- نشرت فى مجلة الهلال عدد فبراير ١٩٢٩

أولاده . ورأى انه يجب عليه قبل ان يتجرد من قوته المسلحة ان يتخلص من المماليك . فنى يوم سفر الحملة أعد احتفالا فخما فى القلعة يوم الجمعة الأول من مارس . وكان عدد من حضر من المماليك أربعمائة وثمانين مملوكا . واحتشد الناس فى القلعة وكان محمد على منتظراً هناك ، فاستقبل الجميع فى قصره فى داخل القلعة بكل ترحاب وقدمت لهم القهوة وغيرها . ولما تكامل الجمع وبينهم المماليك وجاءت الساعة أمر محمد على باشا بسير الموكب ، فابتدأ الموكب بالجنود الدلاة وتبعتهم العساكر الانكشارية فالجنود الالبانية بقيادة « صالح قوج » وكان هذا عالما بتدبير محمد على من قبل وجاء المماليك بعدهم ثم تلتهم فرقة من الجنود النظامية.

سار الموكب بهذا الترتيب حتى انتهى الى باب الغرب وبعد أن تخطته الجنود الدلاة والانكشارية أمر « صالح قوج » رئيس الجنود الالبانية باغلاق الباب وأمر جنده بالمطلوب منهم ، فاعملوا السيوف فى رقاب المماليك ، وقد انحصروا جميعاً فى مضيق ضيق جداً منحدر من القلعة الى باب الغرب . وهذا الممر مقطوع فى الحجر مابين الباب الأسفل والباب الأعلى الذى يوصل إلى رحبة سوق القلعة ، ولم يكتف محمد على بالجند الالبانى بل أعد لهم أيضاً عدداً من الجنود النظامية أوقفهم على الأسوار وفى نوافذ الحجر المطلة على الممر السالف الذكر لكى يضربوا من أعلى عند مايضرب الالبانيون من أسفل . وبهذه الطريقة تعذر على المماليك الفرار أو التقهقر أو الدفاع عن أنفسهم بوجود خيلهم فى ممر ضيق جداً لايسع جوادين جنباً الى جنب . وبذا تمكن محمد على من فناء جميع المماليك الموجودين فى القلعة اذ ذاك .

ولم ينج من هذه المذبحة الهائلة إلا مملوكان هما « احمد بك » زوج عديله هانم بنت ابراهيم بك الكبير و « أمين بك » الذى هرب من تلك المصيدة الجهنمية . ولقصة هروبه روايتان : احداهما أشاعة يتداولها الناس ويقصها عليك دليل القلعة وهى : — ان امين بك هذا كان داخل القلعة عند ماحصلت الموقعة فلما سمع قصف المدافع هز جواده فوثب به من فوق السور إلى جهة الميدان فقتل جواده وسلم هو . وهذا لايصدق . والأصح أن أمين بك هذا تأخر لداع ما عن ميعاد

الوليمة . فلما وصل الى باب القلعة الخارجى وسمع صوت اطلاق النيران . عاد ادراجه وفر هارباً . وأمين بك بطل لعدد كبير من الروايات الخيالية بالنسبة لحادثة هروبه هذه .

ولم يكن هؤلاء كل ضحايا محمد على من المماليك بل نودى فى المدينة وفى سائر المديريات والأقاليم بان كل من يظفر بمملوك فى أى جهة يجب عليه أن يقتله . وأعطيت أوامر مشددة بهذه التعليمات الى سناجق المديريات . ففى بضعة أيام بعد ذلك الحادث بلغ عدد المقتولين من الأمراء المماليك ماينيف على الألف . وكان بعضهم أيضاً يأتى بمن يمسكه من المماليك الى الكخيا فيقتله . ثم نهبت بيوت المماليك المقتولين وابيحت أموالهم ونسائهم للعساكر الالبانية .

وهرب كثير من المماليك الذين نجوا من هذه المذابح الى الجنوب . فسكن أكثرهم فى مديرية أسيوط ومارسوا تجارة الرقيق مع السودان ومصر . وأقام غيرهم فى جهات أخرى من الصعيد وامتلكوا وحولوا إأكثر مبانيها الى معاقل وحصون يأوى اليها اللصوص وقطاع الطرق . وقد أغاروا عام ١٨١٣ على دير الايباب وحرقوا مكتبته وكان بها مائة رق عليها كتابات أثرية قديمة . وبهذا ضاعت آثار هذه المكتبة التى كانت تعد بحق حتى ذلك الحين أثمن مكتبة قبطية وكان السائحون يفدون من أوروبا خصيصا فى ذلك العصر المظلم لمشاهدة محتوياتها .

ولما خضع لمحمد على الصعيد هرب أكثر زعماء المماليك الباقين الى دنقلة من السودان وتحصنوا بها فأقاموا القلاع والحصون . وعندئذ حاول أن يوقع بهم واحتال لذلك كثيراً . ولكنه فشل فكان ذلك من دواعى حملته المشهورة على السودان حيث ذهبت جنوده وأزالت دولتهم من السودان إلى الأبد .

والآن نتسائل . هل كان قتل محمد على للمماليك فى مذبحة القلعة قضاء نهائيا عليهم ؟ . . . . فقد كان عدد جند المماليك فى أوائل عهد محمد على اثنى عشر الف مملوك مدرب ! . . . . . فاين ذهب كل هذا العدد ؟ الراجح ان محمد على لم يذبح أكثر من الف مملوك كان نحو نصفهم فى القلعة . والواقع ان محمد على لم يوجه همه

إلا الى استئصال شأفة الرؤساء من الجراكسة . وأما اتباعهم الذين لم يرتقوا بعد أن رتبه البكوية فقد التحق الجانب الاكبر منهم بخدمته . والباقون عاشوا أفاقين حتى وافاهم أجلهم فى سن الشباب كما هى عادة الكثيرين منهم . اذ من النادر أن نجد مملوكا قد تزوج وكون له أسرة فقد كان ديدنهم الحروب والفروسية فلا يرضون عنها بديلا . فلما لم يجدوا مصر بعد ذلك ساحة تصلح لغاراتهم وحروبهم هاجروا الى حيث يجدون ميادين متسعة للحروب والمشاغبات فى سورية والسودان وغيرها ومعظمهم كان يموت وسنه لايتجاوز الخمسة والثلاثين . ومن عاش منهم عيشة هادئة ورضى بالزواج . وهو النزر اليسير ، فقد اندمج مع نسله على مدى الأيام فى المصريين

فالمماليك الذين استوطنوا الأقاليم لم يحل بهم ماحل باخوانهم سكان القاهرة . وكان عدد كبير منهم من مماليك القاهرة أعوانا لمحمد على وجواسيس على اخوانهم فنجوا بذلك من العاصفة . وقد خدم كثير من احداثهم فى جيوش محمد على وجمع منهم حوالى الفين لم تبلغ سنهم الثامنة عشر لكى يدربهم على الحرب النظامية . فانتظموا أولا فى حرسه الخاص . ثم التحقوا بعدئذ بمدرسة القلعة . وصاروا بعد ذلك ضباط الجيش النظامى أنشأه محمد على عام ١٨١٥ فى قلعة القاهرة والذى نقل الى أسوان عام ١٨١٨ عندما ثار الجيش الالبانى ضدهم . وكان هؤلاء الاحداث أساس الفرق الأربع التى تم تكوينها حتى عام ١٨٢٤ ومنهم كان ضباطها وهم

* * *

والآن نرى أنه يجدر بنا أن نورد خلاصة عن تاريخ هذه الطغمة فى هـــذا العصر فنقول : كان عدد جند المماليك فى أوائل الحملة الفرنسية أربعين ألفاً ثم نزل الى أن بلغ فى عهد محمد على اثنى عشر الفاً . ومن ذلك الحين أخذ يقل عـدد الوافدين على مصر من المماليك الجدد لكثرة الحروب والثورات فى مصر بين عامى ١٧٩٨ و ١٨١١ م ويجب أن نذكر هنا أن النخاسين لم يجدوا لهم فائدة فى استجلاب هؤلاء المماليك لافلاس البكوات من جهة . وعدم قدرتهم على توسيع نطاق نفوذهم من جهة أخرى ولهذا لم يكن فى قدرة المماليك اذ ذاك أن يكونوا لهم جيشاً جديداً قبل أن يقضى محمد على رابطتهم قضاء مبرماً

ومن عام ١٨٢٤ حتى ثورة عرابى باشا كان قواد الجيش المصرى كلهم من الجركس أى بقايا المماليك الاحداث الذين رباهم محمد على وخلفاؤه . وأنك لتجد ذكرهم فى تاريخ مصر حتى عام ١٨١١ م عندما أراد عرابى باشا أن يطاردهم جملة من الجيش . وهناك جركس آخرون يرد ذكرهم كثيراً فى عهد عرابى هم بقايا مماليك الخديوى اسماعيل فقد اشتراهم بعد قبض الحكومة الروسية على زعيم الجراكسة « شامل » إذ أنه بموت شامل هذا آخر رؤسائهم هاجر الجراكسة من موطنهم الى تركيا وهناك باعوا أبنائهم فاشترى أكثرهم الخديوى اسماعيل وأرسلهم الى مدارسه ثم بعثهم الى أوروبا ورباهم أحسن تربية حتى صاروا ضباطاً مدربين

وفى عام ١٨٨٠ م أبطلت تجارة الرقيق فى مصر . ومنذ ذلك الحين لا نجد فى مصر مماليك يباعون أو يقتنون . ولكن حتى عهد قريب جداً كنا نجد كثيرين منهم على قيد الحياة يشغلون مراكز فى الحياة العامة . وهم على العموم سلالة آرية (١) من الاغريق والجركس والأرمن والكرج وغيرهم وماتزال سلالة من نسلهم تعيش الآن فى مصر . وكثير من بقايا أسرهم موجودة فى كثير من أرجاء البلاد

***

فمماليك الأسرة العلوية هؤلاء الذين ورد ذكرهم فى هذا المقال هم الطبقة الرابعة . وقد ذكر هذه الطبقة عرابى باشا فى مذكراته ومما لايخفى ان السبب المهم فى ثورة عرابى باشا هو تظلم الضباط المصريين من تسيطر المماليك الجركس على الجيش وفى صفحة ٦٢٢ من مذكرات عرابى نرى مايأتى : —

« شارع فى ذلك الحين ان الامراء الجراكسة أوعزوا الى فرقة المماليك الجراكسة الموجودة فى القلعة أن يتمردوا ويحدثوا هياجا شديداً على الحكومة . وكان عثمان باشا رفقى ناظر الجهادية قد جمع تلك الفرقة من مماليك الديوان الذين هم مماليك العائلة الخديوية ليتعلموا التعليمات العسكرية ويترقوا ضباطا بحيث ينتفع بهم فى التغلب على الحكومة عند الحاجة . . . ولما علم الخديوى توفيق باشا بأنفضاح كيدهم

(١) هذا لا يمنع أنه هناك مماليك من سلالات زنجية

أمر على بك فهمى امير آلاى الحرس بانزال الفرقة المذكورة من القلعة واقامتها فى قشلاق قصر النيل تحت ملاحظته . قد دفع بذلك ماكان يخشى حدوثه من فتنتهم »

فأنت ترى من ذلك ان مذبحة القلعة لم تقض على المماليك دفعة واحدة كما كان شائعا وأنه يمكننا الآن أن نقول انه هناك طبقة رابعة من المماليك عاشوا بعد مذبحة القلعة تحت نظر الحكومة ورعايتها . وقد جمعوا من بقايا الطبقة الثالثة ومن الجركس الذين اشتراهم الخديوى اسماعيل

ولم تكن الطبقة الرابعة خيراً فى اخلاقها من سابقاتها ، فقد كانوا كغيرهم من المماليك اصحاب فتن وقلاقل ولكن الفرق الذى كان يميزهم عن اسلافهم هو زوال سلطة الحكم من أيديهم

حقيقة انهم كانوا هم اصحاب النفوذ الفعلى فى الجيش . الا ان نفوذهم ماكان ليتعدى معسكراتهم . وكانت الرياسة فى الجيش بعيدة عن متناول أيديهم . ولذا يمكننا الان أن نؤكد ان الذى قضى على المماليك القضاء النهائى هو الثورة العرابية وليست مذبحة القلعة كما كان شائعاً مشهوراً



علاقة المماليك بالحروب الصليبية

— ٣ —

الحروب الصليبية هى عدة حروب شنتها الدول الأوروبية على الدول التى احتلت سوريا لإستخلاص بيت المقدس منهم ودعيت بالصليبية لان الجنود الاوربية كانت تتخذ الصليب شعارا لها وكانت الأعلام الاوروبية تتميز بوجوده على رقعتها

وقد نشأت أول فكرة لحرب صليبية من الرغبة فى تأمين الحج للذاهبين لزيارة بيت المقدس وقد زاد هؤلاء الزوار فى القرنين العاشر والحادى عشر زيادة دعت للتفكير فى حمايتهم وكانت هذه الزيادة نتيجة لسببين مهمين :

١ — كانت هناك خرافة شائعة فى ذلك العهد تنبىء عن ظهور المسيح فى مبدأ القرن العاشر أو على رأس الألف من التاريخ الميلادى فكان المؤمنون يتسارعون أفرادا وجماعات لزيارة بيت المقدس لنوال البركة والغفران وانتظار ظهور المسيح !!

٢ — اعتناق الطوائف الهنغارية والبلغارية والمجرية الديانة المسيحية مما سهل الطريق امام الزائرين (اذ انه لم يكن هناك الا طريق واحد هو طريق البر الى الاستانة ومن ثم الى آسيا ففلسطين(١) وقد كانت هذه الجموع تتدفق على زيارة بيت المقدس فكانت تلقى هناك من حاكمه أسواء معاملة وأفظع مظالم ، ثم جاء السلاجقة بعد ذلك واستولوا على بيت المقدس سنة ١٠٧٠م مستصحبين معهم الهول والفزع والظلم والاضطهاد فجرحت هذه المعاملة قلوب اهل العالم المسيحى وملأتها حفيظة

---

(١) هناك اسباب أخرى ثانوية أهمها :

١ — رغبة البابا أو الكنيسة الغربيـــة فى السيطرة على جميع العالم المسيحى ، وكل من قرأ التاريخ يعلم بنهوض البابوية فى عهد غريغورى السابع وانسنت الثالث ، ويعلم أيضاً بعزم البابويـة على توحيد العالم المسيحى تحت أمره حكومة دينية واحدة رئيسها البابا . فكان طبيعيا ان ترحب الكنيسة بفرصة تكون نتيجتها اخراج المسلمين من بيت المقدس واخضاع الكنيسة الشرقية لنفوذها

٢ — ميل الفرسان والاشراف الى المخاطرات والسياحة ورغبة بعضهم فى تكوين امارات وحكومات فى الشرق و رغبة الرقيق فى التخلص من قيود الاقطاع التى كانت تربطهم بارضهم

٣ — اعتقاد المسيحين فى مغفرة الخطايا بواسطة الاستشهاد فى استخلاص بيت المقدس.

اما السبب المباشر للحروب الصليبية فهو استنجاد امبراطور القسطنطينية بدول الغرب ، فانه لما انتصر السلاجقة عليه وأصبح مركزه ومركز امبراطوريته مهدداً عمد الامبراطور الى الاستنجاد باقوى امير فى غرب أوربا وهو « البابا » وصادف ان أول طلب للأمبراطور وصل الى البابا غريغورى السابع سنة ١٠٨٠ فكان وفق امانيـــه ، ولو لا اشتغـاله بنزاعه مع الامبراطور لبدأت حركة الحروب الصليبية فى عهده

ثم استنجد الامبراطور « الـكسيوس » « Alexius » مرة ثانية بالبابا اربان الثانى Urbanls » سنة ١٠٩٥ وكان هذا البابا فرنسى الاصل تخرج من دير « كلونى Kluny » وبفضل ما أوتيه من العلم وما كانت عليه البابوية من القوة جمع سنة ١٠٩٥ مجلسا عاما فى كليرمنت Clermont ، تمثلت فيه كل الطوائف من جميع انحاء غرب اوربا وحضره من الاساقفة مائتان وخمسة وعشرون اسقفا . فخطب البابا هذا الجمع كما خطبهم سفراء الـكسيوس وكان « أربان » خطيبا مؤثرا فشرح حالة بيت المقدس واعلن لزوم انقاذه من ايدى المسلمين وحرض الناس على الانضمام للحركة . واعلن حماية الـكنيسة لاملاك المحاربين وعائلاتهم وغفرانها ذنوب الخاطئين فاجاب الجميع بصوت واحد « هـكذا اراد الرب Dieu Le Veut» عند ذلك وضع البابا الصلبان على اذرع الذين تطوعوا ولذا سميت بالحروب الصليبية كما اسلفنا

وخرجت فى الحال الطبقة الدنيا فى جموع غفيرة متبعين بطرس الناسك وهو راهب الهب ادمغة الناس بحماسته ويمـكن ان نقول ان المسئول عن هذه الحملة هو هذا الراهب وزميله الفارس الفرنسى الملقب « ولتر المفلس » .

وعدد هذه الحملات سبعة دامت من القرن الحادى عشر الى القرن الثالث عشر ولا يهمنا من امر هذه الحملات الا الحملة السابعة والاخيرة وهى التى وقع شطرها الاخير فى عهد المماليك .

حدثت هذه الحملة الاخيرة فى عام ١٢١٧ م إذ خرج جيش عظيم على رأسه اربعة ملوك اجتمعوا فى عكا . وبعد ان خربوا الارض المقدسة تقدموا نحو مصر وحاصروا دمياط وعند ذلك ارسل البابا الـكردينال بيلاغيوس نائبا عنه فتولى الاشراف على

الحملة بنفسه وتقدم فى ارض مصر فاستولى الخوف والوجل على سلطان مصر فعرض عليهم مرارا ان يسلمهم بيت المقدس اذا هم جلوا عن بلاده. فرفضوا طلبه وزحفوا نحو القاهرة ولكنهم صدوا واضطروا ان يهربوا الى الشام. وهكذا انتهى مشروع البلاط البابوى العظيم.

وفى اثناء ذلك كانت الدعوة للحرب الصليبية قائمة على قدم وساق فى اوربا غير ان البابا وجه هذه الجيوش الجديدة فى العشر او الخمس عشرة السنة التالية، الى محاربة طوائف الالبيجنسز وهى طوائف مسيحية اجتمعت فى مدينة إلبي فى جنوب فرنسا على ان تعبد الله على طريقة اعتقدت صحتها، وتخالف فى كثير من احوالها طريقة كنيسة رومة، والى غير ذلك من الاغراض التى اهمها محاربة وثنيي الشمال « Northmen

والآن نصل الى ما نسميه الحملة الصليبية الأخيرة على الأرض المقدسة أى اول حملة للويس، سار لويس الى مصر وهاجم دمياط، ونجح فى ذلك كما نجح اولا، ولكنه لقى نفس الخاتمة المحزنة التى لقيها بيلاغيوس منذ ثلاثين عاماً، اذ هزم الجيش فى تقدمه نحو القاهرة ودمر الاسطول، واسر لويس، غير ان توران شاه عامله معاملة حسنة، فكان جزاءه على هذه المعاملة ان ذبحه بيبرس وبذبحه آلت السلطنة اليه، فكان أول اسرة المماليك.

* * *

وقد قام بيبرس بأربعة غزوات مهمة قرب بها أجل القضاء على سلطان الصليبيين وذلك انه لما رأى الكرك قد غلبت على أمرها وان برخ (١) واقف بالمرصاد للمغول علم ان هذه ظروف سعيدة تمكنه من أعدائه فاستجمع عدته للاغارة على الصليبيين سنة ١٢٦٣ الذين كانوا (كعادتهم فى عداوة مستحكمة وتنافس على الرياسة) على اتفاق مع قواد أعدائه المغول ولذلك زحف بجميع جيشه على الصليبيين الذين كانوا قد رفضوا ان يبادلوه الاسرى ولذلك سخر أسراهم فى تشييد حصون دمشق، ولم يكن ذلك هو السبب المباشر لاغارته، بل تسلمهم بعض الحصون ورفضهم اخلاءها اجابة لرغائبه فقام بيبرس اظهاراً لغضبه فاعمل

(١) سنجد ذلك مفصلا فى علاقة المماليك مع المغول

التخريب فى جميع المدن الصليبية التى كان قد استولى عليها ، وهدم كنيسة الناصرة

وبدأت الغزوة الثانية فى فبراير سنة ١٢٦٢ اذ قام بيبرس بحصار مدينة قيسارية التى لم تقو على الحصار أكثر من خمسة أيام ووقعت فى أيدى المصريين رغم حصون لويس العظيمة التى شادها حول المدينة ، وقد أثارت حماسة بيبرس ومساعدته للجنود حميتهم على الاستقتال فى القتال فانقضوا على قلعة ارسوف البحرية الواقعة جنوبى قيسارية ، وقد دافع الفرسان الهوسبتاليون دفاع المستميت عن القلعة أربعين يوما ، ورغم حماسة المماليك ومهاجمتهم للقلعة بشدة لم تسقط فى أيديهم فاضطر بيبرس للمعاوضة مع الحامية فآمنهم على حياتهم فسلموا الحصن له ولكنه غدر بهم وأجبرهم على هدم حصنهم المنيع بأيديهم ثم أخذهم ليزين بهم موكب السلطان الظافر عند عودته لعاصمة ملكه وأعلامهم وصلبانهم مكسرة ومحمولة على أكتافهم .

وقبل ان يغادر بيبرس ميدان القتال أجزل العطاء لكبار الامراء وكان عددهم حوالى ستين أميراً وقد قيدت هذه العطايا فى سجل خاص . وهذا السجل يحتوى على بيان بديع لوصف عصر هذا السلطان وعظمة ملكه بألفاظ تنم على الابهة والمجد ، وانه (بيبرس) وطد دعائم الدين الحق بهزيمة أعدائه من التتار والصليبيين وسجل أعمال أمرائه الابطال الذين نالوا اقطاعات غنية فى أرض فلسطين التى استحوز عليها من الصليبيين وقد شبه أمرائه بالنجوم التى تتلألأ فى القبة الزرقاء . وقد أورد المقريزى صورة هذا السجل وفيه أسماء الامراء والاقطاعات التى منحت لهم (١) .

والآن نذكر الحملة الثالثة ، ففى سنة ١٢٦٦ م هاجم ملك انطاكية (بوهمند السادس) مدينة حمص فارسل بيبرس حملة لمساعدتها . ثم قام بجميع قواته فى غزوته الثالثة . وفى طريقه زار بيت المقدس وأغدق العطايا لحراس قبر ابراهيم ولكنه أمرهم بمنع الحجاج من زيارته ثم عبر نهر الاردن على قنطرة قد أمر بتشييدها قبل ذلك . ولا تزال هذه القنطرة باقية الى يومنا هذا . وقد كتب على العقد الأوسط منها اسم المهندس الذى بناها بأمر بيبرس وهى مؤرخة سنة ١٢٧٣ م

(١) راجع تاريخ المقريزى طبعة كاترمير جزء ٢ من ص ١١ — ص ١٥

(٦٧١ هـ) (١) وعليها كتابة بخط عربى واضح فى أربعة أسطر يكتنفها أسدان (٢) وقد نقل الكولونيل واتسن النويرى عن كيفية قطع الاردن العبارة الآتية « ومؤداها انه فى شهر فبراير عام ١٢٦٦ أمر السلطان بيبرس باقامة قنطرة ذات خمسة اقباء عبر نهر الاردن وقد حدث أثناء اقامتها انه أثناء تشييدها أنهار أحد الأرصفة فغضب السلطان لذلك أشد الغضب وأرسل العمال لاصلاحه ولكن تيار الماء الجارف عطل العمل ، ولكنه حدث بعد مدة فى ليل ٨ ديسمبر سنة ١٢٦٧ إن وقف جريان الماء فاشعل البناءون المشاعل وعملوا بحمية حتى أتموا بناء الجزء المتصدع ولولا ذلك لما أمكن اتمامه وقد أرسل العلماء فى اليوم الثانى لاستطلاع الخبر فوجدوا ان السبب هو انهيار تل فى مجرى النهر منع تدفق الماء الى حين حتى تم ترميم الجزء المتهدم . ولما تدفق الماء فى مساء ذلك اليوم بعد ان تغلب على التل كان العمل قد انتهى وقد ختم النويرى قصته هذه بهذه الجملة « إنه فى الحقيقة شىء غريب ، فان القنطرة لاتزال قائمة حتى اليوم » .

* * *

تقدم بيبرس بعد أن عبر سد الاردن الى عين جالوت وبحيرة طبرية ، وفى ذلك الحين وصلت البشائر ان النجدة التى سيرت لتخليص حمص قد أنهت مهمتها على أحسن وجه وحاصرت صفد (٣) وشددت عليها الحصار فذهب بيبرس بنفسه ولاحظ حركة الحصار واستعمل جنده النار الاغريقية فى الاستيلاء على الحصن وبعد مدة من الحصار منح بيبرس الحامية أمانا على أن تلقى السلاح وتترك القلعة إلا أنه غدر بأهلها وأهلكهم عن بكرة أبيهم فقتل منهم نحو الفين من الصليبين وقد عزى بعضهم هذه الجناية الى أن الجنود الصليبية كانت تحمل أسلحتها حين مغادرتها القلعة وينسبه بعضهم الى أنه حين دخول الفاتحين وجد أن بعضا من المصريين كان مسجونين داخل القلعة على ان هذه الاسباب كلها لم تكن تدعو

---

(١) راجع الصورة والمقال التى كتبها كليمونت جانو فى المجلة الاسيوية سنة ١٨٨٨ ص ٣٠٥ Pont del yddar

(٢) راجع تاريخ طبعة كاترمير جزء ص ٣١ وراجع أيضا Palestine Exploration Fund عدد يوليو عام ١٨٩٥ ص ٢٥٣ وفيها مقال عنوانه سد الاردن فى عام ١٢٦٦)

(٣) هى قلعة على جبل خلف بحيرة طبرية

لهذه القسوة التى لا مثيل لها وقد لخص (ويل) فى تاريخه الاسباب التى دعت الى هذه الشدة التى لايصدقها العقل ، وقد كتبها فوقعت فى نحو صحيفتين من كتابه (جزء ٤ ص ٤٥٠) وقد عفا بيبرس عن اثنين من رجال الحامية بتوسط أحد الامراء . ويقول المقريزى ان أحدهما أسلم وان الآخر استخدم لتدس أخبار الجيوش الصليبية وبعد ان عاثت الجنود فى صفد فسادا أصدر بيبرس أمراً باعادة بنائها ونقش على جدرانها قصة تدل على الفخر والصلف منها أنه « اسكندر زمانه وعماد الدين الذى حول الكنائس الى مساجد ، ورنين النواقيس الى أصوات المؤذنين وقراءة الانجيل الى ترتيل القرآن . وفى آخر القصة « نصر الله المؤمنين الى يوم القيامة » . . .

وفى عام ١٢٦٨ قام بيبرس برحلته الرابعة والاخيرة . فقد زحف بجنده على طرابلس وانطاكية بعد استيلائه على « شقيف » وانقضاضه على « يافا » بدون انذار وقد لاقى صعابا جمة فى الاستيلاء عليها فاراد ان ينتقم من بومند صاحبها لمساعدته المغول فى هجومه على سوريا فخرب كل البلاد التى حول طرابلس وذبح كل من وقع فى يده من الأسرى وهاجم انطاكية واسر حاكم المدينة وحاول بواسطته أن ينال صلحا باخلاء المدينة . ولكن الصليبين رفضوا ذلك رفضا باتا فالح على اسوارها بالهجوم ثم تسلقها واقفل أبواب المدينة على من بها وذبح أكثرهم ومن بقى أخذه أسيراً وكان عدد هؤلاء حوالى مائة الف نسمة أكثرهم من القسوس والرهبان . وبعد ذلك سلم رجال الحامية وكان عددهم حوالى ثمانية آلاف عـــدا الاطفال والنساء الذين فرقوا على الجنود كأنهم سبايا حرب . أما القلعة فقد أشعلت فيها النيران فامتدت منها للمدينة فابقتها هشيما وعند ذلك أرسل بيبرس رسالة تهكم الى بومند يشاطره فيها الحزن على عاصمة ملكه المفقود

وبعد ذلك تقدمت جنود بيبرس حتى استولت على « أكار » الواقعة بين طرابلس وحمص وعند ذلك ارسل بيبرس خطابا آخر كله سخرية الى بومند أيضاً ، ذكر فيه : « إن رايتنا الصفراء قد سادت بدلا من رايتكم الحمراء وان « الله أكبر » قد أخرست نواقيس كنائسكم »

ومما يجب ملاحظته ان مدينة تدعى « قصير » كانت من ضمن أملاك أحد

الامراء الصليبين المدعو ولهلم نالت نصيباً وافرا من تلك الاضطهادات ولكنها نجت منها بأن قدمت الى الفاتح المغير وثيقة قديمةفيها ان عمر بن الخطاب أوصى بأن تبقى هذه المدينة تابعةللمسيحين فاحترم بيبرس هذه الوصية ولكنه احتال بعد قليل فى سلبها وأسر ولهلم وحمله مقيداً الى دمشق

وبعد ذلك عقد بيبرس هدنة لمدة عشرات سنوات بينه وبين مدينتى صور وعكا سنة ١٢٧٥ وبعد موت بومند دخلت طرابلس فى مهادنة مع بيبرس أيضاً ولم يبق للصليبين من البقاع بعد ذلك إلا شىء قليل

بعد ذلك بقيت الاحوال مستقرة قليلا حتى عام ١٢٨٥ م وذلك لأنا غارات المغول كانت مستمرة على المصريين فانشغلوا بها ولكن الجو لم يخل من مناوشات قليلة إلا أننا أهملناها لعدم أهمتها . ففى هذه السنة قام قلاوون بغارات شديدة على الصليبين بقصد استخلاص ملك الشام منهم فاستولى على مدينة اللاذقية مع أنها كانت بموجب معاهدة طرابلس من أملاك الصليبين

وفى عام ١٢٨٩ م هاجم قلاوون طرابلس نفسها لسبب تافه وهوانه على أثر موت بومند أدعت أخته حق الملك ، وكان برترام صاحب مدينة « جبليت» وعد بمساعدة قلاوون بشرط ان تكون له المدينة ويكون تابعاً له ، إلا أن أخت بومند لما رأت ذلك تنازلت عن حقها فى العرش فظن برتران أنه أصبح حراً من عهوده لقلاوون ، فاتخذ هذه الفرصة ذريعة له لاعلان الحرب التى كان يرجوها منذ زمن طويل ، وكانت مدينة طرابلس فى ذلك الحين مدينة عظيمة منيعة آهلة بالصليبين ، ومع ماقدمته قبرص من المساعدة لها سقطت بعد حصار شهر ودمرت المدينة فىمذبحةهائلة وسيق ألوف من النساء والاطفال سبايا . ومع هذا فالفرسان والبارونات تلقوا هجمات على أمكنتهم الباقية على الساحل بشن غارات كثيرة وبخرق حرمة الهدنة حتى لم يبق فى أيديهم فى آخر الأمر غير عكا وحدها فكانت المركز الذى احتمى فيه كل الصليبين . ثم حوصرت عندئذ ، ولقد كانت هـــذه المدينة فى العظم كما وصفها ولكن (١) (فى تاريخه الألمانى الذى يقع فى ثمانية

1 — Geschichte der Kıeugziige nach Morgn landischen und Abendlandischen Berichten, 1807 —1832

يعتبر هذا الكتاب خير ما كتب فى هذا الموضوع وهو دائرة معارف تاريخية حافلة الشأن وحبذا لو عنيت الحكومة بترجمته

مجلدات) وصفاً دقيقاً جميلا ويعلم منه أنها مدينة كبيرة فخمة مترفة هرع اليها الفرنجة من كل حدب وصوب اذ كانت آخر مأوى لهم ، ومع أنهم كلهم صليبيون ، لم يزالوا كما كانوا ، فريسة للانقسام والتحاسد والشرة والخلاعة حتى فى النزع الأخير. ولما كان زعيم الهيكلين يحرص على انقاذ هذه المدينة العظيمة ذهب الى السلطان وحصل منه على شروط مسالمة ، ولكن صنيعه لم يرق القواد ، فخلعوه وردوه خائباً الى قصر السلطان

ولم يمض طويل وقت حتى ضج بعض تجار المسلمين من سلب المسيحيين ونهبهم لهم بالقرب من عكا . فاتخذ المسلمون ذلك ذريعة لأسعار نار الحرب على هذه المدينة التى هى آخر مأوى الصليبيين ، على أن مهاجمة المدينة لم ترق أمراء المماليك الذين كانوا يخشون منعة حصونها ولكن السلطان حصل على فتوى من القضاه تنص على ان ما لحق التجار من الأهانات مبرر كاف لاعلان الجهاد على الصليبيين ، فاعلنه وزحف بقوة عظيمة لحصار القلعة ولكن المنية عاجلت قلاوون فى طريقه فترك ذلك العمل لخلفه .

وفى عام ١٢٩٠ تولى الخليل بن قلاوون عرش والده واقتدى به فى اصراره على اخراج الصليبيين كافة من أسيا فاحتفل عام ١٢٩١ للعمل على تنفيذ هذا العزم باقامة حفلة ذكر حول قبر والده وأمر فاستدعى جميع أمراء سوريا الى دمشق حيث اجتمع الامراء وطلب منهم أن يمدوه بجميع وسائل النقل اللازمة لنقل جيوشه الى أسوار عكاء .

ولما كملت معداته هاجم المدينة وحاصر أسوارها ونصب حولها اثنين وتسعين منجنيقاً ، فدافع جنودها دفاع المستميت ، وأرسلت قبرص نجدة بحرية لشد أزر الحامية ولكن نيران الحسد والضغينة والحقد التى كانت تغلى فى قلوب الصليبيين فتت من عضد حماسة رجال الحامية وفرقت بين قلوبهم فهرب عدد كبير من سفن الاسطول تاركين المدينة المحاصرة وشأنها ، فسقطت فى أيدى الخليل ورجاله بعد حصار دام ٤٣ يوما .

وأعقب سقوط هذه المدينة فى أيدى المصريين مذابح تقشعر لهولها الابدان اذ أوقع الجنود برجال الحامية جميعهم فافنوهم عن بكرة أبيهم . وأخذ الأطفال

ليكونوا مادة لجيش المماليك وليكون منهم بعد مدة جنوداً وأمراء مصريين . وأما النساء فبيعوا بيع السلع والاماء فى أسواق القاهرة .

وقد بالغ الخليل فى الفتك بهم ، حتى الفرسان الذين وعدوا بأن يفسح لهم طريق النجاة أمر السلطان بشنقهم جميعاً بدون شفقة ويعزى ذلك الى أن المصريين لما دخلوا الحصن أساءوا الى النساء . فاوصد الصليبيون خلفهم الأبواب وذبحوا بعضاً من رجالهم المعتدين (١) .

وعلى أثر ذلك أحرقت المدينة بعد ان مكثت فى أيدى الصليبين مائة عام كاملة (٢) وبعدئذ ترك الصليبيون كل مابقى فى أيديهم ، ولاقى أهل بيروت من العذاب أكثر مالاقاه أهل عكا .

ومن ثم عاد الخليل بن قلاوون الى عاصمة ملكه حيث استقبل خير استقبال وأقيم له مهرجان فخم سار فيه موكبه وخلفه الاسرى يحملون الاعلام الصليبية المنكسة وخلفهم جنود المماليك تحمل على الحراب رءوس الامراء الصليبيين .

وهكذا ختمت الحروب الصليبية سنة ١٢٩١ ، بعد أن مضى عليها قرنان من الزمان كانت تشتد فيها وطأتها وتخف ، وقد حدثت بعدئذ غارتان بسيطتان احداها قام بها السلطان الناصر فى مارس سنة ١٣٠٢ ضد الفرسان الهيكليين اللذين كانوا يحتلون جزيرة ارواد فاستولى على الجزيرة وطردهم منها والاخرى رد بها يلبغا سنة ١٣٦٨ جموع القياصرة التى حاولت الاغارة على مصر .

وهكذا انتهت هذه الحروب وقد ختم المؤرخ « جبون » المؤرخ الانجليزى وصف الحروب الصليبية بقوله « ساد سكون محزن على امتداد ذلك الساحل الذى ظل ازمانا طويلة ميدانا تسمع فيه قعقعة سيوف نضال العالم (٣)

* * *

بقى ان نقول كلمة عن نتيجة هذه الحروب الصليبية التى أيقظت العالم الغربى

-١- راجع تاريخ (ولكن) السالف الذكر جزء ٨ صفحة ٧٦٠ — وراجع ايضا تاريخ ويل ملاحظة ٤ . ص ١٨١)

(٢) راجع تاريخ ابى الفداء

(٣) راجع تعريب تاريخ دوله المماليك صفحة ٦٣ تاليف سير وليم موير

من سباته العميق ، وهى التى كان لها فضل السبق فى جميع الممالك الأوربية المختلفة على عمل مشترك كان الغرض منه عظيما ولكن أسىء تنفيذه فعلمت شعوب أوربا وملوكها الاتحاد من أجل غرض واحد وقوت مركز البابا فى نزاعه مع الامبراطور ونشطت التجارة بين الشرق والغرب وصارت مصر وسوريا سوقا تجارية بين الغرب والشرق . فزادت ثروة الحكومة والاهالى زيادة عظيمة ظهر أثرها فيما شاده سلاطين المماليك من الآثار . وبقى الأمر كذلك الى أن كشف طريق رأس الرجاء الصالح وتحولت التجارة والنهضة من الشرق الى الغرب .

وكان نتيجة لهذه الحروب ظهور المدن فى أوربا وخصوصا المدن التجارية وشراء حريتها من الاشراف بالمال والتقليل من نفوذ الاشراف ، وظهور الطبقات الوسطى وتقوية مركز الملوك فى اوربا . ومعنى هذا القضاء على نظام الاقطاع وازالة بعض الفوارق التى كانت تفرق بين الطبقات فى اوربا . ومن اهم المدن التى نشأت فى ذلك الوقت مدن ايطاليا المستقلة وكانت هذه المدن واسطة الاتصال بين الشرق والغرب فأدخلت الى اوربا كثيرا من نفائس المصنوعات والمحصولات الشرقية .

وبدأ اهتمام الناس باخبار الرحلات والاستكشاف وذلك على اثر ما حملة الصليبيون الى بلادهم من خيرات واخبار البلاد التى زاروها وكانت نتيجة ذلك ان ظهر الرحالة « مركو بولو Marco Polo » فى القرن الثالث عشر . والحروب الصليبية هى التى اوجدت فى اوربا الميل الى الشرق الذى كان من اثاره زيادة فى المعارف الجغرافية والتاريخية عن الشعوب والبلدان ووسعت الافطار من جهة اللغة وعادات وطبائع العالم الاسيوى .

ولكنها مع ذلك زادت الاضطهاد الدينى وساعدت على القسوة واراقة الدماء وبينما كان من المنتظر ان تقل ثقة الناس برجال الكنيسة الذين لم تصدق واحدة من وعودهم نجد ، وهذا من الغريب ، العاطفة الصليبية اتت بنتائج مخالفة لما كان منتظراً تماما اذ جاءت بفظائع وقسوة محاكم التفتيش واحكامها التى لا تقبل النقض ، ومكنت الاقدام السيادة البابوية وملأت خزائنها بالأموال

علاقة المماليك بالمغول التتار

— ٤ —

سمى المغول بالتتار خطأ لأن لفظ « التتر » جمع مفرده « تاتا » اسم لطائفة مغولية صارت أمة على يد جنكيزخان وانتشرت فى الغرب لأنها كانت تؤلف طلائع الجند المغولى فترتب على ذلك انتقالها بالتدريج الى غربى بلاد المغول واسم هذه الجهة عندهم « تركى » وهى مقر الاتراك فكان ينبغى ان يسمى هذا الفرع من الجنس المغولى « المغولى التركى » او بالاضافة الى منازلهم الجغرافية « الاورال الطائى » « Ural - altaic » بدلا من اسمهم الحالى « المغول التتر Mongolo-tatars »

والمغول ذوو رؤوس عريضة ووجنات مرتفعة وبارزة بروزاً جانبيا ، وفك بارز قليلا ، وأنف قصير جداً ومنبسط ، وحواجب منخفضة ومقوسة قليلا ، وعيون صغيرة سوداء منحرفة وزواياها الخارجية مرتفعة قليلا

هذه الأمة الاسيوية كانت مثار الرعب والخوف فى قلوب جميع الامم فى ذلك العصر الذى نتكلم عنه فقد دانت لهم فى أوائل عصر بيبرس عام ١٢٦٢ م دولة امتدت من نهرجيحون الى المحيط الهندى ولا يزال حتى اليوم فى الشرق كله اسمهم « الهون » صفة للعذاب المهلك . وكان الظاهر بيبرس فى خوف ووجل شديد من جيوشهم التى كانت تطمح فى ملك مصر فى سوريا فدعاه ذلك الى عقد محالفتين هجوميتين دفاعيتين احداهما بينه وبين « برخ » صاحب « قبجاق » عدو « أبغا » رئيس المغول إذ ذاك ، والاخرى مع قيصر الدولة الرومانية عـــدو الحروب الصليبية التى اضرت ببلاده ضرراً بليغا ، خصوصا الحملة السادسة منها

« وقد استحكمت عرى المودة بين الظاهر وقيصر حتى ان بيبرس قبل بطريركا ملكانيا موفداً لمصر لمن يدين بهذا المذهب فيها . وبنى القيصر فى عاصمة ملكه جامعا للمسلمين ولم يقنع الظاهر بهذا فقط بل أرسل سفراءه ليطلب ود اسبانيا ونابلى والسلاجقة . لابل أرسل وفوده الى كل مكان يجد فيه مساعدة ضد

أعدائه العنيدين ، ومع كل هذه الاستعدادات الهائلة لم تكن لدى المغول القوة الكافية لغزو مصر فى ذلك الحين ، اذا كانت مشاغلهم الداخلية تشغلهم عن كل شىء عداها

بقيت العلاقة هكذا علاقة رعب واحتياط حتى عام ١٢٧٣ م عند ما تخلص بيبرس من جميع مخاوفه وضمن مساعدة جميع حلفائه ، فقام بجيوشه كلها وهو على رأسها الى مهاجمة المغول الذين كانوا قد بدأوا يزحفون غربا ، فسارخلفهم حتى لحقهم عند نهر الفرات واصلاهم بسيوفه وبنادقه فى واقعة هائلة ، شتت فيها شملهم وطردهم من البلاد تماما

وقضى بعد ذلك السنتين التاليتين ١٢٧٤ — ١٢٧٥ م فى تعقب جيوشهم فى أسيا الصغرى وقد كللت جميع أعماله فى طول تلك المدة بالنجاح

وفى العام التالى ١٢٧٦ م قام بيبرس بأهم غزواته وآخرها وسببها انه أرسل جيشاعظيما لمعاضدةالسلاجقة فى أرمنيا ضد احد نواب المغول الذين قهرهم ! فسارت تلك الحملة وقامت بما طلب منها إلا أنها لم تحقق آمال بيبرس فى توطيد سلطان مصر فى تلك الجهات ، فقام فى عام ١٢٧٧ بجيش عرمرم قاصدا كليكيا فانقض على حاميتها وبددها شر تبديد ، ودخل المدينة دخول الظافر القاهر وجموع الاهلين تحيط بموكبه ، و بعد ان قضى أياما سعيدة فى المدينة رأى بنظره العسكرى الثاقب ان مركزه بها مهدد ، فغادر المدينة بطريق النهر الازرق الى مدينة « حارم » وقضى بها مدة طويلة لعلمه بقوة مركزه الحربى فيها

وفى تلك الاثناء كانت الاخبارقد وصلت الى ابغا من هزيمة جنده فعاد بسرعة على رأس جيش قوى ليثأر لهزيمة جيشه ، ويعيد نفوذ المغول على تلك الاصقاع فوجد ان بيبرس قد غادر المدينة فانتقم من أهلها شر انتقام وأعمل فيهم السيف والنار حتى ان بعض المؤرخين يقرر عدد القتلى بمائتى ألف وبعضهم أبلغه الى خمسمائة الف . فلوسلمنا فرضاً بهذه المبالغات لايسعنا إلا القول بأن المذبحة كانت شنيعة وهائلة ، وعلى كل حال فان جرم هذه الذبحة يقع على كاهلى بيبرس الذى خان المدينة ، وابغا الذى استباح دماء أهلها ، وقد سر بيبرس ان عدوه الذى كان يخاف منه على ملكه فى سوريا قد حول انظاره عنها الى الشمال

وفى عهد قلاوون فى عام ١٢٨٠ م اجتاحت جنود المغول البلاد السورية مرة اخرى واقترفت من الاثام والجرائم ما جعل السوريين يضجون من هؤلاء ويتركون البلاد هاربين من امام هذه القبائل البربرية ، وقد هاجر اكثر اهالى دمشق الى حدود مصر نفسها ، اما قلاوون فانه جهز جيشا عظيما وسار للقائهم من القاهرة فالتحم معهم فى عدة ملاحم كانت نتيجتها سجالا اذ لم يتمكن احدهما من تشتيت شمل الجيش الآخر . وخشى قلاوون اتحاد المغول والصليبين ضده ، فهادن الصليبين لمدة عشرة اعوام ، وابرم محالفة مع ملك طرابلس

وفى العام التالى سنة ١٢٨١ زار قلاوون سوريا ليحتفل بجنازة السلطان السعيد الذى مات فى الكرك ، وفى اثناء مكثه فى سوريا ، هاجم المغول شمال سوريا مجتاحين كل البلاد التى امامهم بقيادة « ابغا » واخيه « منكوتمر » فبذل قلاوون كل مايستطيع من قوة لجمع جيش قوى لمقابلة عدوه فجمع أكثره من المصريين والسوريين والقبائل التركمانية الخاضعة لحكم مصر ، فقابل المغول عند حمص فى جيش ضخم ثلثه من أهل جورجيا والارمن والاغريق ، ودرات بينهم المعركة فكان النصر فى جانب المغول أولا ، فاستقل قلاوون ومماليكه بربوة مجاورة وداوموا القتال رغم الانخذال ، ولم يلبث المغول ان اضاعوا فوزهم بتسرعهم بترك الميدان نحو حمص لجمع الاسلاب فهاجم قلاوون بعد أن جمع شتات جيشه مؤخرة جيشهم وأشبعهم تقتيلا ، فكبا جواد منكوتمر به فسقط عنه وجرح ، ثم لم يلبث ان مات كمداً ، وتبعه أبغا حزنا أيضا على خيبته أما الجيش المغولى فقد باد أكثره

« ويعتبر انتصار قلاوون هذا ، من أعظم الحوادث فى تاريخ مصر والشرق اذ لو كان الانتصار فى جانب المغول لكان تغير تاريخ مصر كله تغيرا كليا . وكانت ميول « ابغا » المسيحية أثرت فى مصير مصر وسوريا ، اذ بينما كان المصريون يحمون الخلافة الاسلامية كان ابغا لايتنازل عن اعتقاده المسيحى ولا يسمح لرعاياه باعتناق غيره ، والواقع ان ابغا استمر على ارسال بعوثه الى البابا وملوك العالم المسيحى ، (١٢٦٧ م — ١٢٧٦ م) طول مدة حكمه ليستفزهم لمساعدته ، بارسال حملات صليبية على مصر ، ليقضى بها على ملك المماليك

« ولما مات « ابغا » استولى على عرشه أخوه واعتنق الاسلام وتسمى بأحمد

ودارت المكاتبات بينه وبين قلاوون ، إلا ان ابن أخيه « أرغون » هجم عليه وقتله فتغيرت سياسة المغول تبعاً لذلك لان هذا الملك الجديد كان مثل والده ينزع للدين المسيحي ، وقد حذا حذوه في ارسال البعوث الى البابا عارضاً عليه ان يضع تحت تصرفه جميع ارزاق دولته وان يمنحه ملك سوريا ومصر اذا تم له فتحهما ، فى مقابل إن يعضده بجنده لاكتساح المصريين من سوريا ، وبلغت به الرغبة فى ترغيب البابا ان أعلن انه على أثر سقوط بيت المقدس ، يتنصر هو وجميع جيشه ولكن البابا كان منهمكا بمشاغله فى أوربا فلم تسفر مفاوضات المغول عن نتيجة وحبطت كل المساعى التى بذلوها ، فلم يحاولوا إن يثأروا لأنفسهم من هزيمة حمص بل عادت العلائق الحبية بين الدولتين ، وكان أرغون هذا يعطف على المسيحين واليهود كثيراً ، وقد عين يهوديا فى وظيفة عالية فى مدينة بغداد . وفى سجلات الارساليات المسيحية ثناء عاطر على حكم أرغون الذى استقبل المبشرين المسيحين مقابلة حسنه فى بلاد الفرس .

ومما يجب ذكره ان رسالتين بخط أرغون وايلجيتو محفوظتان الى الآن وهما مرسلتان الى فيليب الجميل . ومراسلات أمراء المغول هذه مع الباباوات وحكومات أوربا لها أهمية عظيمة للرجوع اليها كمراجع لاتقبل النقض ، وكان ابغا هـذا متزوجا من زوج اغريقية وهى بنت غيرشرعية للقيصر

وبعد موت أرغون . اعتنقت أسرة المغول الديانة الاسلامية فتحسنت العلائق بينهم وبين مصر ودارت بينهما مكاتبات المودة حينا طويلا .

« وفى عام ١٢٩٢ م فى عهد السلطان خليل ابن قلاوون ولم يبق مايشغل هذا السلطان ، فى داخلية بلاده ، فوجه كل قواه ليسحق قوة المغول الذين كانوا ولا يزالون شوكة فى جنب مصر ، فاعد الخليل عدته للقيام بحملة شديدة عليهم ، ولكنه قبل أن يبدأ السير ، صلى بالناس فى قبة والده ليثير حميتهم الدينية للجهاد ، وبدأ الزحف مع جنوده المماليك من حلب الى قلعة الروم ففتحها ، ولما سقطت فى يده أرسل منشوراً الى جميع قواده بأنه قد غير اسم قلعة الروم باسم « قلعة المسلمين » وكتب هذا المنشور بلهجة كلها فخر خاص بالمماليك قائلا فيه انه قد كتب له ان يخضع الشرق لسلطانه من مشرق الشمس إلى مغربها ، ولكنه مع ذلك لما ظهر له

المغول ، تراجع بجنده تاركا القلعة التي غير اسمهما

توطدت دعائم السلام مابين المماليك والمغول بانسحاب خليل من الميدان حتى عام سنة ١٢٩٤ عند ماخرجت قبيلة مغولية تدعى « العويراتية » فارة من وجه المغول ملتجئة الى اعدائهم المصريين ، ولما كان السلطان الجالس على العرش فى مصر اذ ذاك هو « كتبغا » ينتسب نفسه الى هذه القبيلة ، لسوء حظه ، اذ أنه بعد نزول هذه القبيلة واقطاعها أرضاً فى سوريا كرهها الناس لطبائعها الوثنية رغم اسلام أكثرية أفرادهم ، وذلك لأكلهم لحوم الخيل (١) ، وكان عدد أفراد هذه القبيلة حوالى ١٨٠٠ نسمة ، ذكر المقريزى ان بعض هؤلاء التعسين قطعت أيديهم وأرجلهم وألسنتهم ، وعلق بعضهم على أبواب المدينة . وقدجرى ذلك ، على نحو ثلثمائة نسمة لكراهية الناس لهم .

وبعد خمس سنوات فى يناير سنة ١٢٩٩ م بعث السلطان أحد أمرائه المدعو « قبجاق » على رأس جيش قوى الى حلب حين وصلت الى مسامعه أشاعة زحف المغول على سوريا ، ولكنه فى الواقع كان الغرض من هــذه الحملة هو قتل « قبجاق » الذى أرسل لاجين أوامر سرية مع رسول يحتم فيها أن يدس له السم ويقتله هو وأصحابه مهما كلفه الأمر ولما شعر قبجاق وبطانته بهذه النية ، تخطى الحدود المصرية وسلم جيشه الى أعداء مصر المغول فاكرم « غازان » ملكهم ، وفادته ، وأغروه بالمال والرجال للهجوم على سورية .

كان وجود « قبجاق » هذا فى بلاد المغول ، داعية لاستعجال المغول فى الهجوم على مصر ومعهم هذا الجاسوس المصرى ، فاذا أضفنا رغبة قبجاق هــذا للانتقام من مصر الى العداوة القديمة العهد بين مصر والمغول والتى بدأت ان تستيقظ ، والى أيضاً اكرام مصر لمن فر اليها من عصاة المغول ، علمنا السبب فى الحملة القديمة التى قام بها المغول مغيرين على الحدود المصرية فى خريف عام ١٢٩٩ م ، فاجتاحت الجنود المغولية البلاد أمامها بينما المصريون كانوا لايزالون لم يستعدوا للسير للحملة ، ومما زاد المماليك عطلة فى الطريق تأخرهم جبناً للقضاء على المشاغبين من المماليك والعويراتية السالفى الذكر .

(١) راجع تاريخ ابى الفداء ص ٢٣ جزء ٩

وبعد ان تخلص المماليك من المشاغبين ، جدوا للقاء المغول ، وكان « غازان » المغولى قد عبر نهر الفرات مع جيش مكون من نحو مائة ألف مقاتل ، فالتقى الجيشان عند « سلمية » بجوار حمص ، وكان الجيش المصرى نحو ثلاثين ألف مقاتل فدحر وولت جنوده فارة ، تاركة ميدان القتال ، فانفتح الطريق بذلك الى دمشق. فهجرها أكثر أهلها ، وغادرتها الحامية المصرية ، فى ٣٠ ديسمبر سنة ١٢٩٩ م ، غير ان غازان عند ماقارب دمشق خرج اليه وفد من أهالى وعلماء المدينة فأصدر أمره بتأمين السكان وعدم مساسهم بسوء ، وأصدر عهداً قرىء فى الجامع الأموى يكفل حماية الأهالى والسكان من جميع الأديان ، ويعد بحكومة عادلة فى جميع المملكة المصرية اذ سلم الاهالى البلاد بدون حرب ، وقد ذكر النويرى فى تاريخه هذا العهد كاملا ، وفيه كثير من الآيات القرآنية ، وقذف فى حكومة المماليك ، وفى تأمينه لاهل الذمة اقتبس من كلام الامام مامعناه اذا دفع أهل الكتاب مايفرض عليهم من الضرائب كان لهم مالغيرهم وعليهم ماعلى المسلمين . وبالرغم من نجاة دمشق بهذه الطريقة كانت كل البلاد السورية ، قد اجتاحتها وضربتها الجنود المغولية الا ان جميع القلاع بقيت بأيدى حاميتها المصرية اذ انه كان من المتبع الا تكون القلاع فى سورية تحت حكام المدينة بل تحت قوادمستقلين وقد نصب قازان على سوريا نائباً مغوليا ، وعين « قبجاق » مكافأة له على خدماته للمغول وخيانته للمصريين حاكما لدمشق ، غير ان غازان اكتفى بهذه الفتوح وعاد الى مقر ملكه بعد أن وزع منشوراً على الاهالى والحكام فى فبراير سنة ١٣٠٠ مهدداً فيه بالعودة إذا أبدت البلاد أى اشارة من اشارات العصيان

وفرت الجنود المصرية فى طريقها وهى عائدة الى مصر من أمام الاعداء ، ومرت بدمشق فى اثناء سيرها فعاثت فيها فساداً ، وسرعان ماوصل السلطان الطفل الى عاصمة ملكه حتى بدأ بجمع الضرائب ويثقل كاهل الاهالى بما فرضه عليهم ليجمع جيشاً جديداً يمحو به عار الهزيمة . وفى مارس من السنة نفسها قام جيش ضخم من مصر لينقذ سوريا من أيدى المغول ولما كان هؤلاء قد جلوا عن البلاد فقد دخلها المصريون بدون قتال ، وعفا السلطان عن قبجاق وأنصاره وعادوا إلى مصر معه وأما السلطان فقد أذاق سوريا العلقم . وانتقم من أهلها الذين والوا المغول وفرض

عليهم أثقل الضرائب ، فبقيت سوريا بين ويلين ويل المماليك وعيثهم بالبلاد وويل الخوف من عودة غازان وجنده

وقد بدأ فعلا غازان الهجوم على سوريا فى شتاء سنة ١٣٠١ ، وهاجم أنطاكية ولكنه جلا عنها لشدة البرد ، ولعدم مساعدة الدول الاوربية له التى كان يؤمل فى مساعدتها حتى تلك اللحظة ! فان رسل المغول كانت تفد حتى عام سنة ١٣٠٢ م الى بلاط انجلترا [١] وفرنسا . ولما سمع بذلك نساء جنوه أخذن فى التأهب للاشتراك فى الحرب لولا فشل المشروع ولا يزال رد الملك ادوارد المؤرخ ١٢ مارس سنة ١٣٠٢ م على هذه الرسالة محفوظاً حتى الآن

ولما علم غازان أنه لا فائدة من انتظار مؤازرة الغربيين له رأى أن يهادن مصر فارسل بعثاً معه رسالة الى مصر يعيب فيها على السلطان مهاجمة أملاكه بدون سبب ويهدده فيها إن لم يكف عن قتاله فيعود الى سوريا ليخربها فرد عليه الناصر رداً مماثلا لرسالته وعاب فيها عليه كونه من سلالة وثنية وإنه يسعى للتحالف مع الصليبين اعداء الخلافة الاسلامية وختم رده بأنه مستعد للتهادن معـــه إذا ترك كبرياءه وغطرسته وقد أورد « ويل » فى تاريخه نص هذه الرسالة وهى تقع فى تسع صفحات وبها كثير من الآيات القرآنية ، ولما وصل هذا الرد الى أيدى غازان استشاط غضباً وعقد العزم على العودة لمهاجمة سوريا

وقد بر غازان بعزمه فقام فى عام ١٣٠٣ م بجموع هائلة من المغول وأهل جورجيا وبعض الارمن يبلغ عددهم مائة ألف مقاتل لمقاتلة الناصر وجيشه ، ولكن غازان عدل فى آخر لحظة عن قيادة الحملة وعاد الى بلاده تاركا الرياسة « لقطلوشاه » ، وقد تقدم الناصر أيضاً بجيشه نحو دمشق التى كان قد هجرها جميع أهلها خوفا من هجوم المغول ،

وقد التقى الجيشان فى موقعة هائلة بجوار دمشق فى سهل « مرج الصفر » كاد المماليك أن يقضى عليهم فيها نهائياً لولا ثبات الناصر وفرسانه الذين اكتسحوا من أمامه جموع المغول ففروا تاركين الميدان وبذا اخلى الناصر سوريا نهائياً من جند المغول . ومما يجب ذكره إن اثنين من كبار المؤرخين الثقات الذين يعتمد عليهم

(١) راجع M. Remusat in Men . de L,acad Vol 7 Page 388

حضرا بنفسيهما هذه الموقعة واشتركا فيها وهما النويرى وأبو الفداء

بعد ان نال الناصر هذا النصر الباهر أرسل الى غازان وهو ثمل بالفوز رسالة كلها تيه وأعجاب تشبه تلك التى ورد ذكرها والتى ارسلها بيبرس الى بوهمند (راجع علاقة المماليك بالصليبين) وتوعده باجتياح أسيا كلها ان لم يخلد للسكينة . ولما نوى الناصر العودة للقاهرة فرشت له الطريق من دمشق الى عاصمة ملكه بالبسط حتى ان بعض المؤرخين يجزم ان حافرى جواد الناصر لم تمسا الارض فى طريق عودته

ودخل القاهرة فى مشهد حافل لم ير القطر مثله ، ويقول المقريزى أن الافراح دامت حتى أن الناس تمنوا لو يموتون فى وسط تلك المسرات حتى لا يخرجوا منها أبداً

وأما فى بلاد فارس ، فقد دامت الاحزان واستمرت مدة طويلة حتى ان غازان أمضه الحزن فاعتزل العالم ثم خرج من عزلته متوعداً بأعداد حملة يوجهها الى قلب مصر ولكنه مات قبل ان يبدأ بمشروعه فقبر معه . ويجب هنا أن نقول انه لولا مشاغله الداخلية التى كانت تستحوز على أكثر جهوده لما تمكن الناصر أن يهزمه مرة واحدة . فالاضطرابات الداخلية انقذت مصر والغرب من هجمات المغول

* * *

كان غازان هذا مسلما سنيا ، ولما مات خلفه على العرش « أويلجيتو » وكان هذا شيعيا متغلغلا فى مذهبهم متعصبا لهم جدا (وكانت أمه مسيحية وكان هو أيضا يتظاهر بذلك) وكان كل همه موجها الى نشر مذهبه فى كل مكان خصوصا فى سوريا وكان كاسلافه يطمع فى الاستيلاء على مصر فارسل الوفود الى جميع أنحاء أوربا يطلب مساعدة ملوكها فلم تسفر جميع مفاوضاته عن فائدة وفى دار سجلات باريس رسالة منه الى فيليب الجميل يرجع تاريخها الى مايو سنة ١٣٠٥ م وسافر بعث آخر الى انجلترا ولكن ادوارد الثانى تأخر فى الاجابة على طلبهم حتى عام ١٣٠٧ م وأظهر استعداده لمعاضدته ضد المماليك . وأما البعث الذى سافر الى قصر البابا كليمنت الخامس فلم يلق نجاحا — وقد كانت جميع خطاباته هذه محررة بكيفية تثبت أنه مسيحى ويميل الى نصرة هذا الدين ويطلب مساعدة أوربا للقضاء على مصر ولكن الحقيقة

على خلاف ذلك فان «أو يلجيتو» ما كان قط مسيحيا بل كان يتظاهر بذلك أمام بلاط والدته المسيحية لأغراضه السياسية وبعد موت والدته أظهر تشيعه جهاراً . ومات أويلجيتو بدون أن يشتبك مع مصر وبدون أن يرى نتيجة لمفاوضاته الطويلة

وخلفه على عرش المغول ابنه « ابوسعيد » وعاد الى مذهب السنيين وكاد أن يفقد العرش قبل ان يثبت عليه لثورة قبائل الازابكة عليه ومحاولتهم اجتياح ملكه فاتحد مع أعدائه المصريين حتى يتفرغ من هؤلاء الاعداء الجدد وقد قابل الناصر هذه الرغبة بالترحاب فعقد معه صلحا واستمرت بينهما المودة زمنا طويلا واعترف كل منهما براية الآخر فى الحج ثم تزوج « أبى سعيد » بعد ذلك بابنة زعيم قبائل الازابكة (وهم التتار الشماليون ومقر ملكهم هرات) وكانت العلاقة بين الناصر وبينهم أيضا علاقة ودية جداً

ومات أبى سعيد سنة ١٣٣٦ فوجه الناصر انظاره مرة أخرى إلى بلاد الفرس وكانت الفرصة سانحة له إذ أنه عقب وفاة أبى سعيد عمت الفوضى ربوع البلاد وانتشرت فيها انتشاراً مريعا . فاخذ الناصر بمناصرة « حسن الأكبر » على منافسه « حسن الاصغر » وأرسل أيضاً جيشاً لمعاضدته بشرط ان يعترف له بالسيادة على بغداد ، وعلى ذلك نقش اسم الناصر على السكة فيها وخطب له أيضاً فى جوامعها إلا ان القدر شاء ان يصطلح الاخوان المتنافسان ويتبوآ العرش سويا فعادت جيوش الناصر قبيل وفاته بدون نتيجة وبذا قضى على تلك الآمال العظيمة .

وحدث فى عام ١٣٦٤ م إن أساء الخان أويس أمبراطور المغول معاملة حاكم بغداد فاراد هذا الانتقام منه فسلم بغداد للسلطان شعبان حاكم مصر إذ ذاك واعترف به ملكا عليها وضرب السكة باسمه وخطب له ، فارسل أويس ، وفدا إلى مصر يشكو للسلطان من تعديه على أملاكه ويعاتبه على ذلك فاساء شعبان مقابلة الوفد ، فعاد الوفد إلى الخان وأخبره بذلك فثارت فى نفسه النخوة وقام بجنده إلى بغداد وطرد منها جنود المصريين وصنيعتهم المغولى فرجعت بغداد إلى دولة المغول الشرقيين مرة أخرى . وبقيت مصر مرتاحة من ذلك الحين من هجمات المغول حتى قيام تيمور لنك عام ١٣٩٨ م

* * *

وفى نهاية عصر برقوق سلطان مصر قامت فى بلاد المغول نهضة غريبة أدهشت العالم وذلك ان تيمور لنك "١" ابن وزير جنكيزخان ملك المغول ، قام بعد موت جنكيز هذا واستولى على العرش التتارى واكتسح دولتى المغول ووحدهما تحت حكمه واجتاح كل أواسط آسيا امامه وزحف بجنوده من بلاد فارس حتى بغداد وطرد منها احمد ابن اويس السالف الذكر ، وعرج شمالا فخرب آسيا الصغرى إلى شواطىء بحر قزوين ، ولكنه لثوران المغول فى فارس عاد اليها وقهر الثوار وأخضعهم لسلطانه وأقام فى همذان هرما من رؤوس قتلاه ، وعاد مرة أخرى إلى آسيا الصغرى لينتقم من بايزيد السلطان التركى لترحيبه بابن أويس الذى طرده من بغداد ، وايزائه أمير « ارزبجان » فارسل له تيمور اعلانا بالحرب فيه كثير من الجمل الحماسية الشديدة اللهجة منها مايأتى : « إن الحمامة قد تنازل النسر ، إن النحلة قد تهزأ بالفيل ، وهذا تماما مثل ماتعمله الآن بتصديك لفاتح الدنيا » وقد ذكر جبون جزءاً من هذا الانذار من الفصل الخامس والستين من كتابه ، فردعليه « بايزيد » بمثل أسلوبه ولكن لما هاجم تيمور آسيا الصغرى وهدم اسوار سوارس ، ترك بايزيد الميدان الى أوربا وحاصر القسطنطنية ، فلم يتقابل الجيشان فعاد تيمور بدلا من ان يزحف شمالا ، وينزل عقابه بالاتراك ، نزل جنوبا إلى سوريا وصب عليها جام غضبه ، ولو كان فى هذه اللحظة اتحد برقوق مع بايزيد عليه لهزماه وارجعاه الى عقرداره ولكنهما أغفلا هذه الفرصة وكان تيمور يقول ، ان جيوش المماليك خير جنود ذلك العصر ولكن قيادتها كانت سيئة للغاية بعكس بايزيد الذى كان يحسن القيادة ولكن ينقصه الجند المدربون.

عاد بعد ذلك تيمور إلى الشرق فسلب بغداد وهدمها ، وأمضى الشتاء فى تبريز وعاد فى الصيف الى آسيا الصغرى ، وطلب ان يعقد صلحاً مع بايزيد فرفض هذا شروطه فهاجمه بجيشه الضخم فاضطر بايزيد ان يقابله بجوار أنقره ولم تلبث جنده طويلا أمام جند المغول فقد تركوا الميدان وفروا وأسر تيمور « بايزيداً » وبعض

(١) ولد تيمور لنك عام ١٣٣٦ م

المؤرخين يذكرون ان تيموراً وضعه فى قفص من الحديد [١] ولكننى أرى مع جون ويل إن هذا القفص ماهو إلا محفة محاطة ببعض القضبان الحديدية محافظة عليه. وبذافرغ من أمرالاتراك وبعد ان خلا له الجومن جهتهم وجه جميع قواه وأثار العاصفة نحوحكومة المماليك ولكنه عدلعن هذا الرأى لثورة شبت ضده فى بلاد فارس فعاد لاطفائها ونجتبذلك سورياوقتيا. ومعانخسارة برقوق كانت طفيفة إلا ان أرمنيا التى كانت خاضعة لحكمه نهبت أكثر مدنها وقراها فى طريق عودة تيمور.

ذكرنا ان تيمورعاد الى الشرق، واستولى على بغداد ومن هناك أرسلرسالة شديدة الى برقوق مع رسول خاص فخشى برقوق ان يكون هذا الرسول جاسوساً عليه فقتله، واستقبل فى مصر « احمد ابن اويس » صاحب بغداد بالترحاب الشديد وأغدق عليه النعم وتزوج برقوق من ابنة أخيه، ثم أخذ يعد العدة لحمايةحدوده السورية من هجمات المغول وبينما هو منهمك فيها وصلت رسالة أخرى منتيمور مماثلة لتلك التى أرسلها هو لاكو للناصر والتى سبق ذكرها، وفى هذه الرسالة يتوعد تيمور « الذى أرسله الله لينتقم منالطغاة الذين علىالارض » برقوق القاتل الشرير الذى قتل رسوله بالهلاك العاجل.

فلما علم برقوق ان الحرب لامحالة واقعة استعد بجيشقوى قام به من القاهرة إلى سوريا طالباً بغداد ليجلس أحمد على عرشه، وبينما هو فىطريقه علم أنتيمور سار شمالا قاصداً أوربا فوجد انه خير له ان يفوز من الغنيمة بالاياب فعاد الى مصر حيث قضى نحبه عام ١٣٩٨ م قبل أن يعود تيمور من الغرب.

تولى ملك مصربعد برقوق ابنه فرج، وغاب تيمور فى غزوته فى الشمال عاما كاملا وعاد فى خريف سنة ١٣٩٩ م بجيوشه المظفرة وحط على سوريا كالبازى الذى ينزل على فريسته، فتجمهرت جيوش الأمراء المماليك السوريين فى حلب ليمنعوا تقدمه فانقض عليهمانقضاضالعاصفة وأعمل فيهم سيف سخطه فقتل أكثرهم وهرب الباقون الى دمشق واحتموا بها. وخلى الطريق أمام تيمور فاخذ يتنقل

---

(١) راجع جبون فى صفحة ٩٦ من المجلد الخامس وتراجع ويل أيضاً

فى سوريا مكتسحاً أمامه كل مايقابله . وفى ذلك الحين وصل جيش مصرى الى دمشق ليحمى المدينة من انتقام تيمور فرابط الجيشان أمام بعضهما وبدأت بينهما المناوشات التى انتصر فيها فرج المصرى بجيشه انتصاراً باهراً على تيمور وعند ذلك طلب تيمور صلحاً عادلا بان تسلم له مطالبه وهى تنحصر فى تسليم « اطلمش » زعيم قبائل « وان » الهارب من جوره والاعتراف له بسيادة الخان « ايل الخان » بدلا منه فقبلت مطالبه فبدأ ينسحب بجيوشه ولكن المماليك تركوه ينسحب بغير انتظام ثم انقضوا على مؤخرة جيشه ولكن تيمور عاد بفرسانه وحصدهم وأفنى عدداً كبيراً منهم . وعند ذلك صمم تيمور على البقاء بمعسكره حول المدينة للانتقام منها ومن المماليك ، وأما الجيش المصرى فقد تفشى فيه عقب هذه الموقعة روح الاستياء والخيانة فقامت طائفة كبيرة ضد فرج سلطانهم يطلبون عزله ، وعادوا للقاهرة خلسة ليستولوا على القلعة الخالية من الجند ، فلما سمع بذلك فرج عاد مسرعا لعاصمة ملكه بمماليكه الخاصة تاركا ميدان القتال ! فاستولى تيمور على دمشق وقلعتها وأسلمها الى النار ولما كانت المدينة (دمشق) تعتبر مركز الخلافة الاموية فقد وجد هذا الشيعى المتعصب سبباً قوياً لديه يبرر المصائب التى انزلها على المدينة وأهلها .

وبعد أن وصل فرج الى عاصمة ملكه أرسل رسالة شديدة الى تيمور يهدده فيها بالعودة اليه وطرده من سوريا ويخبره فيها انه لم يترك له الميدان خوفا منه وانه ليهزأ به وبقواته فكانت هذه الرسالة مذكية لحب الانتقام الذى يملأ نفس تيمور فصب على سوريا كلها من شمالها لجنوبها جام غضبه وحمل معه الى عاصمة ملكه (سمرقند) جميع صناع وعمال دمشق وكان فى طريق عودته فى يوليه سنة ١٤٠١ م ينهب جميع البلاد التى يقابلها فى خط سيره ، ومر ببغداد وكانت قد عادت لاحمد بن أويس فنهبها وحرقها وذبح من أهلها عدداً وفيراً صنع من جثثهم عشرين برجا . ثم قام بغزوته الثانية على الاناضول عام سنة ١٤٠١ التى سبق ذكرها والتى أسر فيها بايزيد كما أسلفنا .

وفى عام سنة ١٤٠٢ م أرسل تيمور انذاراً لفرج يطلب فيه طلباته السابقة وزاد عليها ، قتل « احمد بن اويس » و« قره يوسف » عدويه الهاربين من أمام

وجهه ولما كان فرج يخشى عودته مرة أخرى فقد قبل جميع طلباته وأجازها ولم يكتف بذلك فقط بل أرسل له أيضاً هدايا غالية تقبلها تيمور بسرور وأرسل بدلا منها فيلا أبيض وأحجاراً كريمة وثياباً فاخرة ، ومات تيمورلنك عام ١٤٠٥ وبقيت العلاقة ودية بين مصر والمغول حتى عام ١٤٣١ م ، عند ما قام على عرش المغول « الشاه روخ » وكان يكره سلطان مصر « برسباى » لتقدم راياته على راية المغول فى الحج فطلب من السلطان ان يكون له وحده الحق فى تقديم الكسوة للكعبة فرفض السلطان طلبه بسخرية ، فاراد الانتقام منه ، فاتفق مع أحد أمراء الحدود المصرية المدعو « قره يلك » على برسباى وأمده بالذخيرة على أن يهاجم برجاله الحدود المصرية ، فقام برسباى بحملة تأديبية أدب بها رجال قره يلك وحاصر آخر معقل لهم مدينة « آمد » ثم صب عليها جام غضبه ونهبها وعقد معاهدة مع أولاد قرة قرروا فيها خضوعهم لسلطان مصر . ولما علم الشاه بفساد تدبيره أرسل أحد الأمراء المصريين الهاربين من برسباى المدعو « جانى بلط » وأمده بالذخيرة والرجال ليقلق راحة برسباى . ورغم معاضدة الشاه لهذا الخارج فقد قضى على ثورته وهى فى المهد . وفى العام التالى كشف الشاه عن نقابه وأرسل لبرسباى خطاباً شديد اللهجة يطلب منه اسدال كسوته على الكعبة فأجابه برسباى على رسالته برد كله استهزاء ، ولم يكتف الشاه بذلك بل أرسل رسولا آخر ومعه حلة ملكية مغولية وأمر منه يحتم فيه على برسباى ان يلبس الحلة كتابع للشاه ، فمزقها السلطان وأغرق الرسول فى بركة ماء حتى كاد يغرق ثم أخرجه منها وأرسله لمولاه وطلب منه أن يبلغه أن موعدهم العام التالى لينتقم لاهانة سفيره واذا لم يحرك ساكناً لما أصابه فسيعد من الآن جبانا رعديداً ومما يجب ذكره هنا ان هذا الرسول قبل مغادرته القاهرة حصل على نسخة من تاريخ المقريزى ونسخة أخرى من البخارى .... ولكى يتمكن برسباى من أن يحفظ حدوده من الاغارة التى أصبحت منتظرة ارسل جيشاً ضخماً استحوذ على نصف أسيا الصغرى الشرقى وكان النصف الآخر تحت حكم العثمانيين الذين كانوا هم الآخرين فى عداوة مستمرة مع المغول والذين بادروا بعقد معاهدة صداقة مع المصريين ضدهم فى عهد مراد الأول سنة ١٤٣٧ وفى يونيه سنة ١٤٣٨م

قامت الجيوش المصرية بقيادة حاكم دمشق طهرت الحدود المصرية كلها من المشاغبين وأنصار الشاه وبعض القبائل التركمانية من أعداء مصر ومات برسباى قبل أن ينعم بأخبار هذا النصر العظيم .

بقيت الحالة غير مستقرة على قرار كما رأينا وبقيت المشاحنات على الحدود مستمرة حتى جاء عهد « جقمق » سلطان مصر وكان هذا يميل الى المغول وتزوج من أميرة مغولية وأخرى تركية تدعى (شاه زاده) ودارت بينه وبين الشاه روخ مكاتبات المودة والاخاء ، واستقبل بكل حفاوة سفارة مغولية ، معها قافلة من الجمال محملة بالهدايا النفيسة والمسك والمواد الشرقية — فرد له بدلا منها هدايا نفيسة تناسب مقامه ، واستاذن الشاه مرة ثانية ان يرسل كسوته للكعبة براً بقسمه الملكى الذى أقسمه فرضى بذلك جقمق وأرسلت الكسوة ، وفى عام ١٤٤٢ م زارت مصر أرملة « تيمورلنك » فى طريقها للحج فاعتدى عليها برشق الاحجار فانتقم لها السلطان انتقاما شديداً من جميع الذين اشتركوا فى الاعتداء عليها وقدم لها تعويضات أرضتها وأعادت الثقة بين البلدين مرة أخرى . وكانت هذه هى آخر علاقة بين مصر والمغول اذ لم تلبث مصر طويلا حتى سقطت تحت حكم الاتراك فتحها السلطان سليم الأول عام سنة ١٥١٢ م وقضى هذا السلطان أيضاً على حكم المغول فى بلاد فارس عام سنة ١٥١٤ م فى واقعة « جلديران » فى عهد ملكهم الشاه اسماعيـــل الصفوى وبذا دانت جميع الدويلات والدول التى كانت تحت حكم مصر والمغول والتى كانت تحميها كلا من هاتين الدولتين لحكم الاتراك ؟

علاقة المماليك ببلاد النوبة والسودان

كانت تمتد حدود بلاد النوبة أول عصر المماليك حتى مديرية اسوان ، وتمتد جنوبا حتى حدود الحبشة وبلاد بحر الغزال وكانت تدين هذه البلاد كلها لحكومة وطنية مسيحية. وأول علاقة نجدها لمصر مع هذه البلاد هى غزوات صلاح الدين الأيوبى لبلادهم عندما أراد إن يكون من السودانيين جيشا يقاوم به مماليكه الاتراك الذين كثر عصيانهم وتمردهم — وتوالت الغزوات بعد صلاح الدين من المماليك على بلادهم حتى أصبح فى أوائل القرن الخامس عشر من المستحيل أن تجد مسيحيا واحداً وطنياً من كل تلك الديار

وقد قامت جيوش صلاح الدين قاصدة غزو بلاد النوبة فلما سمع بذلك ملك النوبة تقدم هو أيضاً بجيوشه وسبق صلاح الدين قاصدا مصر ودخل اسوان عنوة وكانت آخر الحدود المصرية جنوبا ٠ وكان من المحتمل تقدمه من اسوان الى الشمال قاصداً مصر العليا ومنها يدخل العاصمة ولكن لم يقعده عن عزمه الا ماسمعه من انقراض الدوله الفاطمية الخاملة وقيام سلطان قاهر مثل (صلاح الدين) وعن قوة جيوش عدوه وكثرة عددها

فلما تقابلت مقدمة الجيشان خاف ملك النوبة عاقبة هذه الحروب فانسحب بجيشه جنوبا قبل أن تدركه جيوش الاعداء ، ولكن ابت المقادير الا إن تعاكسه اذ لحقته جيوش صلاح الدين قبل ان يفارق الحدود المصرية وضربت مؤخرة جيشه فاضطر ملك النوبة للمقاومة والتحم الفريقان فى موقعة هائلة كانت نتيجتها سجالا فتقهقر ملك النوبة جنوبا وانسحبت جيوش صلاح الدين شمالا

ولما سمع صلاح الدين بنتيجة هذه الحملة غضب غضباً شديداً وارسل أخاه شمس الدين بحمله قوية وأمر بالسير الى بلاد النوبة والاقتصاص من ملكها واهلها

جزاء أقدامهم على غزو مصر . فقام شمس الدين بحملته حتى وصل الى حصن دير ابراهيم « المعروف محله الآن ببلدة ابراهيم » وحاصره ثم فتحه بعد حصار دام ثلاثة ايام وكان فى ذلك الحصن قلعة ذات طوابق منيعة جداً قائمة على سطح الجبل تجاه مدينة نوبية عظيمة وكان لهذه البلدة كنيسة عظيمة باسم العذراء .

فلما دخل شمس الدين الى تلك البلدة برجاله أباح فيها السلب والنهب واطلق سراح الاسرى المصريين ، وبعد ان انتهى شمس الدين من قتل ونهب أهالى تلك المدينة حمل الباقين من الاطفال الى مصر ليباعوا بيع الرقيق ثم نهب مقتنيات الكنيسة وخزينتها وكل مافيها من الأشياء الثمينة وحول الكنيسة إلى جامع وجعل برجها العالى مأذنه له .

إما الاسقف القبطى المصرى لتلك الابروشية فقد قبض عليه شمس الدين وسامه عذابات اليمة جداً واخيراً باعه مع من بيع من الارقاء !! . . .

ولم يتوغل شمس الدين إلى أبعد من دير ابراهيم وعزم على العودة الى مصر وأبقى فيها حامية تحت رياسة رجل يدعى ابراهيم الكردى . أما جيش شمس الدين نفسه فقد عاد وعسكر فى « قوص » أما ابراهيم الكردى فقد عاث فى تلك الجهة فساداً حتى ضجت منه الأهالى فأرسل ملك النوبة سفيراً ومعه عبد وجارية بصفة هدية الى شمس الدين فى قوص طالباً عقد الصلح معه ، أما هذا فقد هزأ بالرسول وقبل الهدية وأعطاه بدلا منها زوجين من نبال الحرب !! .

وكانت عاصمة ملك النوبة مدينة دنقلة ، ولما لم يكن ميل صلاح الدين ضم الممالك السودانية المسيحية الى ملكه بل كان قصده الانتقام والحصول على الرقيق ولما تم له ماأراد عاد أدراجه وترك البلاد التى فتحها فعادت الجنود النوبية واحتلتها مرة أخرى .

* * *

انتهت هذه العلاقة كما رأينا بدون ظفر لاى كان من الفريقين ، ألا أن هذه العلاقة بدأت بشكل آخر فى عصر المماليك ، ففى عهد بيبرس الأول ، فى أثناء انشغاله بالحروب فى آسيا ، قام ملك النوبة سنة ١٢٧٤ م وغزا أقليم اسوان ، فقام أمير

قوص المملوك المصرى فى الحال للانتقام والاخذ بالثار وجرد حملة قوية وغزا بلاد النوبة وتوغل فيها حتى وصل لاقليم دنقله ، وصار ينهب البلاد التى يفتحها ويمر عليها فى طريقه وأسر عدة من أشراف النوبة من بينهم حاكم اقليم النوبة الشمالى ، وقد عامل بيبرس هؤلاء الاسرى معاملة قاسية بأن علق كل منهم على جمل ودار به فى المدينة حتى مات .

وهكذا جاء تصرف داود ملك النوبة وبالا عليه وعلى رجاله ، ويظهر أن ذلك الملك كان غير محبوب من شعبه حتى انه فى سنة ١٢٧٥ م (٦٧٤ هـ) قام شيكندر (يحتمل ان هذا الاسم هو اسكندر) أبن أخيه الذى كان نائبه وولى عهده ووارثه فى الملك والتجأ الى حكومة بيبرس ، فأرسل بيبرس معه جيشاً عرمرماً بحجة تأييد حقوق الوراثة الى شيكندر فى الظاهر ولكن الحقيقة كان الغرض من الحملة ضم بلاد النوبة الى المملكة المصرية . فقابل النوبيون الجيوش المصرية الفاتحة وحاربوها بشجاعة عظيمة لكنهم هزموا أخيراً وتقدم الأمراء المصريون بالجيش الى داخل القطر النوبى وقتلوا وأسروا كل من قابلهم فى طريقهم فخضع والى أقليم النوبة الجنوبى لشيكندر واعترف به ملكا عليه بدل داوود الذى أسر ومات فخضعت بلاد النوبة كلها لشيكندر ونودى به ملكا عليها بشرط خضوعه للشروط الآتية : —

١ — ان يتنازل لسلطان مصر عن اقليم النوبة الشمالى (وهذا الاقليم هو الجزء الأهم والخصب فى بلاد النوبة)

٢ — ان يعيد الجزية القديمة وهى أربعمائة عبد وثلاثة أفيال وثلاثة زرافات وخمسة نمور ومائة هجين ومائة ثور ونصف محصول الأراضى الزراعية .

٣ — ان يطلق كل الاسرى الذين أخذهم داوود عند حملته الأخيرة على اقليم اسوان

٤ — ان يستولى سلطان مصر على ثروة وأملاك وذخائر وعبيد ملك النوبة وجميع الأمراء الذين ماتوا فى أثناء القتال

٥ — ان يقبل تأسيس وكالة سياسية فى دنقله عاصمة البلاد ويقيم فيها المندوب المصرى الذى يراقب جمع الجزية المستحقة للسلطان .

ومما يجب ملاحظته هنا ان هذه هى المرة الأولى التى خضعت فيها بلاد النوبة حقيقة للنفوذ الاسلامى منذ ظهوره رغم الهجمات التى كانت تتوالى عليهم من حين الى حين . وقد أوجد جمع الرقيق للجزية الفوضى وفساد نظام الحكومة والحروب المستديمة بين الدويلات النوبية ولذا تعسر ايجاد حكومة قوية منظمة فى السودان وابتدأت الممالك السودانية تسقط الواحدة بعد الاخرى.

ولما وضع المماليك يدهم على اقليم النوبة الشمالى عاملوا أهله كعادتهم مع كل بلاد يفتحونها وهو أنهم خيروهم بين اعتناق الاسلام او دفع الجزية فاختار الاهالى دفع الجزية وصار كل ذكر يدفع ضريبة عن نفسه ديناراً واحداً عن كل سنة . ولم يحتل الجيش المصرى مدينة دنقلة إلا سبعة عشر يوما فقط اذ بعد ان أتم الأمراء عقد المعاهدة مع شيكندر ملك النوبة الجديد عادوا بجيوشه الى مصر تحت قيادة الامير اق سنقر الفرغنى سنة ٦٧٤ هـ

* * *

فنى عام ١٢٨٧ م (٦٨٥ هـ) أرسل الملك عدود حاكم أقاصى جنوب السودان سفيراً الى مصر يشكو للسلطان قلاوون من تابعه الملك شيكندر لغزواته المتوالية لبلاده لجمع جزية العبيد ، فارسل قلاوون مع السفير أميراً مصريا ليحقق الشكوى فى مكانها بنفسه ، فلما مر الوفد فى طريق عودته بالملك شيكندر قبض عليهم بأمره وأراد اعدامهم الا ان أمراء دولته أرجعوه عن عزمه هذا وخلعوه عن عرشه وولوا بدلا منه « شمامون » ملكا عليهم ، وسمحوا للوفد بالسير الى غايته الا ان قلاوون رغم هذه الترضية أرسل حملة قوية ليمحو الاهانة التى لحقت بسفيره وليعيد بالفتح بلاد النوبة

فلما علم شمامون بغرض قلاوون ، أرسل لتابعه حاكم الاقليم الشمالى يأمره فيه بأن لايحارب المماليك وجها لوجه بل يخلى لهم البلاد بعد تخريبها حتى دنقله حيث تجرى هناك الواقعة الفاصلة . الا أن الملك شمامون هزم أيضاً أمام دنقله وفر هاربا الى الصحراء ، فاختار المماليك للعرش ابن أخت شمامون بشرط ان يخضع لسلطان مصر بنفس الشروط وعاد جيش قلاوون الى مصر محملا بالغنائم والاسرى والسبايا .

وما كادت الجيوش المصرية تفارق الأراضى السودانية حتى عاد شمامون الى عرشه وطرد الملك الجديد الذى قبل الخضوع لسلطان مصر ، ولما وصلت هذه الاخبار الى البلاط المصرى حتى سارع قلاوون بارسال حملة قوية جداً الى بلاد النوبة للقضاء عليها نهائيا فسارت الحملة اليها فاخلى شمامون الطريق أمامها حتى وصلت الى دنقلة وأعادت اجلاس صنيعتها على العرش مرة أخرى ، وترك قلاوون حامية فى دنقله . ولم يمض على خروج حملة قلاوون من السودان ثلاثة شهور حتى عاد شمامون وقضى على الحامية وذبح الملك الجديد وجلس على عرش النوبة حتى وافاه الموت . ولم يقو قلاوون على ارسال حملة ثالثة ضد هذا الملك العنيد .

أما فى عهد الملك الناصر بن قلاوون ، فقد سارت الى مصر عدة بعوث حربية لجمع الجزية واظهار سلطان مصر على تلك الجهات ، ولتأديب السودانيين والعرب الذين اعتادوا تخريب الصعيد ونهبه ، وللسعى فى اخضاع بلاد النوبة اخضاعا نهائيا التى طالما حاول الناصر ان يضمها لسلطان أمير مصرى ، وبقيت الحالة مضطربة مدة من الزمان ، ثم رجعت فيما بعد الى ما كانت عليه من الهدوء والسكينة .

وبقيت الحالة كذلك حتى عام ١٧٦٦ م فى عهد السلطان « شعبان » فارسلت حملة بحرية هامة وبرية الى سواكن جنوباً لحماية حدود الصعيد ، وبلاد النوبة من عبث قبائل البدو ، فكان رائد هذه الحملة الفلاح ، غير ان فظائع حاكم اسوان المصرى الشنيعة أثارت حقد القبائل السودانية المجاورة فانقضوا على حامية المماليك فى أسوان فافنوها ذبحاً ، وتركوا المدينة فريسة للنيران

استمرت الاحوال بين الاستقرار والهياج فى عهدى دولة المماليك كما رأينا حتى سقطت مصر تحت الفتح العثمانى ، أو فى عصر البيكوات المماليك ، ففى هذا العصر تلاشت الممالك السودانية المسيحية وأصبحت تئن تحت مظالم الاعراب تجار الرقيق ، الذين ما كانوا ليخضعوا لحكومة خاصة ولا ليستوطنوا مكانا معلوماً ، وفى ذلك الحين ، انتسخت مملكة نوبية سوداء الممالك النوبية الجنوبية الخاضعة لمصر ، وانتخب القواد السودانية من بينهم سلطانا عليهم وجعلوا مدينة سنار عاصمة ملكهم .

وفى سنة ١٧٠٦ م اعتنق ملك سنار الديانة الاسلامية . ولم يكن هذا الملك

ذا نفوذ أو سيادة على ممالك السودان الجنوبية لأن الممالك السودانية الشمالية كانت قد خربت من مدة وتسلط عليها عدد كبير من زعماء القبائل العربية الذين نزحوا اليها عن طريق سواحل البحر الأحمر بقصد الاستيطان والاتجار بالرقيق وبالرغم من اسلام ملك سنار فقد بقيت جماعات كثيرة من المسيحين منتشرة فى كل ارجاء السودان ، ولهاعدة كنائس أيضاً وكان نفوذها الاسمى يومئذ متصلا تقريباً الى حدود مصر الجنوبية كما يتضح لك ذلك من حادثة الدكتور رول وقد ذكرتها مدام بتشر فى كتبها عن تاريخ الامة القبطية فى الفصل الثامن والستين من المجلد الرابع فليرجع اليها من يرغب فى زيادة التوسع .

وبقيت أحوال النوبة المسيحية فى تدهور وانحطاط حتى سادت القبائل العربية أكثر السودان وزالت جميع الممالك النوبية من الوجود الى الأبد حتى انه فى أيام الحملة الفرنسية لم يوجد ولا مسيحى واحد فى بلاد النوبة كلها .

وفى أواخر عهد المماليك البكوات زالت سلطة مصر عن السودان نهائيا الى ان فتحه محمد على باشا وضمه لمصر

علاقة المماليك بارمنيا

— ٦ —

أول ظهور للعلاقة بين المماليك وأرمنيا عام ١٢٦٢ م فى عهد السلطان بيبرس إذ قام هيثوم ملك أرمنيا بتحريض التتار وبمعاضده سلطان دولة الروم السلجوقية ، بالاغارة على الحدود المصرية السورية وقامت جنوده بحصار مدينة عنتاب ، فسير بيبرس حملة تأديبه للاقتصاص من هؤلاء المهاجمين ، فالتجأ الارمن الى طلب المساعدة من الصليبيين والمغول رداً لهجمات بيبرس عليهما فامدهم بالمدد لحاصروا مدينة حارم ولكن قدوم الشتاء القارس اجلاهم عن المدينة ، وأما بيبرس فلم يكفه تراجع أعدائه عن حدود بلاده ، بل تقدم وضرب جميع الصليبيين الذين ساعدوا أعدائه وفى عام ١٢٦٦ أرسل حملة قوية اخترقت مضايق كليكيا وتقدمت حتى أرمنيا ولم يساعد المغول حليفهم القديم فقد هزم الملك هيثوم هزيمة منكرة وقتل أحد أولاده فى المعركة وأسر الثانى وحمل الى مصر ليزين به موكب الامير المنتصر ، وتقدم بيبرس فى أرمنيا مجتاحا إياها من شمالها الى جنوبها كالعاصفة الهوجاء وأما عاصمتهم سيس فقد ضاعت كلها طعمة للنيران والسلب والسيف

وكان فرسان الهيكليين يدافعون عن أحدى القلاع الارمنية ، فاستولى عليها بيبرس عنوة بعد حصار طويل ، وذبح أكثر الفرسان وأسرت أطفالهم وسبيت نساؤهم ، وفى طريقه مر بأحد المدن المدعوة « قارا » وكانت مدينة عظيمة ومركزا مهماً وكان أهلها أشداء أقوياء عملوا على مناوءه بيبرس ومهاجمة مؤخرة جنده فهاجم المدينة انتقاماً من أهلها وحول كنيستها الى جامع وحمل جميع اطفال المدينة الى القاهرة وكان منهم بعدئذ كثير من عظماء المماليك وأمرائهم

وفى عام ١٢٦٧ م خضع الملك هيثوم وقبل حماية المصريين ودفع الجزية لهم

واستولى المصريون على عدة معاقل وحصون مهمه على الحدود الارمنية لتأمين الحدود السورية ، وبقيت الحالة ساكنة هادئة الى ان عاد الأرمن مرة أخرى الى التحالف مع المغول ضده فى عام ١٢٧٣ م فسكن لهم بيبرس حتى امن مخاوفة الصليبيين والمغول بعد هزيمتهم فى موقعة الفرات فى نفس السنة وانقض على بلادهم وترك الحرية لجنده ليعيثوا فى أرمنيا فساداً كما يشاءون من طرسوس حتى اطنه ، واحرقت فى هذه الغارة أهم مدينتين أرمنتين « مسيس » و « المصيصة » ، وأصبحتا كوما من التراب وعند ماجمعت السلائب والغنائم بعد عودة الحملة كانت أعظم من ان يسعها فضاء مدينة انطاكية ؟!

واستمرت علاقة الخضوع الارمنى للمصريين حتى عصر قلاوون سنة ١٢٨٥م فانتهز فرصة شكوى الأرمن من أحد الأمراء المماليك ، فهاجم قراهم وعاملهم معاملة صارمة جداً ، وفرض عليهم جزية كبيرة ، وأجبرهم على تسليم جميع الاسرى المماليك وأما اسراهم هم فابقاهم للعمل فى اقامة القلاع وتشييد الحصون وخدمة الأمراء وكانت هذه الحملة مذلة للارمن حتى إنهم خضعوا خضوعا تاماً حتى عام ١٢٩٨ م فى عهد السلطان لاجين ، الذى ثار عليه المماليك فاراد أن يبعدهم عن العاصمة ويشغلهم بحرب جديدة تبعدهم عن التفكير فى حبك المؤامرات فارسلهم على رأس جيش قوى الى ارمينيا التى كانت الظروف مساعدة على ضمها لمصر اذ ان أفراد الأسرة المالكة فيها كانوا فى خلاف بين أنفسهم على اعتلاء العرش ، وكان غازان المغولى مشغولا بالثورات الداخلية التى شبت فى بلاده ، فرضى ملك الأرمن بجميع شروط السلطان ولكن هذا رفض قبول تسليمه لأن الغرض الاصلى لم يكن فتح أرمينيا بل ابعاد زعماء المماليك عن مصر ، ولذا أرسل لاجين أوامر صارمة توجب زحف الجيش المصرى على أرمنيا ولم يلق الجيش مقاومة تذكر فى طريقه فقد استولى على جميع المدن والقلاع فى مدة لا تتجاوز عدة شهور . وعاد الجيش مثقلا بالغنائم والاسلاب الى سوريا واما السلطان فقد أصدر أمره مرة أخرى بعودة الجيش لاقتحام معقل النجمة « رغم تسليم الارمن » الذى كان يعتبر أقوى وأمنع حصن فى كل بلاد أرمينيه لموقعه الجغرافى . وفعلا سلم الحصن بعد حصار قوى دام أربعين يوماً ونهبت محتويات الحصن ثم ترك بعد ذلك هذا المعقل

المنيع للنيران فاتت على محتوياته . وفى مارس عام ١٣٠٢ فى عهد الملك الناصر ، سارت حملة اخرى لمعاقبة الأرمن لمساعدتهم المغول ضد جنود مصر ، فزحفت هذه الحملة حتى وصلت الى عاصمة ملكهم « سيس » وعاثت فى المدينة زمانا ثم تركتها عائدة الى سوريا بعد أن قضت وترها من الانتقام

ولم يتلق الأرمن من هذه المعاملة غير الرحيمة دروساً فيخلدوا للسكينة بل بالعكس قاموا فى العام التالى سنة ١٣٠٤ بمساعدة المغول (فى حربهم الاخير سنة ١٣٠٣ مع الناصر) وامتنعوا عن دفع الجزية لمصر ، فارسل لهم الناصر حملة قوية اجتاحت البلاد دفعتين واستولت على معقل « تل حمدون » آخر معاقل وحصون الارمن وكان بداخله جميع أمراء وعظماء الأرمن وأعملوا السيف فى جميع قاطنيه ولم يتركوا البلاد الا بعد ان دفع أمير سيس جميع المتأخر عليه لمصر مضاعفة وفى طريق عودة جنود الناصر المظفرة حملت على الدروز فى معقلهم الجبلى فى كسراوان (بين طرابلس ودمشق) انتقاماً منهم لمساعدتهم للأرمن ضد قواته

وعاد الأرمن مرة ثالثة للعصيان عام ١٣١٤ م فى عهد الناصر (للمرة الثالثة) أيضاً فارسل لهم حملة قوية حاصرت مدينة ملطية ، ورغم أن المدينة سلمت للجند بدون قتال ، فان جنود المماليك لم يرحموا كبيراً ولا صغيراً ولا عسكريا ولا رجلا مسالما ، فان جميع أهل المدينة ذبحوا عن بكرة أبيهم وكان المؤرخ الشهير « أبو الفداء » حاضراً هذه الموقعة ، وحاول عدة مرات ، منع الجنود من عمل هذه الفظائع ولكنه كف عن ذلك خوفا من اتهامه بالتشيع لهم وكان يشتغل وظيفة نائب حماه وأخذ أطفال ملطية ليضموا لصغار المماليك ، والرجال والنساء ليباعوا فى أسواق النخاسة

وكأنما كان حكم الناصر شؤماً على الارمن فقد حدث أنه فى عام ١٣٢٣ م تولى عرش أرمنيا « ليو الخامس » الطفل القاصر وكان حوله الف من المطالبين بالعرش وكان كل منهم يعمل لحسابه الخاص فانتهز الناصر هذه الفرصة ليضم أرمينيا لملكه الخاص فارسل حملة فى عام ١٣٢٢ تحت ستار جمع الجزية ، لتحتل البلاد، وليوسع حدوده نحو الشرق ، وكان المغول منذ ان اسلموا تخلوا عن حماية

الارمن ، ولم يجد « ليو » حوله نصيرا واحداً يأخذ بيده فسلم بمطالب المصريين وهادنهم

ولكنه حدث ان أعلن بعد ذلك بعام البابا جون الثانى عشر حملة صليبية على مصر يقودها فيليب السادس ، فظن « ليو » ان الخلاص قد آن مع هذه الحملة فامتنع عن دفع الجزية وأرسل جنده تهاجم الحدود المصرية السورية ، ولكن لم يلبث مشروع الحملة الصليبية ان قبر بموت البابا واجتاحت الجنود المصرية البلاد مرة اخرى وضربت مدينة « أياس » وهدمتها على أهلها ولم تسمح لفرد منهم بالخروج من المدينة ، فاذعن عندئذ ليو لمطالب الناصر . فجلت الجنود المصرية عن بلاده بعد أن جمعت الضرائب المتأخرة مضاعفة والاسلاب والغنائم ومصاريف الحملة

وفى عام ١٣٦٩ م قام يلبغا فى عهد استبداده بالاقتصاص من الارمن لمساعدتهم القبارصة فى هجومهم على مصر عام ١٣٦٥ ، فسير حملة قوية غزت أرمنيا واستولت على سيس حاضرتها ، وتقدمت الحملة نحو كليكية ، فاعتصم الملك « ليو » بحصنه الجبلى ولكنه اضطر بعد حين إلى التسليم فأخذ أسيراً الى القاهرة حيث بقى فيها أسيراً حتى توسط له ملك قشتاله « يوحنا الاول » فاطلق سراحه عام ١٣٨٢ م ومنع من العودة لبلاده فأخذ يتجول فى أوربا حتى مات فى باريس عام ١٣٩٣ م

وبذا قضى نهائيا عام ١٣٧٥ م على أرمنيا المسيحية ، وضمت نهائيا الى ملك مصر ومن بعدهم الى ملك الاتراك حتى أستقلت بعد الحرب العظمى سنة ١٩١٨

علاقة المماليك برودس وقبرص

— ٧ —

تبدأ أول علاقة للمماليك بقبرص عام ١٢٧٤ م عندما جهز بيبرس اسطولا لغزوجزيرة قبرص لمساعدتها للصليبين فى عكاء ضدفى أثناء حصاره لها (كماهو مبين فى فصل علاقة المماليك بالصليبيين) ولكن هذا الاسطول لم يصل للجزيرة ولم يقم بمأموريته لان عاصفة هبت عليه وهو فى الطريق وحطمت اكثر سفنه فعادت السفن الباقية من منتصف الطريق

وعادت قبرص سنة ١٢٨٩ مرة اخرى لمساعدة مدينة طرابلس، ولكن رغم ذلك فقد سقطت المدينة بعدحصار دام شهراً ونصفاقتل فيه عدد عظيم من رجال المدينة وسبيت نسائهم وذراريهم ، وفى عام ١٢٩١ ايضاً فى عهد الخليل بن قلاوون ارسلت قبرص حملة اخرى لمساعدة مدينة عكا ضد المماليك ولكن رغم كل ذلك ايضاً سقطت المدينة تحت أيدى المصريين الغزاة

« ومع ان قوة قبرص كانت لاتساوي شيئا أمام قوات المماليك الضخمة الا ان قبرص ارادت ان يكون لها نصيب فى فخر الجهاد مع الصليبين ضد المصريين فارسلت حملة صليبية عام ١٣٦٥ بالاشتراك مع البندقية وفرسان القديس يوحنا فى رودس ، الى مصر فرسا الاسطول أمام الاسكندرية وضرب المدينة ودانت لهم ثلاثة أيام نهبوا من المدينة كل ماطاب لهم أخـذه بدون ممانع ، وعندما سمعوا بقدوم مدد من القاهرة تركوا الميناء بسفنهم حاملين معهم خمسة الاف اسيرمن أهالى الاسكندرية وضواحيها ، وحدثت هذه الواقعة فى عهد يلبغا ، فاراد هـذا الجاهل ان يثأر من الصليبين بالاقتصاص من أبناء دينهم الاقباط فى مصر فأثقل كاهلهم بالضرائب ليجمع منها المال اللازم لاعداد اسطول يقوم بحملة تأديبية ضدالقبارصة والبنادقة . وفى هذا الوقت ارسل البابا سفارة سلمية عرضت على يلبغا دفع تعويض عما حدث وفى مقابل ذلك يسمح يلبغا بفتح كنيسة القيامة

للحجاج الصليبيين ، ولـكنه رغم كل ذلك قبض على السفير وزملائه وحجزهم فى القاهرة وأخذ فى مواصلة استعداداته للحرب ، ولما لم يتلق البابا رداً على سفارته اذن لاهل قبرص بمهاجمة السواحل المصرية فقدم اسطول قبرص عاثثا فى طول ساحل مصر وسوريا فساداً والحق اضرارا كبيرة بالاسكندرية . ودامت هذه المناوشات طول عام ١٣٦٨ م ، ولم تسفر عن نتيجة حاسمة إذ إن القتال كان بينها سجالا فوجد يلبغا إنه خير له إن يستحوذ على مقدار التعويض وعلى المبلغ الذى يعطى له سنويا فى مقابل سماحه بالزيارة والحج لـكنيسة القيامة ، فبدأت المفاوضات بينه وبينهم وانتهت بالصلح وعودة الامور الى مجاريها ، وسمح يلبغا بفتح الـكنيسة للزوار ودفع اهل رودس وقبرص قيمة الغرامة وثمن الرقيق الذى سرقوه من الاسكندرية

انقطعت الصلة ما بين القبارصة والمماليك حتى عام ١٤٠٣ فى عهد خليل ابن برقوق اذ هاجم اسطول قبرص الاسكندريه ونهبها ، وعاد اسطول اخر فى السنه التالية ١٤٠٤ م الى نهب الشواطىء السورية وخصوصاً مدينة طرابلس الذين لم يعثروا فيها على ذاقيمة الا وأخذوه ، وبعد ذلك بشهرين نزل جيش ضخم يحمله اسطول قبرصى عظيم مكون من اربعين سفينة الى مدينة بيروت فاحرقوها وضربوا قلاعها والبلاد المجاورة لها من صيدأ الى طرابلس

وكأنما استطاب لأهل قبرص مهاجمة سواحل مصر وسوريا فاتخذوا لها مهنة القرصنة ديدنا ، فارسل « برسباى » حملة لمعاقبتهم على جرأتهم هذه الغريبة فوصلت سفن اسطوله الى ليماسول سنة ١٤٢٤ م وأحرقوها وعادوا بالاسرى من أهلها ، فشجع هذا الفوز السلطان على أن يرسل اسطولا كاملا لفتح الجزيرة وضمها الى أملاكه سنة ١٤٢٥ م سارت سفن الاسطول من الاسكندرية الى فيما غوستا

واستولت الحملة عليها بعد عناء واستولت ايضا على « لأرناقه » ، « وليماسول » مرة أخرى وعادت غانمة الى مصر وفى ركابها ألف أسير، بيعوا فى أسواق القاهرة ، ولـكن السلطان أمر أمراً فى بيع هؤلاء التعساء يدل على منتهى الرحمة وهو أن لايباع الاطفال أو القرابة القريبة بدون أن يباع معهم أهلوهم أو من يعولهم

وفى العام التالى أرسل حملة أقوى من سابقتها وأكد لأمرائها وجوب فتح الجزيرة كلها ، فسارت الحملة وأسرت الملك « جانوس » ملك قبرص ، وعادت به الى القاهرة . وفى اليوم التالى جلس السلطان على شرفة قصره ومعه سفراء الدول والأمراء والعظماء ومرأمامه الملك الاسيروخلفه أبناء وطنه البائسون فى الاغلال يحملون فوق أكتافهم تاج ملكهم الضائع وتقدم الملك وهو يرسف فى الاغلال وقبل الأرض عند قدمى السلطان — وبعد اسبوع دفع قناصل الدول الأوربية مجتمعين فداء لاطلاق سراح « جانوس » ومن جهة أخرى قبل ملك قبرص مطالب السلطان ، فافرج عنه وخلع عليه برسباى حلة رسمية وجوادا وسمح له بالعودة الى الجزيرة على أن يكون تابعا لسلطان مصر وكان مقدار الدية حوالى ثلثمائة الف دينار وكانت الجزية السنوية عشرين ألفا . ومما يحسن ذكره هنا ان المؤرخ أبا المحاسن كان حاضراً تلك الحفلة وقد أثر فيه منظر ذلك الملك وذكر عنه أنه كان يحسن اللغة العربية

ومنذ ذلك الحين سقطت قبرص تحت حكم المماليك وبقيت فى أيديهم حتى عهد سقوط دولتهم الثانية . وانا نجد فى المدة التى تلت عهد برسباى أخبارا طويلة عن علاقة المصريين بتلك الجزيرة الثانية خصوصا فى عهد « اينال » سنة ١٤٥٩ م الذى عاضد « جيمس الثانى » رئيس أساقفة نيقوسيا والابن غير الشرعى للملك السابق ، ضد شارلوت الابنة الشرعية وصاحبة العرش ولكنها قبلت أن تزيد الجزية فتخلى السلطان عن صنيعته ولما أخلت بوعدها أرسل لها حملة ليبعدها عن العرش وينصب عليه بدلا منها أخاها جيمس إلا أن البابا وولايه سافورى ساء شارلوت وتم الصلح بينهما وبين المماليك على مقدار الجزية وحماية مصر . ومن ذلك الحين لا نسمع عن أية علاقة بين هؤلاء والمماليك إلا علاقة الجزية والحماية حتى سقوط دولة المماليك الثانية

علاقة المماليك

بعض الدول الأجنبية الاخرى

— ٨ —

كان للمماليك علاقات أخرى غير التى ذكرناها مع بعض دول أخرى أجنبية ولما كانت هذه العلاقات ليست بذات اهمية كبرى حتى نفرد لكل منها فصلا قائماً بذاته رأينا إن نوردها كلها هنا فى فصل واحد

ففى عصر قلاوون عام ١٢٨١ م توجهت رسله وسفراؤه الى جميع الدول المحيطة به ولكى يحافظ على العلاقات الودية التى أحكم أواصرها سلفاؤه بينهم وبين جيرانهم ، فلما اعتنق أمير قبجاق الاسلام ، أرسل قلاوون وفداً يهنئه بذلك فساد الوفد محملا بالهدايا ومعه رسول موفد من قبل قبجاق يطلب باسم مولاه لقباً مصريا وشارة من شارات الشرف .

وفى عهده أيضا وفدت عليه الوفود من أمام اليمن تحمل الهدايا من العبيد والأسلحة والتوابل وأنواع الطيور النادرة . وتبودلت بين قلاوون وبين أمير سيلان سفارات المودة ورسائل المصافاة ولم يقصد قلاوون من ذلك إلا غرضا واحداً وهو ضمان استمرار وارتقاء التجارة والمواصلات مع بلاد الهند والشرق

والتفت قلاوون الى عقد المحالفات مع الدول الاوربية بعد ان وطد دعائم الثقة به فى الشرق ، فابرم عهداً بينه وبين امبراطور دولة الروم الشرقية وكثير من دول أوربا واقطاعاتها ، وفى عام ١٢٨٦ م وقع معاهدة تجارية حربية مع جنوه وقشتاله وصقلية .

وفى ملك بيبرس الجاشنكير المرة الثانية تفككت أواصر المودة التى عقدها قلاوون بينه وبين جميع الدول الأوربية خاصة والشرقية عامة ، وانا لنجد ذكراً طويلا فى الفصول السابقة لمحارباته لدول الشرق ، الا انه حدث حادث فى غضون حكمه فى عام ١٣٠٧ جدير بأن يدون منذ ولايته . فقد حدث ان أرسلت حكومة

اراجون وفداً الى سلطان مصر تطلب اليه ان يسمح بفتح بعض كنائس خاصةفى سوريا وبيت المقدس ومصر ويفك أسر قنصل دولتهم الذى كان سجيناً فى مصر فاجاب بيبرس طلباتهم ولكنه حدث انه فى أثناء سير الوفد عائداًالىالاسكندرية ليبحر منها الى بلاده ، أرسل السلطان يطلب القبض عليهم لأنه نكث بعهوده لهم ولأنه لم يحصل منهم الفدية اللازمة لاسترضائه . فلما وصل رسل السلطان إلى الوفد قبض عليهم الاسبان وحولهم معهم وأبحروا بهم منالاسكندرية فاثار هذا العمل سخط بيبرس ومع ماقدمته الدول الأوربية بواسطة سفرائها من الترضية للسلطانفان غضبه لم يخمد . وكانت هذهالحادثةسبباًفىاضرام نار حقدهعلىالمسيحيين المصريين الذين لم يكن لهم ضلع فى هذه الحادثة ، فامرباخراجهم منجميعوظائف الحكومة وشدد عليهم فى تنفيذ ما كان مشروعا لهم من ركوب الدواب . وهدم صوامع اليهود وكنائس المسيحين وختم أعماله باصدار مرسوم شديدالوطأة عليهم ومع ان هذا المرسوم كغيره لم يلبث ان أهمل مفعوله تدريجيا ولكن فرض اعادة العمل به كان خطراً منتظراً لهؤلاء المساكين فى كل حين .

وأجد انه من الملائم ان أنشر خلاصة هذا المنشور لغرابته ، كان من المحتم على الاسرائيلى ان يضع على رأسه عمامة صفراء والقبطى عمامة زرقاء ليمكن التمييز بينهما عن بعد ، وحتم على نسائهم لبس ثياب خاصه لتميزهم وحرم عليهم ركوب الخيل وسمح لهم بامتطاء البغال بشرط ان يركبوا وأرجلهم فى جنب واحد من أجنب السرج الذى حرم عليهم تزيينه وعند مرورهم وهم ركوب على مسلم فيجب عليهم فسح الطريق لركابه وان يترجلوا ليحيوه حتى يمر ، وحتم عليهم تحية المسلم وهم وقوف ثم يجب عليهم الا يرفعوا أصواتهم على أصوات غيرهم من المسلمين والا يتصدروا المجالس دونهم ، والا يحتفلوا « بأحد الشعانين » جهاراًوألايقرعوا نواقيس فى كنائسهم وألايقبلوا فيهانصرانية أىمسلم وألايمتلكوا عبيداً أوأسرى أوغنيمة من غنائم المسلمين وألا يتعلموا القرآن ولا ينقشوا على خواتمهم أو على دورهم أى كتابات عربية وان يلبسوا صلبانا أو جلاجل على صدورهم اذا أموا الحمامات العمومية واذا اتصل رجل منهم بمسلمة كانجزاؤه القتل ، انتهى

انتهى عصر بيبرس الجاشنكير وعاد الناصر للملك المرة الثالثة كما أسلفنا فى

الفصول الأولى

وفى هذه المرة اهتم اهتماما شديداً بنشر دعوته خارج بلاده وخصوصا فى الحرمين الشريفين ، فقد كان الخلاف مستحكما بين أشراف مكة والمدينة لأن كلا منهما أراد نشر نفوذه على الحرمين فانتهز الناصر هذه الفرصة وأوقع بالفريقين وكان ذلك داعية لبسط نفوذه على تلك الاصقاع .

وفى ذلك الحين تمكن أويلجيتو الزعيم الشيعى المغولى من ضم الاشراف الغاضبين على الناصر لصفة ، وضمهم الى مذهبه الشيعى فدعوا له فى مكة واستبدلوا اسم السلطان باسمه ولكن بعد حين قصير تمكن الناصر من إعادة المياه الى مجاريها وذلك إن الب العرب على الاشراف والحامية المغولية فقاموا عليهم وطردوا الحامية وأعادوا اسم الناصر الى الخطبة . وبذلك صار الناصر للمرة الثانية صاحب السلطان على تلك البلاد . ومن ذلك الحين إلى اليوم اتبعت سنة ارسال الغلال السنوية الى أهالى مكة والمدينة من الخزانة المصرية .

وفى عصر هذا السلطان أيضاً ثار الدروز فى سوريا على حكمه وهاجموا مدينة « جبلة » واقعوا بأهلها الفزع والرعب وهم يصيحون ويهللون قائلين « لا اله الا على !! » فارسل الناصر اليهم حملة شتتت شملهم ونشر منشوراً يعاقب فيه عقابا صارما كل من يحاول ان يذيع هذه العقيدة الفاسدة . فقد كان فى الدروز فئة تعتقد ان علياً هو خالق السموات والارض وان كل نسله مقدس طاهر . وقد فسروا القرآن بحسب أهوائهم وأباحوا تعاطى الخمر والمسكرات ، واعتقدوا فى تقمص الأرواح وهذه الفئة الدرزية هى التى قامت بتلك الفتنة التى أخمدها الناصر وهى فى المهد

وقد بسط الناصر نفوذه على جميع دويلات المغرب ، وكان أمير طرابلس لايتولى عرشه إلا بفرمان يصدر مصدقا عليه من الناصر ، وقد تمكن أمراء طرابلس بمساعدة مصر لهم من الاستيلاء على ايالة تونس .

وكان الناصر لايفتأ يتدخل فى شئون جزيرة العرب وفى منازعات أمرائها ليتمكن من تقوية نفوذه وكان سلاطين المماليك يهتمون جداً ببسط نفوذهم على الجزيرة العربية لأغراض شتى أهمها التجارة والدين لانها فى طريق متاجرهم من الشرق ولان نفوذ الخلافة الدينية كان لابد من أن تزكيه بلاد العرب

وقد دارت بين الناصر وجيرانه من الممالك رسائل المودة وسفارات السلام ، وفى عهده وصل الى مصر وفدان من ابن طغلون أمبراطور الهند يطلبان من الناصر مساعدته لمناهضة طاغية المغول ، وقد استمر تبادل السفراء بين القسطنطينية ومصر لان الدولتين كانتا تخافان عدواً مشتركا وهو القبائل التركمانية .

وكانت علاقات الناصر مع الدول الاوربية علاقات ودية جدية وخصوصاً مع البابا الذى أرسل للناصر خطابا يطلب فيه معاملة المسيحيين النازلين فى دولته بالاحسان والعدل مقابل معاملته هو (البابا) للمسلمين معاملة صالحة فرد عليه الناصر رداً لطيفاً واعداً بذلك ، وقد جاء إلى مصر فى ذلك الحين وفدان أوربيان آخران لهذا الغرض نفسه فقوبلا مقابلة حسنة ، وكان من جراء ذلك إن سمح الناصر للاقباط بلبس عمامات بيضاء مثل غيرهم من الوطنيين .

بقى نفوذ مصر على الدول الاجنبية قويا كما تركه عندما مات ، وأعقبه على الملك أولاده الاطفال الذين أساءوا الحكم وتولى كثير منهم العرش مدة لاتطول عن ثلاثة شهور لابل ان أحدهم بقى على العرش أيام قليلة ، ومع كل ذلك كان صيت مصر ذائعاً فى الممالك الاخرى حتى ان ملك الهند أرسل للمرة الثانية (كما أسلفنا) بعثاً يحمل الهدايا والتحف لسلطان مصر ليعترف بملكه ولتولية الخليفة عرشه . ومع ان الخليفة لم يكن ذا نفوذ يذكر فى مصر فانظر عظمة نفوذه خارج مصر وكان ذلك فى عصر الملك الصالح علاء الدين من أبناء الناصر .

وفى عصره أيضاً تطلعت بلاد اليمن للاستيلاء على جزيرة العرب . إلا ان المماليك بمساعدة العرب اعاد والسلطان جزيرة العرب لحكم مصر .

وبعد هذه الحوادث تضاءلت أهمية مصر ومركزها فى عالم السياسة الخارجية وقضى على نفوذها القضاء الاخير

علاقة المماليك بالقبائل التركمانية

امتدت دولة المماليك شمالا فى آسيا حتى تخطت أرمنيا وجبال طرسوس إلى آسيا الصغرى ودولة السلاجقة التى بعد أن ضعف نفوذها بسط المماليك حكمهم على الدول التركمانية التى كانت خاضعة قبلا لها ولم يكن نفوذ المماليك على تلك القبائل نفوذاً كلياً بل كانت هناك علاقة أكثر مايقال فيها انها علاقة حماية وخراج ولم يكن المماليك يتدخلون فى شئون تلك الدول مادامت تخضع لهم فى مسائل الخراج والجزية وتنصيب الوالى

فبعد أن سقطت دولة الارمن كما بينا فى الفصل السابق عام ١٣٧٥ م، أصبح الطريق الى آسيا الصغرى مفتوحا أمام المماليك. ففى عام ١٣٧٨ قام حاكم سوريا المصرى بحملة قوية ليضم الى سلطانه احدى الدويلات الملاصقة لحدود أرمنيا فهاجم دويلة « أبناء ذى الغادر » وهى احدى الدول التركمانية التى أسست على انقاض دول التتار ورأسها قاجا بن ذى الغادر وقد استولت على كردستان ردياربكر وعلى جزء من أرمنيا الا ان هذه الحملة باءت بالفشل. وبهذه الحملة بدأت أولى العلاقات بين المماليك والقبائل التركمانية. وبهذا وبعد ان كانت هذه القبائل أخلص أصدقاء مصر وحماة حدودها من الشمال أصبحت ألد أعدائها وأشدهم على الاطلاق وكان ذلك داعية بعد ذلك لفتح مصر على يد سليم الأول وضياع استقلالها الى اليوم. وقد قال المقريزى فى ذلك إن هذه الحملة كانت السبب الاهم فى ضياع استقلال مصر

وفى تلك الاثناء كانت دولة الاتراك العثمانيين ينمو سلطانها ويقوى. وبدأت القبائل التركمانية تنضوى تحت لوائها (سنفرد لعلاقتها مع المماليك فصلا خاصاً) وبذا أصبحت خطراً كبيراً على حكم مصر فى آسيا الا انه رغم ذلك فقد أخضع المماليك امارة ذى الغادر مرة أخرى اخضاعا تاماً لحكمهم « فوضعوا عليها

جزية كبيرة وحتموا عدم تولية سلطان على عرشها الا بأذن سلطان مصر ، ثم بعد ذلك فى عام ١٤١٧ م خلعت المعاقل التى على حدود أرمنيا نير الطاعة المصرية ، فخرج لهم السلطان شيخ فى ربيع عام ١٤١٨ م مستصحباً معه الخليفة وقاضى القضاة وزحف بجيش قوى استرد به طرسوس وأخضع المتمردين ومما ساعده على نصره هذا تشاغل الاتراك عنه بحروبهم مع التتار فى آسيا لاسترداد ملكهم الذى أضاعه تيمور

وفى نفس السنة أيضاً أخضع زعيم كردى يدعى « قره يوسف » (ورد ذكره فى العلاقة مع التتار) قبيلة « قره‌قيون » وتولى رياستها وقيادة جنودها وأخضع بهم بلاد كردستان كلها . ومن ثم عاد قاصداً غزو سوريا فعاد السلطان شيخ مرة أخرى إلى سوريا لاخضاع المتمرد ، الا ان قره يوسف ترك سوريا وعاد إلى الشمال مبقياً فى حوزته أرمينيا ، وتجرأ لذلك تركمان آسيا الصغرى فاستولوا أيضاً على طرسوس ، وعند ذلك أرسل شيخ أكبر أنجاله على رأس الجيش ليعيد إلى مصر ولايتها المفقودة فتوغل فى آسيا الصغرى فى غزوة موفقة مستوليا على كل مافى طريقه حتى وصل الى « قيصرية » و بعد أن أدب العصاة وطرد قره يوسف وأعوانه وأجلى التركمان عن الحدود المصرية عاد فى موكب حافل الى مصر

وفى مايو عام ١٤١٠ م عاد « قره يوسف » مرة أخرى لتهديد الحدود المصرية، طالباً اعادة المنهوبات التى أخذت منه ومنها جواهره النفيسة الغالية الثمن وكان شيخ السلطان فى حالة النزع الأخير فلم تتحرك الجنود لصده . وعقب وفاة شيخ أزمة طويلة استمرت فى مصر لتولى العرش بين المماليك الذين بقوا يتنازعون الحكم بينما كان قره يوطد دعائم حكمه فى شمال سوريا وبقيت الحالة كذلك حتى عام ١٤٢٩ فى حكم برسباى عند ماأغار « قره يلك » زعيم القبائل التركمانية التى كافأه تيمور لمساعدته له فى حروبه ضد مصر باقطاعه امارة « سيواس » على الحدود المصرية فارسلت مصر حملة تأديبية لاعادة الامن الى نصابه فخربت هذه الحملة المدن والحصون وكل ماقابلته فى طريقها وهدمت مدينة الرها وباعت أطفالها ونساءها فى أسواق الرقيق . وقد سلم ابن قره يلك احدى الحصون إلى المصريين بشرط خروجه بنفسه الا انه رغم ذلك أسره المصريون ، وحدثت ثورة بين

الجنود كانت نتيجتها ان الجنود أبوا التقدم بل عادوا ادراجهم الى سوريا فما كان من قره الا ان عاد لينتقم لولده الاسير ، وأغار أغارة شعواء على الحدود السورية ولكن الطاعون والوباء فتكا ، بجنده فتكا ذريعاً وانتهت بذلك الحرب التى لم يقدر على اتمامها

وفى اثناء ذلك كانت الجنود المصرية تحتل بقية الولايات الاسيوية التركمانية لتحافظ على ولائها لسلطان مصر فكانت حامية فى « كرمان » وأخرى فى « ذى الغادر » وقد حدث فى اثناء تلك الحروب أن أسر ابن حاكم ذى الغادر فاوفدت أمه الى مصر هدايا نفيسة وجوارى لتحصل من سلطان مصر على العفو عن ابنها

وفى الاعوام التالية بدأ الشاه روخ يدفع حكام الولايات التركمانية الخاضعة لمصر الى الثورة ويمدهم بالجند والذخيرة ولكنه حدث فى اثناء ذلك أن هلك « قره يلك » فى أغسطس سنة ١٤٣٥ بينما كان يقاتل بجانب الشاه مع زعماء الوبر فى « ازرنجان » إلا أن احد أولاده تولى زعامة القبائل بدلا منه وثار على حكم مصر وقام معه أيضاً فى ثورته هذه كثير من زعماء القبائل إلا أن برسباى أرسل حملة فى يونيه ١٤٣٨ مظفرة بسطت نفوذ مصر على النصف الشرقى من آسيا الصغرى بينما كان النصف الغربى تحت حوزة الاتراك العثمانين

ومنذ عهد برسباى تحسنت علاقة المماليك بالامارات الاسيوية ففى عهـــد جقمق عام ١٤٤٣ م ، توالى حضور الوفود من كل الامارات الاسيوية التى طالما شقت عصا الطاعة حاملة الهدايا الغالية ، مؤكدين ولاءهم لحكم مصر وكانوا يستقبلون فى مصر استقبالا ملكياً — وقد حضرت مع احدى هـــذه الوفود ابنة احد أمراء ذى الغادر فعقد عليها السلطان وتزوج اثنتين من أميرات آسيا الصغرى غير هذه أحداهما عثمانية اسمها « شاه زاده » وفى هذا العصر نجد كثيراً من سفارات الولاء والاخلاص التى تبادلت بين السلاطين التركى والمصرى

وفى عام ١٤٥٧ م قام زعيم « الوبر الأسود » يناوىء حكم مصر فى أسيا ، فقام زعماء الوبر الأبيض لكى ينال نفوذاً فى عينى مصر وهاجم زعماء الوبر الاسود وهزمهم هزيمة منكرة وأرسل رسالة الى مصر ينبئها بذلك وكان ذلك فى عهد اينال . وقد قام هذا السلطان بحملة ضد رئيس كرمان الذى اعتدى على حدود

سوريا واستولى على أطنة وطرسوس وعلى هذا أرسل جيش الى أسيا الصغرى لحاصر قونية وقيسارية وضرب أرضهما ، ولم يبق على قلعة أو مدينة فسلمت كرمان من غير قتال وأعيد السلم الى نصابه فى ١٤٥٨ م

وفى عام ١٤٦٢ م فى عهد السلطان خشقدم كانت سلطة الولاة الاتراك فى قبائلهم قد قويت جداً حتى ان هؤلاء أصبحوا لا يأبهون بحكم مصر ولا بنفوذها فاراد هذا السلطان أن يتبع طريقة تمكنه من أعدائه جميعا وذلك بأن يتبع طريقة « فرق تسد » فاغرى « أوزون حسن » أحد أمراء القبائل بأن يستولى على خربوط التابعة الى صاحب ابلستين أحد الامراء التابعين لمصر . وفى نفس الوقت أوعز الى هذا أن لا يسلم المدينة وان يقابل القوة بمثلها ، إلا ان صاحب ابلستين «اصلان» فطن لحيلته فاغتاظ منه السلطان وأرسل وراءه فدائيا من المماليك قتله بطعنة خنجر . فشق أخوه أصلان الطاعة على حكم مصر وكان الاتراك يقصدون حاكم ذى الغادر والشاه سيوار فى استيلائه على الولايات بينما كانت مصر ترجو ان تعين مملوكا من مماليكها فكانت حملة مصرية لمساعدة انصارها ضد « سيوار » خليفة اصلان الذى يعضده الباب العالى وبهذه المساعدة تمكن من ان يطرد الجيوش المصرية وغزا أراضى الحدود حتى بلغ انطاكية وطرسوس . ولما نال سيوار جميع أغراضه من الفتوح أراد الصلح مع المصريين على أن تبقى فى يده فتوحاته كلها فاعاد الى مصر جميع الاسرى المصريين مع بعث حي ولكن السلطان رفض شروطه وأرسل جيشاً آخر ليطمئن على شرفه العسكرى الا ان نصيب هذا الجيش كان مثل سابقه فقد استدرج جيش قايتباى الى ممر عند عينتاب وهناك أوقع به سيوار هزيمة مخزية ، وعندئذ دب الرعب إلى قلب السلطان فارسل له جيشاً ثالثاً هزم أيضاً . وعندئذ سمى سيوار نفسه ملكا على سورية اذ ان أكثرها كان تحت مطلق سلطانه وعند ذلك علم قايتباى انه لاطاقة له بحرب سيوار مادام يعضده الباب العالى فارسل الى تركيا وفدا وسلم بمطالب الاتراك كلها فى امارة ذى الغادر وغيرها وعندئذ كف الباب العالى عن مساعدة سيوار فهزمته جند قايتباى واضطر أخيراً ان ينزوى فى معقله فى ابلستين ثم رضى أخيراً ان يسلم كتابع للسلطان فوعد بذلك . فسار مع حاشيته الى معسكر المماليك ليتلقى الخلعة الملكية والفرمان بتوليته واليا على ابلستين ولكنه

كان مخدوعا اذ انه حال وصوله للمعسكر قبضت عليه الجنود المصرية مع اتباعه ليحلي بهم السلطان موكبه عند عودته لعاصمة ملكه وفى القاهرة أجبر هذا الزعيم التركمانى على الوقوف فى حضرة قايتباى ليهزأ به أمام حاشيته ثم سيق أخيراً مع أقاربه الى القتل .

وفى ذلك الحين بعد ان تخلصت مصر من سيوار ظهر زعيم آخر تركمانى انتصر انتصارات باهرة فى ميادين الحروب حتى خشيت مصر نفوذه فقد قام « أوزون حسن » بقهر زعيم قرة قيون » كما ذكرنا وإرسل رأسه لمصر ، وكان غرضه من ذلك ان يظهر ولاءه للجالس على العرش المصرى ورغم كل ذلك ورغم الوفود التى كانت تقدم متتالية تحمل الهدايا والنفائس والخضوع من أوزون للعرش المصرى الا ان مصر كانت تخاف عبث جنوده بالحدود المصرية ، ولما عاد أوزون الى آسيا الصغرى بعد ان اخضع أواسط آسيا كلها لنفوذه ، أراد ان يخضع الامارات التركية لحكمه الا ان مدفعية محمد الثانى أوقعت الرعب بصفوفه ١٤٧٢ م ومات أوزون بعد ذلك من الحزن عام ١٤٧٥ م ، ومع ان الآب كان موالياً لمصر ، إلا أن ابنه وقف موقف المناوىء لسلطانها وقاتل الجيش المصرى وحاول ان يستولى على الرها عام ١٤٨٢ . وعندئذ استتب السلام بين ابن أوزون وقايتباى لان هذا الزعيم التركمانى أخلى ميدان الحرب لقوة أعظم منه حلت مكانه ووحدت جميع القوى التركمانية والتركية تحت سلطانها إذ أتحدت أكثر القبائل والامارات تحت سلطان « بايزيد الثانى » سلطان تركيا فتولى سلطانها وقيادتها ووحد جهوده كلها ضد مصر وسلطانها قايتباى. وموعد كلامنا عن هذه العلاقة الجديدة الفصل القادم

علاقة المماليك بالاتراك العثمانيين

— ١٠ —

المشهور إن الأتراك منشأهم الاصلى جبال الطاى ثم جاءوا أوربا زمراً فى طلب الرزق أو الغزو قبل الميلاد المسيحى، لان اسمهم «تركى» ذكره بومبونيوس ميلاوبلينيوس الرومانيان وكانوا يومئذ على ضفاف تنايس «دون» ثم جاء ذكرهم فى سفارة حملها زيمارخوس من امبراطور القسطنطينية سنة ٥٦٩ م إلى الخان الأعظم فى الالطاى. وقد وصف الأتراك هناك انهم بدو يقيمون فى خيام مضروبة على المركبات ويحرقون موتاهم وينصبون لهم التماثيل ويضعون فوق قبور الظافرين أحجاراً خاصة

ثم ظهرت أمة الاونوغور وانقسمت الى قسمين «الاونوغور» (١) فى الجنوب و «الطقوز اوغور (٢)» فى الشمال، ثم اندمج الاونوغور فى الفينيين (Fens) عند الفولغا وظل الطقوز أوغور بعيدين عن غيرهم من العناصر وعرفوا فى التاريخ باسم اوغور فقط وكان بعضهم يقيمون فى (طرفان) باسفل جبال تيانشان وهو المكان الذى بلغ اليه الرحالة فون ليكوك سنة ١٩٠٦ ودرسه ونقب عن آثاره وحمل منه كتباً خطية فى عشر لغات مختلفه واكتشفوا أيضاً جثثاً بوذية لاتزال بألبسة الرهبان وكان قد قتلهم الاوغور المسلمين فى حرب نشبت بينهما. وكان يقيم بجوار الاوغور قبيلة تسمى الاوغوز (الاولى بالراء والثانية بالزاى) ومنهم بقية فى بخارا وما يجاورها وهم الازابكة. ويعرفون فى غربى تركستان بالتركمان وفى آسيا الصغرى بالعثمانيين نسبة الى جدهم عثمان ابن ارطغرل

والسبب فى قدوم هؤلاء الاتراك الى آسيا الصغرى انه فى القرن الثانى عشر

-١- معناها عشرة أوغور لان الاون باللغة الطورانية تساوى عشرة

-٢- معناها تسعه أوغور لان الطقوز باللغة الطورانية تساوى تسعة

أو القرن الذى تلاه ان العباسيين أغروا كثيراً من التركمان والسلاجقة على القدوم لآسيا الصغرى ، وكان يأتى فى أثر هؤلاء المهاجرين قبائل من بنى جنسهم يساعدونهم ويشاركونهم فى القبائل ومن ضمن هذه القبائل الصغرى والطفيلية كانت قبيلة الاوغوز الذين تبعوا السلاجقة فى دورهم لآسيا الصغرى فاقطعوا ولاية بجوار أنقرة مكافأة لهم على خدماتهم للسلاجقة ، ومن ذلك بدأ نجمهم فى الارتفاع حتى تمكنوا فى مدة قصيرة من وراثة الدولة السلجوقية ثم أخضعوا أكثر القبائل التركمانية خصوصاً التى فى شرق آسيا لسلطانهم ، ولما تأيدت دولتهم فى آسيا قطعوا البوسفور الى اوربا وورثوا الدولة البيزنطية وأقاموا فى البلقان وسموا بالعثمانيين . وجاء يوم كانت لهم فيه شمال افريقيا كلها وشرق أوربا وغرب آسيا وامتدت فتوحهم من بلاد الهند والصين شرقا الى المحيط الأطلسى غربا ومن خط الاستواء جنوباً حتى حدود روسيا شمالا

وكانت العلاقة بين مصر والاتراك كما بينا فى الفصل السابق علاقة مودة حيناً وعلاقة عداء حيناً آخر تبعا لمطامع الفريقين فى الولايات التركمانية الا ان الغالب انها كانت علاقة صفاء ومودة فى غالب الأحيان حتى انه فى عهد اينال لما استولى العثمانيين على القسطنطينية فى ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م كان وقع هذا الخبر مفرحا جداً فى مصر وكان الناس فى مصر يترقبون أخبار فوز العثمانيين وتوغلهم فى أوربا بالسرور والحبور ، وسارت الوفود بين الدولتين حاملة البشائر والتهانى ورفع السلطان اينال الى محمد الفاتح لاستيلائه على الاستانة ، التهانى مع قصيدة ملكية ومعها رسالة تهنئة بالنصر

ولم تستمر طويلا هذه العلاقات الودية اذ لم تلبث الظروف ان ساقت عوامل التوتر بين الفريقين ، فقد حدث ان وصل الى مصر رسول من قبل الفاتح « محمد الثانى » حاملا رسالة الى السلطان المصرى « خشقدم » وقد اعتبر السلطان هذه الرسالة غير ودية . وزاد الأمر شذوذاً ان الرسول رفض أن يركع فى حضرة السلطان وكانت العادة اذ ذاك ان يقبل الرسول الارض بين يدى السلطان معتذرا انه مسلم يصلى لله وانه يصعب عليه ان يركع لمخلوق بعد ان ركع للخالق . ورغم كل ذلك كان السلطان المصرى بدأ ان يخشى ازدياد نفوذ هذه

الدولة الفتية فاظهر للرسول استعداده ان يبعثه ومعه هدايا نفيسة ارضاء للباب العالى فرفض الرسول قبول الهدايا بحجة ان مقام السلطنة العثمانية يدعوه الى ارسال الهدايا مع سفارة مصرية خاصة تليق بمقام الباب العالى

والسبب الحقيقى فى توتر العلاقات بين هذين القطرين ان كلا من البلاطين المصرى والعثمانى كان يعضد مطالب خاصة فى ولاية كرمان وكان يجد البلاط الآخر فيها مساسا به . ومن هذه المطالب ان محمد الفاتح كان يرشح ابن أميرة تركية لعرش ولاية كرمان بينما كان خشقدم يعضد ابن الوالى السابق الذى هو أحد مماليكه وقد تمكن هذا بمساعدة « اوزون حسن » (الوارد ذكره فى الفصل الخاص بعلاقة المماليك بالدول التركمانية) من التغلب على منافسه والاستيلاء على العرش ولكن ابن الاميرة التركية عاد الى العرش مثبتا عليه بواسطة الجنود العثمانية وكان الرسول الذى قدم مصر قدمها لهذا الغرض خصيصا ليوطد عرش صاحبه وقد قبل خشقدم مكرها هذه المطالب بينما كان يدس له الدسائس ورغم عدم قيام حرب بين الدولتين فقد كان كلا البلاطين يمقتا بعضهما

بقيت هكذا العلاقات بين البلدين متوترة وزادها النزاع على الامارات التركمانية (تجده مفصلا فى غير هذا الفصل) توترا وأصبح كلا البلاطين يطلب الحرب ويدعو لها . وقد أصبحت الحرب قاب قوسين أو أدنى عام ١٤٨١ ، فقد حدث انه عند مااعتلى العرش العثمانى السلطان « بايزيد الثانى » نازعه العرش اخوه جم واستعرت بينهما حرب داخلية انهزم فيها جم فى آسيا الصغرى وفر الى الحدود المصرية محتميا فى طريقه بصديقه امير أمارة كرمان وعند مادخل الأمير جم الاراضى المصرية استقبل استقبالا ملكيا ورحب به السلطان المصرى « قايتباى » ترحيبا ملكيا وسيره الى مكة حاجا بعد ان أعطى له ولاسرته الامان الملكى

وكان هذا الامير نحسا وبائسا فى جميع أعماله . فانه عاد بعد الحج الى مناوأة الباب العالى وبمساعدة الجنود الكرمانية غزا آسيا الصغرى ولكنه فشل فشلا مريعا فالتجأ إلى رئيس فرسان القديس يوحنا فى جزيرة رودس « المولى الأعظم » وقد حاول بايزيد وقايتباى كل منهم لغرض فى نفسه ان ينيل الامير فى

بلاطه ولكن فضل أن يلتجيء الى البابا محتميا به وقد رحب البابا بهذا الامير ترحيبا عظيما لانه كان على وشك تسفير حملة صليبية جديدة مؤملا فى استصحابها للامير معها آمالا عظيمة . ولهذا الغرض أبقى البابا هـذا الامير اليائس فى رومية حتى مات بها مسموما بعد ان عدل البابا عن حملته . الصليبية وقبل موت هـــذا الامير عرض قايتباى عروضا جمة فى مقابل حصوله على هذا الامير المنكود حتى ان بعض المؤرخين يذهب الى ان قايتباى عرض مقابل الامير بيت المقدس ولـكن البابا علم أنه وان استولى على بيت المقدس لايمـكنه الاحتفاظ به فقبل ثمن الأمير جم من الباب العالى ثم تركه يموت بالسم كما ذكرنا

كانت هذه الاسباب السالفة الذكر سببا فى ازدياد كراهية بايزيد للمصريين ، واذا أضفنا الى الاسباب المتقدمة استحواز المصريين على هدايا مرسلة من الهند الى بايزيد منها خنجر نفيس مرصع بالماس والياقوت ، ورفض قايتباى اصلاح مجارى الماء فى دروب مـكة ، ورغم ان قايتباى شعر بخطأه فاعاد الخنجر وبقية النفائس الى تركيا مع رسول خاص الا ان رسوله قتل وهجمت الجنود التركية بدون سابق انذار عام ١٤٨٥ م على الحدود السورية وهدموا طرسوس واستولوا على اطنة . واستمرت الحرب الى العام التالى حيث احرزت مصر نصرا مبينا فى موقعة بجوار اطنة

لم يخضع الاتراك لهذه الهزيمة الا ترقبا للظروف ففى عام ١٤٩٠ م وقع خلاف على عرش ولاية ابناء « ذى الغادر » المشمولة بحماية المصريين ، اذ نازع أخ أصغر أخاه الأكبر المستحق للعرش شرعا فعاضد المصريون صاحب الحق الشرعى بينما انحاز العثمانيون لجانب مزاحمه . وعندئذ أرسل قايتباى جيشا ضخما قويا الى آسيا الصغرى أخضع الولاية الى النفوذ المصرى وثبت عرش حاكمها الشرعى وتقدم الى آسيا الصغرى فاوقع بأهلها وهزم الاتراك فى « قيسارية » هزيمة منـكرة وعاد قايتباى الى مصر ومعه آلاف من الاسرى ومئات من الاسلاب والنفائس ودخل القاهرة فى موكب حافل ومر تحت أقواس النصر الى مقره الملـكى بين أصوات الفرح والتهليل . ولـكن قايتباى كان يعـــلم معنى سكوت الاتراك اذ لابد ان يـكيدوا له من حيث لايدرى وان يعودوا يوما

للاقتصاص منه ، ولكن مما هدأ مخاوفه أنه وصله فى ذلك الحين ، رسول من الباب العالى سنة ١٤٩١ م ومعه الأسرى المصريون وهدايا ملكية لقايتباى من الباب العالى مع شروط للصلح من صالح مصر فقبلها المماليك فضاً للحرب التى كان الاتراك فى شاغل عنها لاهتمامهم بالتوغل فى أوربا وحصار بلغراد .

انتهت هذه الحرب وعاد السلم إلى نصابه بين الدولتين ، واستؤنف ارسال الوفود والهدايا الغالية ومع ذلك كانت أسباب النفور متوفرة ، إذ أخذ العثمانيون من جهة يحرضون القبائل والامارات التابعة لمصر على التخلص من سيادتها ، ويضعون العراقيل فى سبيل تجارتها مع غربى آسيا وأواسطها مما جعل ورود الصوف ومنسوجاته وأنواع الفراء الفاخرة والمماليك الجراكسة إلى البلاد المصرية نادراً جداً بل ممتنعا فى أواخر أيام الغورى ، وكان أشدها على المصريين امتناع ورود الرقيق من المماليك ، اذ هم مادة الجيش ورجال الحكومة . ومن جهة أخذ سلاطين مصر يجيرون كل من التجأ اليهم من أبناء السلاطين العثمانيين والأمراء الفارين من وجه الدولة العلية ثم استرسلوا فى الأمر وهبوا يوادون من عادى العثمانيين من سلاطين الدول المجاورة لهم مثل « أوزون حسن » سلطان العراق ومن بعده الشاه اسماعيل الصفوى (١) وكانت علاقة الدولتين التركية والمصرية بهذا الأمير

---

(١) الشاه اسماعيل الصفوى هو المؤسس الثانى لدولة ايران وهو من سلالة صفى الدين ، واليه ينتسب ومنه أخذ اسمه وقد ولد فى قرية ـ أردبيل ـ وفيها نشر تعاليمه الصوفية أول الامر ومنها انتشرصيته وتعاليمه الى جميع الجهات المجاورة ، وخصوصاً فى جهات أذربيجان فى القرن الرابع عشر ، وقد نالت عائلته نفوذا هائلا بسرعة مدهشة فى تلك الجهات ، ولما كانت تلك الانحاء خاضعة لحكم ـ الوبر الاسود ـ فقد طارد هؤلاء الصفويين مطاردة هائلة فالتجأ الصوفيون الى معونة ـ الوبر الابيض ـ وارتبطوا معهم برابطة الزواج والمصاهرة خصوصا بين عائلتى اسماعيل وأوزون حسن وفى موقعة عام ١٥٠٨ م بين الوبر الابيض مع الصفويين ضد الوبر الاسود قتل والد اسماعيل وحمل اسماعيل بنفسه أسيرا وكان لا يزال طفلا الى ـ اصطخر ـ ومنها هرب الى لى ـ لجيجان ـ حيث اختفى عند أقربائه من الوبر الابيض وهناك تعلم أصول المذهب الصوفى وأتقنها وأشرب بها دمه وأعتنقها بحماسة شديدة ثم تولى رئاسة الطائفة الصوفية وصمم على الانتقام من قتلة والده فهاجم الوبر الاسود وهزمهم هزيمة منكرة ومن ثم أصبح ذا سطوة عظيمة ففتح فارس وخراسان والجزيرة . ومن ثم عاد الى أذربيجان وبذا أصبح خطراً هائلا على الاتراك لتغالى شيعته فى معتقدهم وأعمالهم الوحشية فى سبيل نصرة مبادئهم وليزيد اسماعيل فى العداوة القائمة بينه وبين الباب العالى ربى خنزيراً سماه بايزيد ونحن نعلم طبعا مقدار الاهانة التى تلحق مسلم يسمى باسم هذا الحيوان

سبباً للحروب الهائلة التي انتهت بعدئذ بضياع استقلال مصر وانضوائها تحت حكم الاتراك والمماليك البلوات .

ولما كانت العداوة مستحكمة بين السنيين الأتراك والشيعة من أتباع الصفوى ، فقد حاول الصفويون التقرب الى المصريين نكاية بالاتراك وحاول الشاه اسماعيل ان يعقد مع الغورى سلطان المماليك محالفة دفاع وهجوم فلم يفلح لبعد مابين الامتين فى المذهب وذلك من أغلاط الغورى ، وحدث ان مر اذ ذاك بتركيا بعث من اتباع الشاه يطلبون السماح لهم بعبور البوسفور إلى أوربا ليسافروا الى البندقية ، فقبض عليهم السلطان بايزيد وسجنهم نكاية فى الشاه الذى التمس من الباب العالى أن يسمح لبعوثه بالمرور الى أوربا فرفض الاتراك ذلك الملتمس بشكل مزر ، فارسل الشاه بعثاً أخر الى البنادقة عن طريق مصر سوريا يدعوهم الى مساعدته فى حربه ضد الدولة العلية ، وسمح الغورى لهذا الوفد بالمرور فغضب بايزيد من الغورى واشتكى اليه مر الشكوى فى خطاب ارسله اليه مع سفير لسماحه لهذا الوفد بالسفر من سورية ، وأراد الغورى ان يترضاه لحجز البنادقة الذين كانوا داخل حدود مملكته ، ولكن فى العام التالى حضر لمصر أسطول بندقى . فخشى قانصوه عاقبة ذلك فاطلق سراح المحجوزين وكانت هذه الترضية كافية وحسنت العلاقات بين الدولتين حيناً قصيرا

وعندما تولى العرش السلطان سليم هرب ابن أخيه « قاسم » من تركيا الى مصر والتجأ اخوه مراد أيضاً الى الشاه اسماعيل وكان السلطان سليم يريد قتلهما ، فطلبهما منهما فلم يجيباه وكان ذلك اذا أضفناه الى طبيعة سليم الحربية والى خوفه من استفحال دعوة الشاه اسماعيل الذى اتحد مع مصر فى محالفة صداقة سياسية وتناصر حربى ، وكان أحمد أخ السلطان سليم قد انحاز الى الشاه مستصرخا اياه لحمايته فضمه الى جيشه الذى أعده لمناوأة سليم .

وكان سليم يخشى الرعايا الاتراك الشيعيين الذين كانوا يميلون الى متعصبي الصوفيين فقبض على عدد كبير منهم وخصوصاً من زعمائهم وعائلاتهم وقتلهم ، فانتهز اسماعيل هذه الفرصة واتخذها حجة لشن الغارة على سليم ولكن سليم سبقه وهاجم مدنه وقراه . وتقابل الجيشان فى موقعة فاصلة بقرب تبريز انهزم فيها اسماعيل وشيعته

رغم ما أبدوه من البسالة الهائلة ورغم اشتراك نسائهم معهم فى المعركة والقتال، فقد تتبعت فرسان الاتراك بمدافعهم فلول جيش اسماعيل حتى أفنوا أهم جزء فيه أما سليم وجيشه فقد أعوزته الميرة أثناء هذه المطاردة فعاد ليقضى الشتاء فى أماسية وفى الربيع الذى تلاه عاد واستانف القتال وأراد أولا ان يشق له طريقا مأمونا الى بلاده فهاجم صاحب « ذى الغادر » الذى كان حائلا بينه وبين بلاده والذى لازم الحياد طول مدة الحرب لتبعيته لمصر حليفة اسماعيل ، وقبض عليه وقتله وأرسل رأسه فى درج مع رسالة تنبأ بفوزه الى الغورى . وعندما اطمأن من هذه الوجهة هاجم الشاه مرة أخرى واستولى على عدة قلاع وحصون ومدن أهمها « ديار بكر » و « الرها » و « نصيبين » وأخضع « الجزيرة » و « الموصل»

وعندئذ أصبح سليم فى مأمن من مخاوفه من الشاه والشيعة فتفرغ للايقاع بالمصريين وليعدله امبراطورية هائلة بالاستيلاء على مصر وأملاكها . فاستعد لذلك بان جند جنداً كثيفاً وجهزه بجميع المعدات فى ربيع عام ١٦٥١ ، ولم يعلن غرضه من تجهيز هذا الجيش حتى لاتلتفت مصر لهذه الاستعدادات الهائلة بل أعلن السفير المصرى ان هذا الجيش أعد للقضاء على بقية جيش الشاه . وكان ذلك غفلة من الغورى ان ينتظر حتى ذلك الوقت بدون أن يدخل الحرب ضد سليم لان بوادر العداء كانت متوفرة وكانت العلاقات بينهما مقطوعة ذلك لان أخا آخر لسليم ثار عليـــه والتجأ الى مصر فاجاره الغورى واستقبله استقبالا فخما ، ثم بعد وفاة الامير احمد المتقدم الذكر أمد المماليك ابنه الصغير وحاشيته بالجند والميرة لقتال سليم ، والانكى من ذلك امتناع الامراء التابعين لحكم مصر من امداد جيش سليم بالميرة أو المؤونة أثناء قتاله مع الشاه ، بل فعلوا أكثر من ذلك اذ استولوا على الوارد منها من تركيا الى الجيش المحارب قبل وصولها الى يدى سليم أضف ذلك الى المعاهدة التى أبرمت بين الغورى واسماعيل التى تقتضى كلا منهما ان يعاون الآخر فى حروبه وغزواته ، ولكن الغورى أضاع الفرصة لانه لو ساعد الشاه بجنده وجيشه لكان خيراً له ولمصر ولجاءت النتيجة على غير ماانتهت عليه ، ولكن الغورى السنى المذهب رفض ان يحارب سنياً آخر ضد شيعى يكره العالم الاسلامى كله مذهبه ويمقته . . . وبذا أضاع

الغورى ، الذى أصبح غير قادر على القتال لتفرق المماليك من حوله ولكبر سنه ،
استقلال مصر

***

علم الغورى بمقدار الخطر المحدق بعرشه بعد ان اضاع الفرصة بتأخره فاخذ فى الاستعداد لملاقاة عدوه اللدود فاهتم فى شتاء عام ١٥١٥ فى أعداد جيش مصرى قوى قصد أن يسير به الى آسيا الصغرى وعند ماوصلت إلى مسامع سليم الانباء عن قوة وعظمة الجيش الذى أعده الغورى له اراد ان يخدعه وان يفوز عليه بالحيلة فارسل لهوفداً وصل الى مصرعند ما كان الجيش على وشك مبارحتها ، يعد الغورى باعادة أواصر المودة والمصافاة بين البلدين وان يتنازل عن مطالبه فى امارة « ذى الغادر » وان يترك التجارة حرة وان يسمح بمرورها من حدوده كما كانت من قبل

وقد قبل الغورى هذه المطالب ولكنه رغم ذلك أراد ان يكون على استعداد للطوارىء فخرج بجيشه إلى الشام فى صيف عام ١٥١٦ وقد جمع هذا الجيش أكثر من فى مصر من رجال القوة الحربية والادبية نخص بالذكر منهم الخليفة العباسى وقضاة المذاهب الاربعة ، ورؤساء مشايخ الطرق الصوفية ، والعلماء وكبار الاعيان والمهرجين والمغنين والمضحكين والعمال والصناع وغير ذلك ، واستعد الغورى بان جهز الاسكندرية بحامية قوية خوف مهاجمة الاسطول العثمانى لها ، وحصن قلاع مدن السواحل كلها ووضع فى الاسكندرية وحدها ٢٠٠ مدفعا ، وخرج من القاهرة بعد ان أخلف على عرشه فى مصر ابن أخيه الدوادار الكبير « طومان باى » فى موكب حافل تتقدمه الطبول والزمور وتدق أمامه الكؤوس وترقص على أصواتها الراقصات ومر الجيش حتى خارج المدينة على البسط المفروشة والورد المنثور بين تهليل العامة وافراحهم

أما الجيش العثمانى فقد خرج من القسطنطينية يتقدمه سليم على رأس جيش عدده ١٥٠ ألف مقاتل أشداء مدربين على القتال وخصوصاً الفرسان الذين اشتهر أمرهم فى ذلك العصر مجهزين بالبنادق والمكاحل أى المدافع وكان جيش

الغورى (١) خمسة عشر أميراً وكل أمير يتبعه ألف رجل عدا كثير من أمراء الفئات الصغيرة ، وخمسة آلاف مملوك من مماليك السلطان الخاصة وقد انضم الى الجيش فى سوريا عدد كبير من البدو والسوريين ، وأما حامية مصر التى تركها الغورى فيها فكانت مكونة من الفين من مماليكه الخاصة

وقد استصحب الغورى فى حملته هذه ابن احمد السالف الذكر المطالب بالعرش التركى ليستميل بواسطته مريديه فى الجيش العثمانى ، وبهذا الموكب الفخم ، دخل الغورى جميع المدن السورية بابهة زا° ة فاقت الحد فى دمشق التى دخلها على مهر اصيل ماراً على بسط مفروشة طول الطريق حتى وصل الى القلعة التى نزل فيها ، وفى أثناء سيره نثر التجار الاجانب العملة الفضية على موكبه . كما يقرر ذلك السير وليم موير

ومكث السلطان أياما فى دمشق وغادرها الى حلب وفى أثناء سيره وصل الى معسكره وفد تركى آخر غير ذلك الذى توجه الى مصر وعلى رأسه قاضى « عسكر النورم ايلى » ولم تكن مقاصد سليم من جميع هذه الوفود الا التغرير بالغورى حتى يبطش به فجأة ، وكان هذا الوفد محملا بالهدايا الفاخرة ، والهبات الغالية للسلطان وللخليفة ولكبير الوزراء ولقاضى القضاة وغيرهم من كبار رجال المماليك . ولما أراد الوفد العودة اشار الى انه يطلب شيئاً من السكر المصرى والحلوى الدمشقية وصرح الوفد بأن خروج سليم بجيشه لايقصد منه باى حال من الأحوال مهاجمة مصر ولكن لتأديب اسماعيل الذى أصدر علماء الاستانة فتاوى شرعية توجب قتله وتبديد جيوشه . فاغتر الغورى بهذه الأقوال وأرسل وزيره « مقلة بك » على رأس وفد مصرى ومعه الهدايا المطلوبة الى معسكر سليم وقد عرض هذا الوفد المصرى على سليم توسطه فى الصلح بينه وبين الشاه فغضب سليم وهم بقتل الرسول وذلك لان استعداداته كانت قد كملت فاراد ان يميطا للثام

---

١ ـ كان الجيش المصرى يتكون فى الاحوال العادية من ٢٦ أميرا وكل أمير يتبعه الف مملوك ، عدا مماليك أمراء المائة وأمراء العشرة وقد اشترى الغورى ثلاثة عشر الفا من المماليك أحد منهم الى القتال خمسة آلاف

عن اغراضه السلبية التى يتظاهر بعكسها فتشفع احد امراء الاتراك فى مقلة بك فاطلقه مهانا مشعثاً مقصوص الشعر ، محلوق اللحية ، راكباً حيواناً أعرج بشعاً ، وبقيةالوفديتبعوه مشاة وقال له : « قل لاستاذك ان اسماعيل الصفوى خارجي وانت مثله ،واسابدأ بك قبله ، وموعدنا « مرج دابق » واد على بعد يوم شمالى حلب

ولم يكتف الاتراك فى محاولة خدعة الغورى بذلك فقط بل حاولوا ذلك عن طريق آخر باغراء « خيربك » « وجان بردى الغزالى » والاول حاكم حلب ، على خيانة الغورى ورغم ان اخبار خيانتهما قد وصلت آذان الغورى فانه رفض أن يقتص منهما قبل أن يثق بصحة هذه الاشاعات ، وقد استقبل « خيربك » فى حلب السلطان استقبالا فخما ليخفى تحت وجاهة هـذا الاستقبال خيانته المزمعة لولى نعمته . وعندما وصل مقلة بك الى المعسكر المصرى وأنبأهم بموقف سليم وسرعة تقدم جنده ثار الأهالى السوريون على حكم المماليك لما أتاه الجند من الفظائع فى جميع القرى والبلاد التى نزلوا فيها فأصبح موقف الغورى اذ ذاك سيئا للغاية ولـكنه رغم ذلك أقدم على الحرب فاستحلف الامراء وكبار العلماء والقضاة والمماليك الخاصة على الطاعة من جديد ووزع عليهم الهدايا . فانقسم اذ ذاك المماليك فريقين فريق راض وهو المماليك السلطانية الذين نالوا فضلا عن مرتباتهم الهبات وفريق ساخط وهم المماليك الذين لم تصل اليهم هبات الغورى وصلاته . ولـكنهم رغم ذلك لم يقدموا على خيانته ثم أسر له حاكم دمشق مرة أخرى عن خيانة « خيربك » ووافق مماليك البلدة على قتله وعندئذ صمم الغورى على قتله قبل الموقعة ولـكن « جان بردى الغزالى » الخائن الثانى تدخل لمصلحة زميله ودافع عنه وأظهر ان قتله فى هذا الموقف العصيب يشعل فتنة فى ميدان القتال فرجع الغورى عن عزمه وكان ذلك من أكبر غلطاته مع أنه قتل بعض الامراء الذين اضطروا الى خدمة السلطان سليم أثناء وجودهم أسرى فى حوزته . ولما سنحت لهم الفرصة فروا الى حظيرته مرة أخرى ولم تشفع لهم هـذه الظروف فقتلوا

انتهت الاستعدادات الحربية يوم ١٩ اغسطس وتقدم الجيش فى ٢٠ منه الى

« مرج دابق » وعسكر فيه وكان الجيش المصرى مكونا من ٣٠ ألف مقاتل ، وخلف الغورى بقية جيشه مع أمواله وذخائره فى قلعة حلب الحصينة . انتظر الجيش المصرى فى السهل وصول العدو ، وهناك كان سيقرر مصير الامبراطورية المصرية . وفى يوم (الاحد ٢٤ أغسطس ١٥١٦) أو ٢٥ رجب سنة ٩٢٢ هـ) دهم العثمانيون المماليك بجيش يربى على الجيش المصرى باضعاف فعبأ الغورى كتائبه وكان من غلطاته الكبرى أنه اثر مماليكه الخواص فاراد ان ينجيهم من هول ذلك اليوم بتأخيرهم عن الصفوف الاولى ، وقصر فى استجلاب مودة المماليك القدماء من عتقاء السلاطين والامراء ففسدت نياتهم وانضم ذلك إلى خيانة « خيربك » وجان بردى الغزالى » فعند ماالتحم الجيشان حملت الميمنة والقلب حملة موفقة أزالت بها الاتراك عن موقفهم وأوقعت بهم خسائر جمة واستولت على مواقعهم وذخائرهم ويئس سليم من النصر وكاد يهرب لولا أن انهزم خيربك بالجزء الذى يقوده من الجيش وفسحوا الطريق أمام فرسان الاتراك لينقضوا على الجيش المصرى من ظهره وكان خيربك يقود « الميسرة » وتبعه فى الخيانة زميله جان بردى الغزالى بجزء آخر من الجيش وبذا اختل نظام الجيش المصرى واستعمل الاتراك اذ ذاك مدفعية جيشهم التى لم يكونوا قد بدأوا باستعمالها قبل ذلك فحصدت أفواجا جمة

وعند ذلك اعتصم الغورى بربوة ومعه مماليكه الخاصة الذين لم يكونوا قد اشتركوا فى المعركة بعد ففقد المماليك القدماء همتهم وضاعت قوتهم المعنوية وتخاذلوا عندما رأوا الموت يحصدهم بينما غيرهم فى نهاية الصفوف بعيداً عن القتال فركنوا الى الفرار تاركين الحرب للغورى ومماليكه . وعندئذ تقدم بجنده الخاص وأرسل يستسمح المماليك ويدعوهم لاستئناف القتال فلم يلتفتوا له ففلج لساعته وسقط عن جواده وتابع الهاربون سيرهم الى دمشق لان أبواب حامية حلب أغلقت فى وجههم . أغلقها أهل المدينة . وانحاز الخليفة وكبار العلماء الى سليم ، وقتل الغورى فى هذه المعركة وحمل رأسه الى الفاتح . وتختلف الروايات فى مقتل الغورى فيقول بعض المؤرخين أنه هلك تحت أرجل وسنابك الخيل أثناء المرقعة ويدعى غيرهم انه وجد حياً فى الميدان فقطع رأسه أحد ؛الركـ منـا لوقوعه فى يد العدو ، ورواية

أخرى تركية تقول ان الذى قطع رأسه تركى فاراد سليم ان يقتله ولكنه عاد فعفا عنه ، وقد قرأت لكثير من المؤرخين الذين ينكرون بتاتاً أشاعة العثور على جثة الغورى بل يؤكدون ضياعها فى غيرها من جثث القتلى . وانتظر أهل حلب قدوم السلطان سليم فسلموه المدينة واستولى على قلعتها بدون قتال وغنم منها الألوف من الأموال والذخائر التى تركها الغورى فيها وخطب باسمه فى مسجدها وانضم اليه خيربك وغيره من خونة المماليك وحلقوا لحاهم وتزيوا بزى الاتراك . ثم ذهب سليم الى دمشق فى ١٦ أكتوبر فاستولى عليها ودانت له جميع مدن الشام بلا منازع ومكث بها مدة ثلاثة أشهر يرتب نظامها ويحكم أمورها .

وقد أكرم سليم مثوى الخليفة العباسى واحتفى به حفاوة هائلة وأجلسه على يمينه فى مجلسه ولكنه وبخ القضاة (لم يفر منهم الا القضاة الحنفية) لعدم امكانهم وقف فوضى المماليك التى ضج منها السوريون حتى أنهم انتظروا قدوم الاتراك بفرح لانقاذهم من مظالم المماليك ، وكان سليم فخوراً بنفسه جداً متعجرفا فاراد فى قلعة حلب ان يظهر احتقاره للمصريين فارسل جنديا أعرج أمامه يطلب تسليم قلعة حلب التى لم يبق أحد بداخلها يحميها ففتحت له الابواب فى الحال وقد وجد فى هذه القلعة من النفائس مايقدره بعض المؤرخين بمبلغ (مائة مليون قطعة ذهبية) وفى أواسط شهر ديسمبر من تلك السنة عادت فلول الجيش المنهزم من المصريين الى البلاد وهم فى حالة يرثى لها واستمر قدومهم طول الشهر الذى تلاه . وبذا تم اجتماع أكثر زعماء المماليك مرة أخرى فى الديار المصرية ومن هؤلاء الذين عادوا جان بردى الغزالى الخائن الذى مر ذكره والذى عاد لمصر ليكون جاسوساً للاتراك وصنيعة لهم فى مصر فقد سقطت فى أيدى الاتراك « طرابلس » و « صفد » وغيرها من المعاقل السورية ، وفى أول ديسمبر خرجت حملة من مصر بقيادة « جان بردى » لتنقذ غزة من العثمانيين ، ولكن هذا المجرم عمل على اضعاف قوته ليسهل سقوطه أمام الغزاة ، ففرق جنده فى طول البلاد وقابل الاتراك بقوة صغيرة ردته على أعقابه قبل وصوله لغزة

أجمع الامراء الذين وصلوا مصر كما أسلفنا من الشام مع غيرهم من الزعماء المصريين على تنصيب طومان باى سلطانا على الديار المصرية خلفا للغورى فى ١٧

اكتوبر سنة ١٥١٦ م وفى عهده خرجت حملة الغزالى لانقاذ غزة وتلك كانت أولى محاولاته فى الدفاع وكانت خيانة الغزالى له وانهزامه المريع وتشتت جيشه ضربة قاضية على محاولاته الخائبة ، فبعد سقوط هذه المدينة التى تعتبر مفتاح مصر من الشمال ، وصل لمصر وفد عثمانى ، يطلب من طومان باى ان يعترف بان تكون السكة المضروبة باسم سليم ، وأن يذكر اسمه بالدعاء فى الخطبة ، وأرسل مع وفده خطابا يقول فيه مخاطباً طومان باى « افعل هذا تسلم مصر ، فان رفضت فساغزو بلادك وأزيلك أنت ومماليكك للابد من الارض » وكان طومان يعلم بتخاذل وضعف قواهم وكان يميل جدا الى قبول هذه لمطالب الا ان المماليك ثاروا فاضطر لمجاراتهم فذبح رجال الوفد عن بكرة أبيهم .

وقد لاقى طومان صعوبات جمة فى تأليف جيش جديد يقابل به الاتراك الزاحفين وتخاذل عنه المماليك وكان من رأيه هو ان يخرج الجيش ليقابل الاتراك فى الصالحية على حدود مديرية الشرقية بعد ان يكون قد انهكهم قطع الصحراء الشاسعة فرفض امراء المماليك ذلك . بل اضطروه للانتظار فى الريدانية (وهى خارج مدينة القاهرة من الشرق والمعروفة الآن بجهة العباسية) ولم يكد المصريون يتمون استعدادتهم الدفاعية فى هذه الجهة حتى دهمهم الاتراك فى ٢٢ يناير ١٥١٦ (٢٩ ذى الحجة سنة ٩٢٢ هـ) وقد ظن طومان ان الجيش التركى يقابله وجها لوجه فعبأ جنده كله فى القلب،ولكن الاتراك كانوا أكثر فطنة ومعرفة لشئون الحرب فما كادت الموقعة إن تنشب حتى انقسم الجيش الى أقسام ثلاثة ، فاستمر قلب الجيش فى مقاتلة طومان باى وشيعته وسارت فرقة ثانية تحت الجبل الأحمر والمقطم وأحاطت بالمحاربين من اليمين والخلف ، وسارت الفرقة الثالثة الى بولاق وأحاطت بالجيش من الشمال ، وقد قاتل المماليك وطومان باى قتال المستميت فى هذه الموقعة . فقد قذف بنفسه مع مماليكه الخواص الى وسط المعمعة ، وكاد ان يبلغ خيمة السلطان سليم ، ولكن المصريين فى تلك الساعة بوغتوا من الخلف كما أوضحنا ذلك فتقهقر سليم وجيشه تاركين أماكنهم للعدو وفر طومان وجماعته إلى الجيزة . وعندئذ دخل الاتراك القاهرة بدون مقاومة تذكر ونزل السلطان سليم بمعسكره الخاص على ساحل بولاق والجزيرة الوسطى (هى الجزيرة

التى امام قصر النيل) واما هو فلم يدخل المدينة فى ذلك اليوم ولا الذى تلاه ، بل دخلها وزيره ، محاولا ان يمنع الجنود من تخريب المدينة ، وأما الخليفة العباسى الذى جاء فى بطانة سليم (هو الذى كان مع الغورى فى غزوته) فقد أقام الصلاة فى القاهرة ودعا فى خطبته للسلطان سليم الذى لقبه بملك البحرين والبرين وهازم الجيشين ، وملك العراقين ، وحامى حمى الحرمين المولى الاعظم « سليم شاه » وطاب له العز فقال : « وآته اللهم معونتك ونصرك ياالله الدنيا والآخرة يامن له ملكوت السماء والأرض » (كما أورده بنصه ابن اياس) واستولى الاتراك فى ذلك اليوم على القلعة ، وذبحوا حاميتها من المماليك الجركس .

بقيت الحالة هادئة حتى كانت ليلة الأربعاء ١٥ محرم سنة ٩٢٣ هـ إذ تسلل المماليك بقيادة طومان باى الى الجيزة وهناك جمعوا جموعهم بعد ان أثاروا أهالى بولاق وكثير من دهماء المدينة وغوغائها وهاجموا معسكر سليم مهاجمة عنيفة كادت ان تقضى على جيشه قضاء نهائيا فما كان الفجر حتى كان نصف جيش سليم قد هلك نهائيا وجاء للمماليك مدد بقيادة الامير علان من جهة الناصرية وبذا تمكن المماليك من الاستيلاء على أكثر المدينة مرة أخرى بعد ان قتلوا جمعا غفيرا من الاتراك فى شوارع وأزقة القاهرة . وتنبه حينئذ سليم لحرج مركزه وجمع جموعه المتفرقة وهجم على المصريين هجمة موفقة أجلاهم بها عن حى بولاق حتى السيدة زينب وتحصن المماليك بحى الصليبة وأقاموا حوله المتاريس والخنادق استعداداً للمقاومة وفى يوم الجمعة التالى خطب للسلطان طومان ولسلطان المماليك لآخر مرة فى التاريخ فى جامع شيخون وغيره (٧ محرم سنة ٩٢٣ هـ)

وحاصر الاتراك حى الصليبة محاصرة مميتة ، واشتد الامر على المماليك فتخاذلوا مرة أخرى وتسللوا عن السلطان وتركوه يقاتل وحده مع عبيده ومماليكه الخواص . ولما علم ان القتال لايجدى نفعاً ، فر الى بركة الجيش (١) ومن هناك عبر النيل الى الجيزة ، وبذا استولى الاتراك مرة أخرى على المدينة ، وزار سليم القلعة بعد ذلك بعشرة أيام واستحوز على مافيها من النفائس والذخائر .

ولما طابت نفس سليم الى هذا النصر ، رفع راية بيضاء حمراء اشارة الى العفو عن المصريين دون المماليك ، الذين أمر باقتفاء آثارهم وابادتهم عن بكرة أبيهم

ـ ١ ـ الساحل القبلى لمصر القديمة بينها وبين معادى الخبيرى

وبهذه الطريقة قتل خلق كبير منهم وعفى عن كثير من أعيان المصريين بعد ان تشفع فيهم الخليفة . ثم أصدر أمراً بالعفو أيضاً عن المماليك الذين يستسلمون فى بحر أسبوع فظهر كثير منهم وسلموا أنفسهم فوزعوا على غرف القلعة ولم يستقبل أحداً منهم بالاكرام غير « جان بردى الغزالى » الذى أكرم استقباله لشجاعته ولما أبداه من البسالة فى مقاتلة الاتراك فى واقعة « الريدانية » (١) ؟ وعينه أميراً على فرقة لمقاتلة البدو ، وانتقل سليم بعد ذلك الى سكنى القلعة بعد ان رممها وحصنها وجعل فيها طائفة من الجند لرد الهجوم عنها .

وأثناء اشتغال السلطان سليم باصلاح حال ملكه الجديد تقوى طومان باى بانضمام العربان والبدو له وقدوم المماليك من كل فوج واتحادهم لمهاجمة سليم وقد تمكن هؤلاء من محاصرة الاتراك فى العاصمة ومنعوا ورود المدد والميرة اليهم من جميع أنحاء القطر وفى ذلك الوقت شعر سليم بخطورة مركزه فى مصر ومل هذا النزاع والحروب المستمرة فارسل وفداً مكونا من الخليفة (٢) وأربعة من القضاة مع مندوب تركى للاتفاق مع المماليك على شروط الصلح ، وقد فرح طومان فرحا لايوصف بهذه الفرصة المناسبة لانهاء الحرب وكاد ان يوافق على شروط الاتراك التى أهمها الاعتراف بسيادة الباب العالى ، ودفع خراج سنوى والدعاء للسلطان التركى فى الخطبة وسك العملة باسمه وقبل سليم فى مقابل ذلك إن يجلو بجنوده عن الديار المصرية .

وقد أظهر زعماء المماليك مرة أخرى غباوة متناهية فى رفض هذه الشروط وأقدموا على عمل جنونى بقتل جميع أعضاء الوفد لعدم ثقتهم بوعود سليم الذى اقتص منهم قصاصاً هائلا فذبح جميع أمراء المماليك الذين استسلموا له وعددهم سبعة وخمسون أميراً .

لما يبق امام طومان باى بعد هذه الحوادث الا ان يتقدم لنزال الاتراك . فجمع جموعه فى البهنسا وتقدم بهم حتى وصل الجيزة وأراد سليم أيضاً ان ينهى هذه الحرب القائمة التى سئم نزاعها فارسل ثانية أحد الامراء الاتراك إلى طومان فى الجيزة لعله يوفق إلى شروط لانهاء الحرب ، ولكن ذلك الامير لم يصل الى

---

(١) السبب الحقيقى لاكرام السلطان سليم « لجان بردى » هو خيانته للمصريين ومساعدته للاتراك مرتين فى القتال

(٢) خاف الخليفة من ذهابه للمماليك فارسل نائبا عنه

مقابلة طومان باى بل رد من الطريق مثقلا بالجراح هو ورجاله (١) وعندئذ صمم سليم على مهاجمته فاضطر لبناء قنطرة من السفن فى عرض النيل ليصل بها إلى الجيزة وكانت جنود الاتراك مرابطين بقرب الهرم فى جهة « وردان » وهناك التقى الجيشان واقتتلا قتال اليأس فهزم الاتراك أولا الا ان نيران مدافعهم مزقت فرسان المماليك الذين كانوا عماد الجيش ، وبذا كانت هذه الموقعة الخامسة التى انتصر فيها الاتراك هى ختام المواقع الحربية التى دافع بها المماليك المصريين عن امبراطوريتهم ، التى ضاعت وقضى عليها إلى الابد منذ ذلك اليوم (الخميس ١٠ ربيع الاول سنة ٩٢٣ م — مارس سنة ١٥١٧ هـ) فر طومان بعد هذا الفشل إلى أحد مشايخ بدو الشرقية (حسن بن مرعى) (٢) الذى كانت له عليه أياد بيضاء ولكن ذلك العربى الخائن أسلم ولى نعمته لاعدائه فقبض عليه السلطان سليم ، فحملوه فى الاصفاد الى المعسكر ، وبقى السلطان البائس فى معسكر سليم أياما علم منها فى خلالها جميع مايريد معرفته من شئون البلاد وكانت نية سليم ترمى الى عدم قتل طومان اعجاباً بما أبداه من الشجاعة ولكن خونة المماليك أمثال « خيربك » ، « وجان بردى » ألحا على سليم فى قتله فاستمع لكلامهما وأصدر أمره يوم الاثنين (٢١ ربيع الاول سنة ٩٢٣ هـ - ١٥ ابريل سنة ١٥١٧ م) بأن يعاد طومان باى الى القاهرة فدخلوا به وهو بزى أعرابى من جهة شارع أمير الجيوش إلى البرقوقية ، حتى اذا صار تحت باب زويلة أنزل من على فرسه وشنق (٣) وبقى معلقاً على باب المدينة ثلاثة أيام أما السلطان سليم (٤) فقد بقى فى مصر بعد الفتح ثمانية شهور نظم فيها شئون مصر كما أراد ثم عاد إلى القسطنطينية وهناك بايعه الخليفة وبذا انتقلت الخلافة نهائيا من مصر الى القسطنطينية وبقيت مع الاتراك حتى أزالها مصطفى كمال بانهاء دولة العثمانيين من تركيا سنة ١٩٢١ م

١ - هذه الحادثة مشكوك فى صحتها التاريخية لان ابن اياس وهو مؤرخ هذه الفترة لم يذكرها فى تاريخه

٢ - شنق طومان وله من العمر ٤٤ سنة ودفن خلف مدرسة الغورى ولم يشنق ممن حكم مصر من الخلفاء والسلاطين سلطان غيره .

٣ - كافأ الاتراك حسن بن مرعى لخيانته ولكنه قتل بعد ذلك بيد المماليك الذين ذبحوه وشربوا دمه

٤ - ولد مقتل طومان باى المحزن شعوراً غريباً عند المماليك حتى حاول أحد الامراء وطائفة من أتباعه المخلصين ذبح سليم غيلة فى الليل ، غير ان المؤامرة اكتشفت فى نهاية الامر ولولا ذلك لعاد الامر إلى المماليك مرة أخرى .

علاقة المماليك بالبندقية والبرتغال

—١١—

إن علاقة مصر بالبندقية والبرتغال لم تكن إلا علاقة اقتصادية صرفة ونحن يمكننا ان نقول ان هذا الفصل هو بيان لحالة مصر الاقتصادية فى عصر المماليك ولمصدر تلك الأموال التى تمكن المماليك بها من حفظ دولتهم ، وإقامة مبانيهم الهائلة الفخمة ، ونشر نفوذهم فى الشرق كله وتمكنوا بها من القيـــام بحروبهم الطويلة

معروف لدينا ان المماليك كانوا أصحاب النفوذ المطلق فى مصر وسوريا ولذا وقعت فى قبضتهم ، جميع الموانى وطرق القوافل التى توصل الى أوربا متاجر البلاد الهندية ، وغيرها من بلاد الشرق الأقصى ، وبذلك تمكنوا من فرض الضرائب التى يريدونها على كل كمية من البضاعة الهندية التى تمر من طريق البحر الأحمر الى القاهرة ، ثم الى الاسكندرية وكذلك من طريق الخليج الفارسى الى البصرة ، وطريق القوافل منها فميناء اسكندرونة . وقد كان لمرور التجارة الهندية من هذين الطريقين أكبر أثر فى ترويج تجارة البحر الابيض المتوسط . وعظمت بسببها ثروة الدولتين اللتين اشتهرتا بالملاحة فيه وهما « جنوة » و « البندقيـــة» ولاسيما الأخيرة ، فان تجارها نالوا لدى المماليك حظوة عظيمة وصلت بهم فى آخر الامر الى احتكار نقل هذه التجارة الكبيرة

وقد ذكر المستر كامرون فى كتابه عن تاريخ مصر أمثلة عدة على عظم مقدار المكوس التى كان يجنيها المماليك على التجارة الهندية التى درت عليهم الخير والمال الوفير وكان للبنادقة حظ هائل من هذه الأرباح لتحكمهم فى هذه التجارة ، فقد كان التاجر البندقى يشترى البضاعة من مصر بمقدار . . . و ٣٥ جنيها فيبيعها فى أوربا

بما لا يقل عن ٠٠٠و٧٠ جنيه فاشتعل الحسد فى الممالك الأوربية الأخرى من هذه الارباح العظيمة التى لا ينقطع تدفقها فى جيوب البنادقة والمصريين بسبب احتكار التجارة الهندية ، فدفعهم ذلك الى التفكير فى الاهتداء الى طريق أخرى توصل الى الهند حتى ينالهم شطر من أرباح تلك التجارة الضخمة ، وساعد على أثارة هذه الهمة قيام النهضة العلمية التى بدأت فى أوربا بعد فتح القسطنطينية وولدت فى تلك البلاد روح الاستطلاع والاستكشاف

وأول من فكر من الاوربيين فى البحث عن طريق آخر الى الهند هم « البرتغال » وهم أمة تسكن الجزء الغربى من شبه جزيرة الاندلس : كانوا احدى الامارات التى استولى عليها العرب ، وانسلخوا عن حكمهم قبل جلائهم عن تلك البلاد بقرنين تقريبا ، ومن ذلك الحين أخذوا يدافعون عن استقلالهم من غارات مملكة (قشتاله) كستيل المجاورة لهم ، حتى أمنوا شرها بانتصارهم عليها فى موقعة «الجبروتا سنة ١٣٨٥ م (٧٨٧هـ) (راجع تاريخ مصر جزء ٢ صفحة ٧٥)

وقد قام هؤلاء البرتغاليون بفتح باب الاسكشاف بواسطة الامير هنرى الملاح الذى عاضد الملاحة بما له من النفوذ وشرع فى ارسال بعوثه عام (١٤١٨ م) « ٨٢١ هـ » ومات الامير هنرى ولم يصل ملاحوه بعد إلى الهند وتابع خلفاؤه إرسال البعوث حتى اذ كانت سنة (١٤٩٦ م) « ٩٠١ هـ » ارسل الملك امانويل بعثا لهذا الغرض برياسة الملاح العظيم « فاسكو دى جاما » الذى تمكن من عبور رأس الرجاء الصالح ووصل ببعثته إلى شواطىء افريقية الشرقية وكانت كلها مسكونة بالعرب الذين علموا مقدار الخطر المحيق بتجارتهم من هذا المنافس فرفضوا اعطاءه اى معلومات أو مؤن . وبذا خابت مساعيه فى « مزمبيق وكلوة ومنبسة » ولكنه فاز اخيرا فى « ملندة » حيث أخذ معه أحد البحارة الهنود واخذ مايلزمه من المؤن والذخائر واقلع فوصل قاليوطا على الشاطىء الغربى للهند وتمكن بدهائه من استمالة الزامرين او سامرى « ملك البحار » أمير قاليوطا ورغبة فى تبادل التجارة مع البرتغاليين عقد معه محالفة تجارية كانت بعد ذلك سببا فى زوال ملكه وتجارة مصر .

وبذلك تم للبرتغاليين كشف طريق جديد للهند فكانت فاتحة لانقلاب عظيم

فى تجارة العالم باسره إذ ان نقل البضائع صار ينفق عليه الآن ثلث ماكان ينفق بالطريقة القديمة ، فوق متاعبها وطولها فكانت النتيجة إن تحول مجرى هذه التجارة العظيمة من الشام ومصر والبحر الابيض المتوسط الى المحيط الأطلنطى حول شواطىء أفريقيا

وفى تلك الأثناء كان الاتراك يتقدمون فى أوربا فاستولوا على أملاك دولة البندقية وأضروا بها اضراراً بليغة ، وتلك كانت من أكبر غلطاتهم فانه كان خيرا لهم لو أبقوا على دولة البنادقة وبدلا من توسعهم فى الفتح فى أوربا تلك البلاد التى كلفتهم كثيراً ولم تبق فى يدهم طويلا ، كان أفضل لهم استيلائهم على البلاد الهندية والشواطىء الافريقية لمنع التجارة من التسرب الى أوربا إلا عن طريقهم ويرى الباحث من هذا أن سوء سياسة الدولة العثمانية كانت سبباً فى مصلحة مصر وثروتها

ولم يكتف البرتغاليون بهذه المعاهدة التجارية ، بل ان فاسكو نفسه حصل على ملاحين من ساحل « زنجبار » وهاجم الاساطيل التى كانت تحمل المتاجر والحجاج من الهند الى البحر الأحمر ، وأوقع الرعب فى قلوب حكام تلك الجهات ، وهنا طلب أمراء « جوزرات » واليمن المساعدة من مصر فجهز السلطان اسطولا عدد وحداته خمسون ، بقيادة أمير البحر « حسين الكردى » وقد سخر الناس فى تحصين جدة لتكون ملجأ من البرتغاليين ولكن بقيت الاساطيل التى كانت فى المحيط تحت رحمة العدو ، وقد وقعت معارك مختلفة ، سنتى ١٥٠٣ م ١٥٠٤ م أخذت فى احداها سفينة مصرية تخص قانصوه سلطان مصر كما أخذوا فى العام التالى اسطولا مكونا من سبع عشرة سفينة مصرية بعد معركة هائلة واستولوا على حمولتها وذبحوا التجار والحجاج وأحرقوا السفن ، وقد استاء السلطان وغضب لمهاجمتهم البحر الاحمر وضياع المتاجر والضرائب ولتعرض مكة للمهاجمة وفوق كل ذلك لما أصاب سفينه الخاص فعزم عزما أكيداً على الانتقام ولكنه فى بداءة الأمر هدد البابا بواسطة رئيس كنيسة بيت المقدس بأنه اذا لم يقف ملك البرتغال عن اعتدائه على البحار الهندية فانه يدمر كل الأماكن المقدسة فى فلسطين . وأما

البرتغاليون فلم يهتموا لذلك بل أخذوا فى توسيع نفوذهم فى بلاد الهند ، غير مكتفين بالعلائق التجارية بل استولوا بالسيف والمدفع على امارة قاليقوطا وجعلوها فى عداد مستعمراتهم

وبذا أصبح الغورى أمام خطر داهم ، وكذلك أصبح سامرى أمير قاليقوطا الذى اتحد مع الغورى لصد هؤلاء الغزاة عن بلادهم ولم يعرف الخطر على حقيقته إلا البندقية التى كان معنى ذلك قضاءاً نهائياً على كيانها واستقلالها فساعدت الغورى وحرضته على ارسال حملة الى المياة الهندية ، وأرسلت للغورى الاخشاب اللازمة لبناء السفن فى البحر الأحمر ، وكانت هذه الاخشاب تنقل عن ظهور الجمال من الاسكندرية الى السويس ويتولى عمال مهرة من الفنيين انشاء السفن وقد نشر المستر كرون فى كتابه المشار اليه سابقاً فصلا نقله عن كتاب اسمه « تقرير عن المخطوطات القديمة لوزارة الهند » بقلم السر جورج بردوود وقد ذكر فى هذا التقرير أن الفنيين اشتركوا بجيوش فى الحملة المصرية البحرية وذكر أيضاً أن ذلك الاسطول المصرى سافر الى السويس والتقى بالاسطول البرتغالى على شواطىء بومباى وان الاسطول المصرى قهر البرتغالى وحطم سفنه ومات قائده واسمه « لورانزو المدا » وهو ابن حاكم الولايات البرتغالية فى الهند الغربية وأخذ الهنود يقاومون البرتغاليين مقاومة شديدة فخاف البرتغاليون العاقبة وجمعوا اسطولا جديداً قهروا به الاسطول المصرى الفينيسى فى شهر فبراير سنة ١٥٠٩ على مقربة من جزيرة (ديو — Dio) ولاشك ان هذه المعركة البحرية كانت من المعارك الفاصلة فى التاريخ ، اذ لواتيح للمصريين الفوز الاخير ، لقضى على الاستعمار الأوربى فى الهند الى زمن طويل ، ولبقيت مصر ، وتركيا تنعمان بثمار التجارة الهندية

وكانت نتيجة تحويل التجارة الاسيوية عن طريق مصر عظيمة فى ادارة البلاد ونظاماتها وثروتها . الى درجة أدت الى خراب مصر ، اذ بقى المماليك ، وبقى بذخهم ، وبقى تعودهم الترف والنعيم ، وقل الوارد من الخارج ، فتحولوا الى امتصاص دماء المصريين حتى أوصلوهم الى مايقرب من الفناء

وعظم نفوذ البرتغال فى الشرق ، فنى عام ١٥١٣ م أخذ « الفونسو البوكرك » عدن ، وحاقت المصائب بالجيوش المصرية فى اليمن ، وعند ذلك اعـــد قانصوه الغورى اسطولا جديداً لمعاقبة الاعداء ولحماية التجارة الهندية ، ولكن قبل أن تعلم نتيجة هذا الاستعداد فقدت مصر سيادتها سنه ١٥١٦ وصارت الحجاز والبحر الأحمر وبلاد العرب كلها الى أيدى العثمانيين ، وحوالى ذلك الوقت أيضاً استولى الاتراك على أهم مقاطعات البندقية ففقدت أهميتها التجارية ومنذ ذلك الحين كثر التلصص فى البحر الابيض ، فقضى على البقية الباقية من التجـارة التى كانت تمر فى هذا البحر

المماليك في حكم الاتراك

أو طبقـــة المماليك الثالثة

—١٢—

انتهى أمر المماليك الشراكسة بذبح الأمير طومان باى فاهتم السلطان سليم بتنظيم ملكه الجديد فى الديار المصرية والسورية، فبقى فى القاهرة ثمانية شهور يدبر تلك الامور وكان معسكره أول الفتح ببولاق والجزيرة الوسطى، ثم أقام بالقلعة نحو شهر ثم بمدينة الجيزة وامبابة قريبا من شهر ثم أقام بجزيرة الروضة والمقياس مدة، ثم توجه بجنده الى مدينة الاسكندرية فكانت مدة غيابه وايابه ١٥ يوما ثم رجع وأقام بجزيرة الروضـــة وبنى له بهابجانب المقياس فى طرف الجزيرة الجنوبى جوسقامن الخشب اقام فيه بقية المدة إلا زمنا يسيراً ببيت الاشرف قايتباى المطل على بركة الفيل

وفى اثناء اقامته بمصر سن لها بعض الانظمة الادارية ونقل الى القسطنطينية أكثر ما فى القلعة ومنازل الامراء والسلاطين والمساجد والزوايا والاربطة من النفائس والذخائر والـكتب حتى أعمدة الرخام ومركباته

وحمل من مصر الى القسطنطنية كل أبناء السلاطين وأكثر المقدمين والامراء والخليفة العباسى بعد مانزل له عن الخلافة وأكثر العلماء والقضاة وكل من له نفوذ وأمر بمصر

ثم أمر بجمع رؤساء الصناعات المشهورين باجادة العمل فيها من كل الطوائف فجمعوا منهم نحو الف صانع ونقلوهم الى الاستانة ليذيعوا الصناعات الدقيقة فيها فرجع بعضهم الى مصر بعد عهده وبقى آخرون . وقيل أنه بطل فى مصر من جزاء ذلك نحو خمسين صناعة فكان ذلك سبباً فى القضاء على الصناعة فى مصر

وباستيلاء السلطان سليم على مصر صارت البلاد جزءاً من الدولة العثمانية فتوالى ارسال الولاة الباشوات عليها من قبل الباب العالى . وكما أسلفنا وضع لها

السلطان نظاما لحكومة مكونة من ثلاث سلطات . وأما النفوذ الحقيق فقد بقى للماليك لأن السلطان سليم لم يقض عليهم ولو أراد ذلك لكان خيراً له وللبلاد ولـكنه أبقاهم على حكم الاقطاعات ليحفظ بهم التوازن بين قوى الولاة والشعب ثم سمح لهم بالبقاء على نظامهم القديم أى بالاستمرار على جلب المماليك وتدريبهم على فنون الحرب والقتال فظلوا واضعين أيديهم على مصر طوال الحكم العثمانى اذ أنه كلما كان يتقلص مجد الباب العالى من وقت لآخر كان كذلك يقل نفوذ ولاته فى مصر فيزيد نفوذ البكوات المماليك تبعاً لذلك . وبقى المماليك على عهد العثمانيين، كما كانوا من أجيال عدة طائفة منفصلة لاتختلط مع من يساكنونهم الديار (١)

ولم يزالوا يكثرون من عددهم بشراء مماليك جدد كانوا يفدون على مصر من الكرج وبلاد الجركس وما جاورها من البلدان ، وصار رؤساء المماليك يسمون باسم « شيخ البلد » وكانوا كثيراً مايتنازعون ويتقاتلون للحصول على هذا اللقب فيتلو ذلك هياج يعم البلاد جميعا ، وكان « الشيخ » اذ عاضده الامراء يستعمل أمره فينزل الباب العالى وواليه فى مصر على أرادته ، فكأنه هو الحاكم الفعلى للبلاد .

وأما النظام الذى وضعه السلطان سليم ليحفظ به مصر من أن يستأثر بها الوالى فقد اثبتت الأيام الحكمة فى وضعه فقد حاول الوالى الثالث ان يستقل بمصر عن الدولة العلية ولـكنه فشل . وأما هذا النظام فيقول عنـــه على باشا مبارك فى « خططه التوفيقية (٢) » ماخلاصته : « . . . لما أخذ السلطان سليم مصر ورأى غالب حكامها من المماليك الذين ورثوها عن سادتهم رأى أن بعد الولاية عن مركز الدولة ربما أوجب خروج حكمها عن الطاعة ، وتطلبه الاستقلال . فجعل حكومة مصر منقسمة الى ثلاثة أقسام وجعل فى كل قسم رئيساً ، وجعلهم جميعاً منقادين لكلمة واحدة وهى كلمة وزير الديوان الـكبير ، وجعله مركبا من الباشا الوالى من قبله ، ومن بكوات السبع وجاقات وجعل للباشا مزيه توصيل أوامر السلطان الى المجلس وحفظ البلاد ، وتوصيل الخراج الى القسطنطينية ، ومنع كل عضو من الاعضاء من العلو على صاحبه ، وجعل لأعضاء المجلس مزية نقض أوامر

---

١ - راجع تاريخ دولة المماليك فى مصر صفحة ١٩٤ ويجب ان اذكر هنا انى اكثرت فى عدة مواضع من الاستعانة بهذا المؤلف النفيس

٢ - راجع الجزء السابع

الباشا لأسباب تبدو لهم وعزله أن رأوا ذلك وجعل حكام المديريات الاربع والعشرين من المماليك وخصهم بمزية جمع الخراج . . . . الى أن قال . . . وبهذا الترتيب تمكنت الدولة العلية من أبقاء الديار المصرية تحت تصرفها نحو مائتى سنة ثم أهملت تلك القوانين ولم تلتفت الدولة لما كان يحصل من المماليك من الامور المخلة بالنظام فضعفت شوكة الدولة وهيبتها التى كان لها على مصر وأخذت البكوات تكثر من المماليك وتتقوى بها حتى فاقت بقوتها الدولة العثمانية فى الديار المصرية فآل الامر والنهى اليها فى الحكومة ، وصارت سلطة الدولة فى مصر صورية غير حقيقية

ولو كانت الدولة العلية تنبهت لهذا الامر ومنعت بيع الرقيق لكانت الامور باقية على ماوضعها السلطان ، ولكنها غفلت عن هذا الامر كما غفلت عن أمور كثيرة ، ومن ذلك لحق الاهالى الذل والاهانة وهاجر كثير منهم الى الديار الشامية والحجازية ، وغيرها وخربت البلاد وتعطلت الزراعة من قلة المزارعين وعدم الاعتناء بتطهير الجداول والخلجان التى عليها مدار الخصب وصار للبكوات الكلمة النافذة وانفردوا بالتصرف . . . . اه

كانت قوة العثمانيين فى الحقيقة مكونة من الوالى والمماليك والجيش وأما الجيش فكان مكونا من ست وجاقات (١) نصب عليهم قائد يقيم بالقلعة كان فيها أشبه بأسير من أسرى الحكومة مسلوبا من حريته الشخصية لأن السلطان حرم عليه الخروج من القلعة مهما كانت الاسباب

ولخوف الحكومة العثمانية من ولاتها ولرغبتها دائماً فى استرضاء المماليك ، لكيلا يمنعوا عنها الخراج — كانت لاتكاد تبعث بوال من عندها حتى تعزله وتعين بدله ، وحتى لقد بلغ عدد ولاتها من الفتح العثمانى الى الاحتلال الفرنساوى — أى من ١٥١٧ — الى ١٧٩٨ — نحو ٢٨٠ سنة — أكثر من مائة وال ، قل من أقام منهم أكثر من عامين وكثر من بدل كل عام ولقـــد كان بعض أولئك

(١) الوجاقات الستة هم : (ا — الالايات المتفرقة وهم نخبة الحرس السلطانى ب — الالايات الجاويشية وهم من صف ضباط جيش السلطان وقد عهد اليهم جباية الخراج ح — الالايات المجانة — الالايات التفنقجية وهم حاملو البنادق ه — الالايات الانكشارية وهم نخبة القبائل الخاصة بالعثمانيين و — الالايات العزب على كل الاى ضابط يسمى (أغا) ومعه الكخيا والباش اختيار والدفتردار والخزندار والروزنامجى

الولاة ، كما أثبت المؤرخون من أهل الكفاءة والاخلاص ، وذوى الرغبة فى اصلاح مااختل من شئون هذه البلاد ، فلا يكاد يشعر المماليك برغبته فى الضرب على أيديهم ، وكف مظالمهم حتى يقرروا عزله ، كما ترك لهم هذا الحق فى النظام الذى وضعته الدولة لهم كما تقدم ، فكان الوالى بمقتضى هذه الظروف . يوجه همته الى ارضاء المماليك والتقرب منهم وأخذ مايستطيع أخذه من الاموال والطرف ليعود الى الاستانة مملوء الوفاض بادى الثراء

وبالرغم من حيطة الدولة ورغبتها فى ان لايستبد أحد من المماليك بالسلطة فى الديار المصرية ومع ماكانت تبذله من الوسائل للتفريق بينهم وغرس بذور الاحقاد فى صدورهم ، فانهم كانوا فى الواقع ونفس الامر مستبدين بحكومة البلاد وطالما ماطلوا الدولة فى ارسال الخراج ، بدعوى الحاجة اليه فى اقامة الجسور أو حفر الترع وهم لم يفعلوا شيئا من هذا أو بحجة قلة الفيضان وعجز المحصول وتأخر الاهالى عن دفع الضرائب ، كما أن ذلك لم يمنع من اغتصاب الملك مراراً من الباشا الوالى وطرده من الديار المصرية

ونحن قد ضربنا صفحا عن تتبع أسماء سلسلة الولاه العثمانيين لعدم أهمية اعمالهم وحكمهم ولأننا نعتقد ان السلطة الحقيقية كانت فى تلك الفترة بيد المماليك الذين أدت كثرة تنقل ولاه العثمانيين الى عدم تأييد نفوذهم فى مصر ، والى استرجاع المماليك الراسخة قدمهم بالبلاد لكثير من قوتهم الاولى ؛ وساعد على نمو هذه القوة طول أمد النزاع بين الولاه والجند ، حتى اشتغلت الطائفتان بمشاحناتهما عن كل ماسواها

ومما ساعد المماليك على القبض على السلطة تمهيدهم لاتحادهم ، باختيارهم زعيما من بينهم وهو حاكم القاهرة ، المسمى اذ ذاك . بشيخ البلد ، وكان المماليك قد تعودوا من قديم الزمان جلب مماليك أحداث وتدريبهم ليكونوا لهم حاشيـــة وانصاراً . فسمحت لهم الدولة بالسير على هذا النظام ، فأصبح لزعمائهم من ذلك قوة لم يعد للولاة قبل بدفعها . وذلك ان المماليك الاحداث الذين يشرون بالمال كانوا يحررون عادة بعد بضعة أعوام . فيبقون الحرمة لأسيادهم ، حتى اذا ولجوا أبواب الرقى ، وصاروا أنفسهم بيكوات ، لا يألون جهدا فى تلبية مواليهم الاولين

متى استمدوا منهم المعونة ، فلشيخ البلد دائماً عصبة من مواليه وعتقاء البيكوات يعظم بها شأنه . وصار للماليك قوة لم يكتفوا باستخدامها فى عزل من أرادوا عزله من الولاة ، بل أخذوا يطمحون الى التخلص من السيادة العثمانية جملة ، وبخاصة عندما دخلت الدولة فى طور التقهقر وشغلت بحروبها مع النمسا وروسيا

وتنبه بعض الولاة الى مايرمى اليه المماليك ، فعملوا على دس الدسائس بينهم وتفريق كلمتهم ، وكان المماليك منقسمين الى أحزاب أعظمها «القاسمية» و«الفقارية» نسبة الى زعيمين لهما « قاسم وذى الفقار » . ولم تسلم الطائفتان من عداوة بينهما فلما عهد بالولاية فى مصر الى « حسين باشا كتخدا » سعى فى تفريقهما وتفاقمت العداوة بينهما حتى وصلت سنة ١٧٠٧ م الى حد أثار بين الفريقين حربا استعرت نيرانها ثمانين يوماً ، وقيل أن المتخاصمين كانوا فى اثناء هذه المدة يخرجون من القاهرة نهاراً للمحاربة ، ثم يعودون اليها بالليل فيبيتون فيها كغيرهم من السكان

واسفرت هذه الفتنة الطويلة عن قتل شيخ البلد « قاسم بك ايواظ » زعيم القاسمية ، فخلفه ابنه اسماعيل بك فاصلح مابين المماليك ووحد كلمتهم وصارت لشيخ البلد الكلمة العليا على الوالى ، فعمل الوالى سراً على تحريض الفقاريين عليه الى أن قتله أحدهم « ذى الفقار » فوهب له الوالى ثروة اسماعيل بك وأسند منصب شيخ البلد الى « جركس بك » بعد ان فتك باتباع اسماعيل بك ويعرف اسماعيل بك هذا باسماعيل بك الكبير . ومن أثاره بمصر سبيل ومكتب بجهة سوق العصر القديم بمدخل الداودية وحوش الشرقاوى كانا من أجمل مبانى ذلك العصر وبقى منها الآن جزء خرب

ثم استعان ذو الفقار بما آل اليه من الثروة فى شراء المماليك وتدريبهم حتى صارت له قوة كبيرة ، فانتزع السلطة من جركس بك ووضع نفسه فى منصب شيخ البلد . ولكنه لم يلبث أن ثار عليه المماليك وقتلوه . فقبض أحد قواده « عثمان بك » على السلطة فصار شيخاً للبلد بعد أن انتقم لسيده شر انتقام

وكان عثمان بك ذا مقدرة وبأس فعمل على توطيد السكينة وسهر على حفظ الأمن واقامة العدل ، فحسنت سيرته وأحبه الأهلون ، وبقى ذكره بعده زمنا طويلا حتى أنه لما ثار عليه أعداؤه واضطروه الى الهروب من مصر صارت

الناس تؤرخ حوادثهم بسنة خروجة فكانوا يقولون « هذا الأمر حدث بعد خروج عثمان بك بكذا من السنين ، وولد فلان فى سنة كذا من خروج عثمان بك »

وسبب فراره من مصر ان قوى فى عهده شأن حزبين من المماليك وهما « الكردغليه » و « الجفلية » فاتفق ابراهيم بك زعيم الحزب الاول ورضوان بك زعيم الحزب الثانى على توحيد كلمة حزبيهما ونزع السلطة من عثمان بك ، وجعلها فى ايديهما معا ، وبعد نزاع طويل بينهما وبين عثمان بك ، تغلبا عليه ، ففر خوفا منهما الى الشام ثم اقتسما السلطة بينهما واتفقا على ان يشغلا منصبي شيخ البلد وامير الحج بالتناوب سنة بعد اخرى ، ولما رأى الولاة ان السلطة قد سلبت من ايديهم عملوا على النكاية بابراهيم بك ورضوان بك ، ودبروا لقتلهما مكايد لم يفلحوا فيها ، الا ان البلاد لم تهدأ من الفتن بعد ، وبقى امراء المماليك فى هياج على انفسهم

هكذا كانت حالة البلاد فى هذا العصر الاخير، لا يكاد يفارقها الخلل والفوضى تارة بثوران الجند ومكافحتهم للولاة ، وطورا بتنازع المماليك مع الولاة مرة ومع انفسهم اخرى . ومازالت الحال كذلك حتى قبض على ازمة الامور احد المماليك الاقوياء وهو على بك الكبير . فكان ذلك ابتداء حوادث جديدة ذات شأن اخر .

فان على بك هذا لما استتب له الامر سهر على اصلاح البلاد وتوطيد السكينة بها ورأى ان يكثر من اتباعه كى يأمن غوائل المستقبل فرقى ثمانية عشر مملوكا الى رتبة البيكوية ليكونوا له عدة وانصارا اذا احتاج لهم .

ثم منى نفسه بالاستقلال بمصر فعمل على تنفير المماليك من الدولة فقر قرارهم على خلع الباشا الوالى واخراجه من مصر فى الحال والدفاع عن استقلال البلاد ثم أعلن استقلال مصر وأمتنع عن دفع الجزية للباب العالى سنة ١٧٦٩

ثم أرسل حملة فتح بها بلاد العرب واستولى على الحرمين الشريفين ، ثم أنفذ جيشا به ٣٠٠٠٠ مقاتل بقيادة عميله محمد أبى الذهب فاستولى على كثير من مدن الشام . وعند ذلك استكبر محمد أبو الذهب على سيده هذا الملك فاتفق مع الدولة عليه وعاد اليه بجيوشه ليهزمه ففر على الى عكا واحتمى بها واستنجد بروسيا وخرج الى مصر بقوة صغيرة فانتصر أولا ثم هزم وقبض عليه وسير به الى

القاهرة أسيراً فلم يلبث أن مات من جراحه . وكافأ الباب العالى محمد أبا الذهب بتعيينه والياً على مصر ولقبه بلقب الباشوية وسبب تسميته بهذا اللقب أنه كان أينما سار ينثر الذهب حوله .. ولم يتمتع بملك مصر طويلا إذا وافاه الأجل بعد سنتين من ولايته (١٧٧٤) . ومن أعماله تشييده جامعه الكبير أمام الازهر

عند ذلك قبض على أزمة الأمور اثنان من المماليك وهما ابراهيم بك ومراد بك واتفقا على أن يتوليا شياخة البلد وامارة الحج بالتناوب كما حدث بين رضوان بك وابراهيم بك من قبل . فبقيا قابضين على مقاليد الامور من ذلك الحين الى أن أغار الفرنسيون على البلاد سنة ١٧٩٨ ماعدا فترة من (١٧٨٦ — ١٧٩٠ م) عاد فيها النفوذ الى العثمانين لأن الدولة أرسلت حملة لم يقو على مواجهتها المماليك ففر مراد وابراهيم الى الصعيد . وولى العثمانيون شياخة البلد الى خليل بك ولكن هذا مات بعد قليل بالطاعون فعاد ابراهيم ومراد واستوليا على الحكم مرة أخرى

ولما وصل نابليون بحملته المشهورة الى مصر ١٧٩٨ م واستولى على الاسكندرية وتقـــدم الى القاهرة اجتمع المماليك وقر قرارهم على أن يسير مراد بك الى الاسكندرية لصد الاعتداء وأن يبقى ابراهيم بك فى القاهرة للدفاع عنها . أما حملة مراد بك فقد قضى عليها نابليون فى واقعة شبراخيت قضاءاً مبرما فعاد أكثرها الى القاهرة واجتمعوا مع الباقين من المماليك فى مصر وخندقوا فى انبابه فهجم عليهم نابليون وقال لجنده تلك الجملة المشهورة « أن أربعين قرنا تنظر اليكم من فوق قمة هذا الهرم » فكانت هذه الكلمة من أشهر كلماته المأثورة وهناك قضى عليهم فى تلك الموقعة القضاء النهائى . فهرب مراد بك الى الصعيد أما ابراهيم بك وأكثر المماليك فقد هربوا الى بلبيس ثم الى السويس ثم عمل نابليون على استئصال شأفة المماليك فطارد مراد بك فى الصعيد وابراهيم بك فى الشرقية وأضطره للفرار الى الشام

ثم عاد نابليون الى القاهرة واستولت رجاله على أملاك البكوات وأموالهم

وتشددوا مع نسائهم حتى اضطروهن الى أن يفدين أنفسهن بالمال فمن ذلك أن زوجة مراد بك فدت نفسها بمبلغ ١٢٥٠٠٠ ريال

ولما سلم « مينو » بالخروج من مصر فى ١٨ سبتمبر سنة ١٨٠١ وتم الجـــلاء الفرنسى عن مصر بعد أن قضوا بها نحو ثلاثة أعوام عاد المماليك والاتراك الى الديار المصرية وبدأ بينهم النزاع من جديد فحاول الاتراك الفتك بهم فى مذبحة دبرها الوالى الجديد . ولولا حماية الانجليز لهم لقضى عليهم نهائياً

ثم حدثت بعدئذ الحوادث التى أدت الى توطيد ملك محمد على فى مصر ولمـا استتب له الامر واراد الخروج لفتح بلاد العرب خشى نفوذ المماليك فدبر مكيدة لهلاكهم فدعاهم للقلعة وهناك اباده فى المذبحة المشهورة كما اسلفنا الشرح



ثورة على بك الكبير

القضاء على سلطة الدولة العثمانية

استقلال على بك وفشله

كان على بك الكبير (وسمى بهذا الاسم لكثرة انتصاراته) فى أول نشأته مملوكا لابراهيم بك زعيم حزب الكردغلية الذى اتفق على تولى شياخة البلد مع رضوان بك زعيم حزب الجلفية . فما زال يتقدم عنده لذكائه ومقدرته ، حتى رقاه الى رتبة بك ، ومن ذلك الحين أخذ على بك يعقد الآمال على أن يتقوى شيئاً فشيئاً حتى يصير يوما ماشيخا للبلد ، وكان قد جمع ثروة طائلة فقضى ثمانية أعوام فى شراء المماليك وتدريبهم ، ولم يدخر فى أثنائها وسعاً فى استجلاب مودة البيكوات الآخرين

وأخيراً تنبه شيخ البلد « خليل بك » الى أعماله ورأى أن يقضى عليه قبل أن يستفحل أمره ، فهجم عليـــه بجيوشه ، فلم يقو عليه على بك فاضطر إلى الفرار إلى الصعيد ، وهنالك التقى بكثير من الساخطين على خليل بك وأتباعه فى عدة مواقع أظهر فيها على بك مقدرة كبيرة . وبذلك تم أمر شياخة البلد عام ١٧٦٣ م

تمكن على بك هذا من ان يكون كبير المماليك ، ولكنه لم يصل الى هذه الدرجة إلا بعد منازعات وحروب مع اقرانه ، ومنافسيه من المماليك انداده ، أدت الى تخريب البلاد ، والاخلال بالامن ، الى درجة أخرجت الشيخ الحفناوى احد علماء الجامع الازهر (على ماكان بهم من خوف وفزع من المماليك) فقال لهم كما روى الجبرتى ، « لقد خربتم الاقاليم والبلاد ، وكل ساعة خصام وحروب مع على بك »

ومع ذلك بقى النزاع بين على بك وأقرانه البكوات ، حتى أجبروه على الفرار الى بلاد اليمن ، ولكنه عاد بدعوة من أنصاره فى عام ١١٨٠ ه (١٧٦٦ م) وحين استقرت قدمه فى القاهرة ، قتل أربعة من البكوات فى ليلة واحدة ، ونفى أربعة آخرين ، وكان من مماليكه ابراهيم بك ، الذى بقى حتى الحملة الفرنسية ، وعاش حتى بعد مذبحة القلعة ، ومن مماليكه أيضا أحمد بك الجزار المشهور الذى حارب نابليون فى عكا وصده عنها ، ومن مماليكه كذلك محمد بك أبو الذهب الذى غدر به وكان سبب القضاء على آماله ومطامعه ، ومنهم مراد بك المشهور فى الحملة الفرنسية

وكان سيده ابراهيم بك قد مات قتلا ، فلما تولى على بك شياخة البلد أمر باعدام قاتله ، فلم يرق ذلك بكوات المماليك ، وتألبوا عليه وألجأوه الى الفرار إلى بيت المقدس ، ثم وشوا به الى السلطان ، فأمر بطلبه الى الاستانة . فاحتمى بأمير عكاء ، فسعى هذا له لدى الباب العالى وأظهر براءته . فثبته السلطان فى منصب شيخ البلد ، فرجع الى القاهرة ، وتسلم زمام الامور بها مرة أخرى

ولما خلى له الجو ، أخذ فى مناهضة نفوذ الدولة العثمانية ، فشرع فى عزل وابعاد جميع مستخدمى الملكية والجهادية ورؤساء الوجاقات ، وابدالهم بمن هم على دعوته ، وسعى فى تقليل العسكر العثمانية ، واكثار المماليك من دعاته ، وعمل مالم تعمله الدولة حين استيلائها على مصر ، بان منع البكوات الذين كان يخشى من تغييرهم عليـــه ، من ان يقتنى أحدهم أكثر من مملوك واحد أو مملوكين . ورقى ثمانية عشر من المماليك الى رتبة البيكوية . ليكونوا هم وحاشيتهم عدة له عند الحاجة اليهم

ثم طمحت نفسه الى الاستقلال بمصر ، فشرع يعمل على ذلك سراً وينتهز له كل فرصة . ولما نشبت الحرب بين الدولة والروسيا فى سنة ١١٩٢ه (١٧٦٨) م طلب الباب العالى من مصر أن تمده باثنى عشر ألف مقاتل ، فاذعن على بك لمطلب الدولة ، وشرع فى جمع الجيش . ولكن الدولة شكت فى اخلاصه ، واعتقدت انه يجمع هذا الجيش لمساعدة روسيا عليها لنساعده على الاستقلال

بمصر ، فارسلت كتابا الى الوالى بمصر ، تأمره فيه بقتل على بك

وكان لعلى بك عيون بالاستانة ، فبادروا بتبليغه الخبر قبل وصول الكتاب إلى مصر فتربص لحامل الكتاب وقتله قبل ان يصل الى الوالى ، ثم أعلن للمماليك ان الدولة أرسلت فى هذا الكتاب امراً الى الوالى بذبح المماليك — وكان « على بك » خطيباً مفوها ، فأثار حمية المماليك ، ونفرهم من الباب العالى وذكرهم بمجد سلاطين المماليك الأقدمين ، وأن الدولة تريد القضاء على هذا المجد ، وعليهم أنفسهم فأوقد النار فى قلوبهم ، وقر قرارهم على خلع الوالى واخراجه من مصر فى الحال والدفاع عن استقلال البلاد ، ثم أعلن استقلال مصر وامتنع عن دفع الجزية للباب العالى سنة (١٧٥٩ م) ١١٨٣ هـ ولقب « بسلطان مصر وخاقان البحرين »

ولاشتغال الدولة بمحاربة روسيا لم تقدر على الالتفات اليه ، فانتهز على بك هذه الفرصة لتوطيد ملكه بمصر ، ثم أرسل جيشاً لفتح بلاد العرب ، فاستولى على « جدة » ، وعين عليها والياً من مماليكه اسمه حسن بك ولقبه بالجداوى نسبة الى جدة ، وكان غرضه من ذلك ان يجعل منها مركزاً للتجارة الهندية وموضعاً يراقب منه ملاحة البحر الأحمر ولم يلبث ان اخضع باقى جزيرة العرب ، والحرمين الشريفين

ثم وجه همه لفتح الشام ، فأنفذ لذلك جيشاً به ٣٠,٠٠٠ مقاتل بقيادة «محمد بك ابى الذهب » فكان النصر حليفه واستولى على كثير من مدن الشام

وقد قابل « فولنى » فى سياحته بالشام ، جيوش على بك الكبير وهى ذاهبة لفتح سوريا ، فقال ان الجيش المشار اليه كان مؤلفاً من ٤٠,٠٠٠ مقاتل ، ولكن لم يكن فيه من المماليك الخيالة غير خمسة آلاف ، ونحو ألف وخمسمائة من المشاة وهم من المغاربة والباقى خدم وأتباع . . . وبعد ان وصف هذا الجيش بالفوضى والاضطراب والسلب والنهب ، أخذ يصف ملابس المماليك وصفاً بديعاً فقال ان ملابسهم لم تكن تصلح لامتطاء صهوات الجياد ، وانها تتكون من أربعة أو خمسة أردية وطيلسانات تتدلى على أرجلهم ، وكان قميص الفارس

منهم من القطن الناعم الابيض ، والثوب المتدلى فوق القميص من القماش الهندى الخفيف ، وفوق ذلك القفطان من حرير مزركش يمتد من أطراف الاصابع ، ثم « الكرك » باكمام قصيرة ، ويطوف حول الرقبة فراء من السمور . ولكل واحد منهم طيلسان يلبسه فى الحفلات يلف به جسمه جميعه ... وهذا يحتاج الى المال الوفير ، ومصادر مصر كما سبق لنا القول ضئيلة ، وزادتها هاتيك الحروب والمنازعات ، واهمال حال البلاد فقراً على فقر ، فلا غرابة ان تصل الامة الى حال لاتستطيع معها الحياة ، ولو طال أمر المماليك على هذا الحال ، ربع قرن آخر من الزمان ، لما بقى فى مصر من يحرث الارض أو يرعى الماشية.

* * *

وعند مااستتب له الأمر وبعد ان وضع يده على جدة أرسل فاستدعى اليه تاجراً من أهالى البندقية اسمه كارلو روستى (وبقى فى مصر من ذلك الحين الى أيام الحملة الفرنسية) وكلفه بتنظيم التجارة الخارجية والمخابرات الدولية ، (تولى بعد ذلك منصب مأمور لجهة الطرانة (من أطراف مديرية البحرية عند وادى النطرون) لتحصيل الضرائب المفروضة على الأهالى ، وقنصلا لامبراطور المانيا أيام مراد بك — وحصل روستى هذا على امتياز فى أيام مراد يخول له احتكار استخراج النطرون)

وأمر بعد ان دانت له الشام وبلاد العرب ان يخطب باسمه فى الجوامع وضرب النقود باسمه . ولابأس ان نورد هنا بيانا عن النقود فى زمن على بك نقلا عن كتاب « ثورة على بك » الذى سيرد ذكره بعد ذلك . وهذا بيانها وهى على ثلاثة أنواع و كلها من العملة الذهبية :

١ — المحبوب وهو يساوى بالعملة الانجليزية الحاضرة ٥ ر١٠ بنس ٥ شلن
٢ — الزنجيرلى « « « « « ٧ « ٧ «
٣ — الفندقلى « « « « « ٦ « ٩ «

أما العملة الفضية فها بيانها :

١ — البارة وتعادل ٣مليات واسمها اذ ذاك مصرية

٢ — ٥ بارة وتسمى اذ ذاك خمسية وجمعها خماسى وأما الترك فكانوا يسمونها « بشلك »

٣ — ١٠ بارة واسمها روبية

٤ — ١٥ بارة

٥ — ٢٠ بارة وتسمى عند الترك «يارم قروش» وعندالمصريين نصف قرش

٦ — ٤٠ بارة وتسمى القرش وعلى ذلك يكون القرش المصرى فى ذلك الزمن مساوياً نحو ١٢ قرشا من العملة الحاضرة ، وعقد له روستى المشار اليه معاهدة سلبية مع البندقيين ، وعهد الى رجل ارمنى يدعى يعقوب « كان مساعداً له » فى عقد معاهدة هجومية دفاعية مع روسيا وافتتح له الجيش الذى سبق ذكره باتحاده مع جيش صديقه ظاهرالعمر « صاحب عكا » : غزة والرملة ونابلس وبيت المقدس ويافا وصيداً وحاصر دمشق وافتتحها عنوة

وكان كل رجل غنى فى ذلك العصر معرضا للهلاك والتعذيب والسجن حتى يسلم كل مايملكه الى الحاكم . ونذكر من الذين نالهم الحيف كاتبا يهوديا فى جمرك بولاق مات تحت العصا والكرباج بعد مادفع ٤٠٠٠٠ قطعة ذهبية فدية عن نفسه . وفى سنة ١٧٧٠ فرض ضريبة خصوصية على جميع سكان القطر المصرى على السواء بخلاف الضرائب الاخرى الموجودة التى ماأنزل الله بها من سلطان والتى كان الناس يئنون منها حيث اضطرت كل قرية ان تدفع ١٠٠ ريال وزاد على ذلك بان فرض على الاقباط علاوة على نصيبهم من الضريبة العامة ١٠٠٠٠٠ (مائة ألف) ريال واليهود ٤٠٠٠٠ (أربعين ألف) ريال ورأى على بك أن مدير الضربخانة المصرية قد جمع ثروة طائلة فنفاه واستولى على جميع مايمتلكه حتى ملابسه وأسلحته وكتبه

* * *

وبالرغم عن معاملته الشديدة للاقباط وقسوته عليهم فان الرجل الذى كان يثق باخلاصه ويعتمد عليه كان قبطيا يدعى المعلم رزق رقاه من وظيفة سكرتير الضربخانة المصرية الى مدير حساباتها ، ثم الى منصب الوزارة ، وقد كان المعلم

رزق هذا على شيء من العلم وخصوصا علم الفلك الذى مهر فيه وأصبح من رجاله المعدودين . وقد جاءت خبرته هذه فرصة عظيمة للمستر بروس السائح الانجليزى الشهير الذى اخترق أفريقيا الى بلاد الحبش . ذلك ان بروس المذكور لما وصل الى ميناء الاسكندرية عام ١٧٦٨ اوقفت الأدوات الفلكية والجغرافية التى كان يحملها معه على أنها أشياء حربية مهربة ، فلما علم بذلك المعلم رزق أصدر الأوامر اللازمة بعدم التعرض له فى طريقه وبان يدخل مايحمله مجانا بدون رسوم عليـــه فسر الرحالة بهذا الجميل الذى اعتبره من حسن حظه . ولما وصل للقاهرة أرسل هدايا نفيسة للمعلم رزق الذى لم يقبل هذه الهدايا بل ردها مع رسول وزوده بمثلها وأعطاه خطابا لطيفا للمستر بروس يرجوه فيه ان يزوره بعد ان يستريح من عناء السفر ليستعمل آلاته الفلكية لاغراضه العلمية وقد تحصل له أيضا على توصية من على بك بعدم التعرض له أبداً مدة اقامته فى الديار المصرية كما انه بتوصية منه تمكن من ان يقضى أيامه فى حصن بابليون حيث خصص له البطريرك بضع غرف تحت أمرته فى ذلك الحصن . و بعد ان أقام بضعة أيام هناك ابتدأ فى سياحته فسافر الى الصعيد فى باخرة نيلية . فلما أن وصل من اسوان الى الاقصر اتجه نحو القصير وسار عن طريق البحر الأحمر الى بلاد الحبشة حيث لقى هناك تسهيلات هائلة كانت نتيجة لخطابات التوصية التى حملها من البطريرك الى امبراطور الحبشة

ولما عاد بروس من سياحته هـــذه الطويلة الى مصر كانت دولة على بك الكبير قد انتهى أمرها وذهبت ريحها . على ان سقوط على بك وهلاكه لم يرجع الى مساعى سلطان تركيا الذى كان استعد على بك لمحاربته بعد مابنى القلاع والاستحكامات الحربية فى الاسكندرية ودمياط ولا الى انتقام أحد الامراء البكوات الذين شتتهم هنا وهناك ونفاهم بل يرجع الى ماأصابه من خيانة أحد مماليكه الاخصاء المسمى محمود بك أبو الذهب (١) الذى كان اشتراه صغيراً ورباه مع عبيده

١ — دعى ابو الذهب لانه لما رقاه مولاه على بك الكبير لوظيفة سنجق كانت عطاياه وانعاماته للشعب الذى نهنئه بالعملة الذهبية عكس اقرانه الذين كانوا ينعمون على الناس بالفضة وظل طول حياته يعم بالذهب

ولما ان اشتد ساعده أعتقه ورقاه مع أمثاله فشب على أخلاق سيده وطباعه كثير النزوع الى العلاء ميالا إلى الخيانة . وقد رقى أولا إلى وظيفةسنجق ثم عينه على بك قائداً للجيش الذى انتصر به مراراً فى سوريا والحجاز ودفعه هذا النصر وهو فى سوريا الى تأليف مؤامرة من الضباط الذين اتحدوا معه على عصيان مولاه على بك . وبدلا من ان يسير مع معسكر الجيش للحرب انقطع فى الطريق ورجع ثانيا الى مصر ورفض العودة الى ميدان القتال . فلما ان رأى على بك خيانة أبى الذهب ولاحظ ان الجيش كله معه لم يتجاسر معاقبته علناً بل أصر على قتله غدراً بان أمر بمحاصرة منزله ليلا فلما شعر بذلك أبو الذهب خرج سريعاً فى مقدمة أتباعه وأخترق صفوف المحاصرين وفر هاربا الى الصعيد حيث اتحد فى الحال مع البكوات وجيوشهم الناقين على على بك الذى أرسل وراءه تجريدة عسكرية لمطاردته . لكن رجالها جميعا خانوه واتحدوا مع رجال محمود أبى الذهب الذى كان يرشو الناس باليمين والشمال ولم يعد منهم الى القاهرة الا نفر قليل من الذين ثبتوا على الولاء له وأخبروه بما كان من أمر رفقائهم . فجرد حملة عسكرية أخرى وظل يجند الجيوش ويرسل وراء أبى الذهب تجريدة بعد الآخرى بقيادة قائد يدعى على بك (غير على بك الكبير) ليقابل أبا الذهب ويصالحه . أما على بك نفسه فتحصن مع باقى جيوشه عند دير البساتين الذى أخذه من الاقباط وجعله حصناً حربيا ثم بنى المعاقل والحصون والطوابى من نهاية ذلك الدير الكائن على شاطىء النيل حتى آخر سفح المقطم ووضع المدافع الكبيرة فى ذلك الخط الحربى العظيم بين تلك الحصون العظيمة ولكن مع كل تلك الاستعدادات والاستحكامات الحربية فان أبا الذهب نزل لمحاربته وتغلب عليه وهزم جيوشه التى خانته أغلبها وانضمت الى جيوش أبى الذهب . فلما رأى على بك ذلك خامره اليأس وتيقن أن آخرته قد دنت

فلما جاء الليل هجر مركزه بعد ان أسرع فى جمع ذخائره وكنوزه وممتلكاته الخصوصية وأمواله وفر هاربا من القاهرة الى سوريا ملتجئا الى صديقه الشيخ ظاهر عمر صاحب عكا وقد قدرت الأموال التى أخذها معه بمبلغ ثمانمائة الف محبوب ذهبا (أى نحو أربعة وعشرين الف جنيه تقريباً) يحملها على ٢٥ جملا وقالوا أيضاً انه نقل معه من المصوغات والحلى مايساوى أربعة أضعاف ذلك

وعند ذلك دخل أبو الذهب القاهرة دون ان يضطر لعمل حربى أو لرفع سلاح لأن الاهالى وباقى الأمراء والمماليك كانوا من أعوانه كما تقدم ولكن مع سنوح هذه الفرصة لأبى الذهب وامتلاكه البلاد بهذه السهولة فان أول أعماله كانت سلب وحرق دير البساتين الذى كان اتخذه على بك خصمه ملجأ له . ثم دخل المدينة دخول الفاتح القاهر وسار يقطع رأس كل رجل يشتبه فى ولائه لعلى بك وامر بجمع كل العملة التى ضربها المعلم رزق من أيدى الجمهور وضرب خلافها باسمه . وبعد ان استقر على أريكته كتب لسلطان تركيا أنه خلص البلاد من على بك وأكد له انه سيظل حاكما لها وخاضعاً لسيادته .

ثم تواطأ مع بعض البكوات المماليك على ان يكتبوا خطابا لعلى بك يدعونه فيه للعودة الى مصر وأكدوا اخلاصهم واستعدادهم لخيانة أبى الذهب وانضمامهم اليه حال عودته . أما على بك فقد تجددت قواه الحربية فى أثناء ذلك بواسطة مصدرين عظيمين وهو فى سوريا أولهما انه أقام المخابرات بينه وبين روسيا (ولا يخفى ان الروسيين هم الأعداء الالداء الطبيعيين للاتراك للعثمانيين) فاقرضته روسيا قوة الحرب الطوبجية والذخائر الحربية وثلاثة آلاف من العساكر القوزاق . وثانيهما أنه عقد محالفة جديدة مع الشيخ الظاهر والى عكا كما ان أحد قواده قام بتجريدة حربية وأعاد افتتاح طبرية ومدينتين على شاطىء سوريا بخلاف يافا وغزة والرملة وعاد منتصرا لعلى بك الذى تنازل عن هذه البلاد بعد افتتاحها الى الشيخ الظاهر والى عكا .

فلما وصل الى على بك ذلك البلاغ والدعوة الكاذبة من المماليك المصريين حول حالا وجهة جيوشه الى مصر وسار بهم حتى وصل الى الصالحية وهناك التقى بجيوش أبى الذهب فانتصر على بك فى أول معركة قامت بين الجيشين ولكن مماليكه الخائنين ظهر منهم شىء من التراخى فلم يثق بحربهم وحدهم مع جيوش أبو الذهب الذى لما آنس من نفسه انهزاما فى المعركة الأولى وقف بين جيوشه المصرية يخطب متحمسا ويحرضهم على الاستقتال فى الحرب ويدعوهم للجهاد الدينى لأنه كان يقول لهم ان الله لايسمح لعلى بك الذى هجر الدين الاسلامى ودخل فى محالفة مع النصارى (الروس) ان ينتصر عليهم . وعلاوة على هذه الخطب الحماسية الدينية فانه تمكن

بواسطة الدسائس والخدع والرشوة مع ابراهيم بك ومراد بك مساعدي على بك واتحد معهما على عصيان سيدهما والانقلاب عليه وقت الحرب والانضمام مع الجيوش المصرية . وعلاوة على الرشوة العظيمة التى أخذها مراد بك من أبى الذهب اشترط عليه أيضا انه اذا خان سيده وانضم له عليه ان يعطيه الست نفيسة زوجة على بك وهى امرأة شركسية بارعة الجمال كانت السبب الاول والأهم فى خيانة مراد بك لمولاه على .

فعند ساعة القتال خان البيكان مراد وابراهيم مولاهما وانضما الى أبى الذهب فعند مارأى جيش على بك ماكان من أمرهما دبت الهزيمة فى صفوفه ولكن عشرة من المماليك المخلصين لمولاهم استمروا فى القتال حتى تغلب عليهم رجال أبى الذهب وذبحوهم عن آخرهم وجرح على بك جرحا مميتا فحملوه الى القاهرة حيث توفى فيها بعد سبعة أيام لم يلق فى أثنائها من عبده الذى أصبح سيده أدنى عناية

مات على بك الكبير سنة ١٧٧٢ م (١) بعد تلك الأعمال الحربية والسياسية العظيمة ومن عظيم أعماله الاصلاحية المبانى المظبمة الكثيرة العدد التى شيدها فى البلاد المصرية فى العشر السنوات التى حكم فيها

وأخص أعماله من هذا النوع فى بولاق حيث شيد سوراً عظيما وسوقا كبيرة لم يذكرها الجبرتى بالخير . وفى عصره جددت ورممت وبنيت أعظم الجوامع والمدارس والسبل والجسور والكبارى وخصوصا تلك التى شادها أحد رجاله المدعو الامير عبد الرحمن .

ولكن كل هذه الأعمال العظيمة ، وهذا المجد الذى لم يسبق فى مصر مثله منذ دخلها الأتراك لم يشفع له لدى الجبرتى الذى وصمه بوصمة البخل الشديد الذى لايطاق ولكنه تعلل ذلك بحاجته الى المال ليقيم به أعماله العظيمة

ولا يفوتنا ان نذكر هنا قبل ان نختم الكلام عن حياة هذا الرجل العظيم ان نذكر مارواه عنه (استافرو لاسنبان) الرومى فى كتابه « ثورة على بك » وهذا

---

(١) كان على بك ابن قسيس رومى كما ستذكر ذلك ومما رواه عنه (استافرو) فى الفصل الاول من كتابه ان على بك لما ولد فى سنة ١٧٢٨ سمى يوسف وانه خطف لما كان سنة ١٣ سنة أى سنة ١٧٤١م

الكتاب محفوظ بدار الكتب الملكية ، وعليه معظم اعتمادنا ومصدرنا الوحيد فى هذا الفصل ، وفيه شرح مسهب لحياة على بك بقلم المؤلف الذى عاشره واشتغل معه . فقد ذكر عنه فى صحيفة ٨٣ فى كتابه المطبوع فى لندن سنة ١٧٨٤ مايأتى :
« فى عام ١٧٦٦ أرسل على بك أحد مماليكه المدعوطنطاوى أميناًعلى الخزينة المرسلة منه للباب العالى وأمره ان يبحث عند وصوله الى استامبول فى مدينة أماسيا (الأناضول) عن والديه اذا كانا لايزالان على قيد الحياة حتى اذا وجدهما يدعوهما الى الآستانة ليحملهما معه الى مصر . فقام مملوكه بالمهمة ووجد ان والده المدعو داود على قيدالحياة (داود هذا كان قسيساًمن قساوسة الروم الارثودكس) فحمله معه الى مصر ومعه أصغر بناته وحفيد له،تاركا أكبر بناته فى المنزل مع زوجها
ووصلت البشائر الى على بك بمقدم والده فخرج من المدينة ومعه أشياعه وبلاطه لاستقباله بما يليق بمقامه وجثا على ركبته وقبل يديه ثم أنزله فى داره وهناك قدم له زوجته مريم (وهى يونانية الاصل) وتلقى على بك التهانى من جميع المصريين .

وأقام داود هذا سبعة أشهر فى القاهرة وصمم على العودة الى أماسيا ولم تنفع فيه توسلات ولده بالبقاء فسافر من مصر محملا بالهدايا النفيسة ، وأقلته سفينة خاصة الى الآستانة . ومما يجب ذكره ان على بك بذل مساعى كثيرة لدى والده لحمله على تزويج أخته المسماة (يوهود) الى محمد بك أبى الذهب ولكن الوالد رفض وعاد باسرته الى داره القديمة فى الاناضول

أما ما كان من أمر هذا الخائن (أبى الذهب) فانه أعاد مصر تحت سلطة الباب العالى واستقر هو فى شياخة البلد ، وعاث فى البلاد فساداً وكان من المحتمل أنه لو استتب قدم على بك ، ولم يغدر به مملوكه ، انه كان يسير بالبلاد سيرة حسنة ، ويوطد فيها دعائم ملك ثابت الاركان رفيع العماد ، ولكن مصر كانت دائما مقضيا عليها بمثل هذه الظروف السيئة

اخبار المماليك فى عصر الحملة الفرنسية

— ١٤ —

هذا الفصل منقول عن أوراق متناثرة وهوامش كتب دينية ورقوق محفوظة فى مكتبة الدار البطريركية القبطية تحت عنوان « أخبار الامراء السناجق » وهى تتناول عصر شياخة ابراهيم بك ومراد بك اللذين كانت لهما الزعامة أيام الحملة الفرنسية وأخبار هذا العصر لم أجد لها مصادر لغموضها فسدت هذه الاوراق عندى فراغا كبيراً ولا يفوتنى أن أذكر هنا أن الفضل فى عثورى على هذه الاوراق يعود الى الاستاذ توفيق اسكاروس كما نوهت عن ذلك فى مقدمة الكتاب

وسأنقل هذه الأوراق بأمانة ، وسيجد القارىء فيها فضلا عن قيمتها التاريخية نموذجا لأفكار أهل ذلك العصر وكتابتهم وأسلوبهم وتفننهم — سيجد فيها القارىء أيضاً بعض اغلاط نحوية ولغوية ولكننى سأنقلها كما هى بدون تغيير فيها . . .

* * *

١ — فى سنة الف وخمسمائة للشهداء الاطهار ابتدأت الحنطة تقل .. لأن النيل الذى كان قبلها كان شحيحاً ومن قبل منه كان القمح هاف ومن قبل مابدىء الغلا كان حكام مصر بينهم خلاف . . . . وافترقا من بعضهما اثنين . . . وكان الغز (صغار المماليك) بصعيد مصر هاربين هناك فى قلعة اصوار قاطنين عصاة أخذوا مال الصعيد من جرجا الى آخر بلاد ملكهم ولم يعطوا للسلطان مالا ولا للمصريين غــــلالا . .

وأما حكام مصر المذكورين كان سبب افتراقهم هؤلاء القوم العصاة وعملوا حيلة لكى يصطادوهم بها وطلع مراد بك الى الصعيد الى أسيوط وأراد يجيب الدى فى قبلى بحيلة فلم تدخل عليهم تلك الحيلة فقالوا لهم لما يصير بينكم حرب نحضر عندكم

فرجع مراد بك الى مصر وابتدأ بالحرب مابينه وبين ابراهيم بك فكان قبالته بالبر الشرقى قبل دير الطين بمصر القديمة وأقاموا للحرب اثنين وعشرين يوما وكان ذلك الحرب فى سنة تاريخه فى الرفاع الكبير فلما طال الحرب بينهما عدوا الذين من بربولاق فى الشرق الى البر الغربى وبهذا السبب كسر الذين فى الغرب وولى راجعا الى الصعيد ثانياً ولم يقدر يجذب الذين فى قبلى العصاة لا بالحيلة ولا بالقهر لأنه كان سافر لهم متجرداً لحربهم قبل ذلك أربعة أمراراً وكانوا يهربون من قدامه الى السودان ولما يعود المذكور يرجعوا الى جرجا وكانت هى حد ملكهم كما ذكرنا أولا

ولما طالت مدة رجوعه قبلى بعد حربه مع ابراهيم بك وطال مقامه فى الصعيد أرسل ابراهيم بك اليه بالصلح وأحضره الى مصر وأقاما الاثنين بالناحيـة وأما سبب قهرهم والحروب بينهم فهى مجى رضوان بك من عند العصاة القاطنين بقبلى وأسماء العصاة ! حسن بك الجداوى واسماعيل بك فلما قعد مراد بك فى مصر مدة يسيرة طلع ابراهيم من أرض مصر الى الصعيد زاعماً أنه مطرود من مراد بك وأرسل الى العصاة يحضرهم عنده بدعوى أنه يحبهم وأنهم يحبوه ويأتوا عنده ويعينوه على مراد بك كى يقتلهم بهذا السبب أما هم فلم يحضروا ولم يأمنوا له فلما طال مقامه فى الصعيد أرسل مراد بك له بالصلح فاحضره الى مصر وزالت العداوة بينهما وهذا الامر كان من الله ....

١ — وأما .... بدء الغلا فكان فى شهر كيهك فى السنة المذكورة واتصل ربع القمح بالكيل المصرى ثلاثين نصف فضة ، فكان ثمن الأردب القمح بالـكيل المصرى ستة محبوب وبقى من كيهك الى أبيب على هذا الثمن وفى ١٩ من شهر مسرى جبروا البحر ووصل ثمن الاردب القمح فى ذلك الوقت اثنى عشر محبوب وبهذا السبب ماتت الناس بالجوع ولم يجدوا لهم أكفان وأكلوا لحم الميتة والفطيس والدواب التى لايحل أكلها وماتوا وكانت الموتى مطروحة فى الشوارع والازقة والاسواق وموتى كثيرون هدموا بيوتهم ولم يسمع قط من مدة أجيال ان الحنطة حصلت هذا الثمن وجميع الحبوب . وكانت أثمان العدس والأرز والفول والحلبة

تفوق أثمان الحنطة وكانت الغلال تحضر من بلاد الشام ومن بلاد الفرنج الى مصر المحروسة والشكر لله

٣— وفى سنة واحدة بعد الخمسمائة والألف للشهداء أتى فى الصيام الكبير موت عظيم . وكان يسمى بالطاعون حتى آيس باقى الناس من حياتهم وكانت الحنطة فى ذلك الوقت بالثمن المذكور وكان أوقات يكثر وأوقات يقل (الى عبد الملك ميخائيل !!) . . فى ثانى عشر من شهر بؤونة فتراجعت أسعار الحنطة وساير الحبوب قليلا . . وكان نيلها شحيح جداً

٤— وفى سنة اثنين بعد الخمسمائة والالف للشهداء وان القمح نزل فى تلك السنة و بقى الاردب ثمنه ستة محبوب ثم أخذ فى النازل واطمأنت الناس وسكن روعهم قائلين أن الله أطلع لنا بعين الرحمة ولم يدروا ماذا يكون

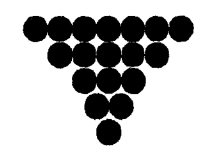
ووردت أخبار الى ارض مصر بأن السلطان ارسل حشود وجيوش كثيرة أتوا الى مصر ليقتلوا الحكام هنا ولم يصدق أحد هذا الكلام . ففى أواخر الخماسين ملك الحشود الذين أتو من عند السلطان بر الاسكندرية وفم البوغاز الذى لرشيد ودمياط وكان مقدم الحشود وعميد جيوشهم يقال له حسن باشا قبطان وجنسه عثمانلى وأقام بالناحية المذكورة الى عشرين يوماً من شهر بؤونة وكان مراد بك غائباً فى الوجه البحرى فارسلوا له غز مصر وأحضروه بسرعة وعجلة فلما حضر عندهم وعرضوا عليه المشورة تجرد لحرب القوم المذكرين الذين أتوا من اسلاميول فلما مضى اليهم أتا خوف وفزع واضطراب عظيم وقلق جدا وسمع أن القوم الاتيين قدامه سبع باشات من عند السلطان وبهذا السبب انهزم وولى راجعاً وهم ورائه يسيروا مطاردين له الى أن دحل الى أرض مصر

وفى سابع عشرين يوماً من أبيب من السنة المذكورة قفلوا مصر وأغلقوا ابواب المدينة وأخذ غز مصر القزع والرعب الشديد وكانوا يسيروا من مكان الى مكان وهم فى ضجة عظيمة

وفى وشهر ثانى يوم مسرى ضاق بهم الحصار جداً فولوا بالليل هاربين الى

الصعيد ولما أصبح ثالث يوم من مسرى دخل الحشود مصر وكانوا سبعة جيوش ويتظاهروا بمثل الحكم والعدل وأهم من داخل بخلاف ذلك وأرسلوا وراء الغز المذكورين عدة علايين محاربين فلما استمروا فى مصر قليلا وثلث لهم سبعة أيام قالوا لايجوز لنصرانى ان يمشى من تحت يمين مسلم وضايقوا على النصارى لكل ضيق شديد وكان حسن قبطان شديد العسف قوى الزعم متسلطاً بل قوته على النصارى حتى أنه فرض عليهم غرامات عظيمة واستجرمهم وأخذ أموالهم ظلماً وبهذا السبب هرب الأب البطريرك انبايؤانس وهوالسابع والمائة فى عدد الآباء البطاركة واختفى عن كرسيه وجمع الاساقفـــة معه وأنهم غيروا لباسهم ولبسوا ثياب زرية وجميع النصارى القبط غيروا لبسهم حتى ان الكهنة لم يعرفوا من العلمانين . . . وكان الأب البطريرك يجول من مكان الى مكان حزين القلب على ماجرى بأرض مصر من هؤلاء القوم الدين لا رحمة فى قلوبهم

٥ — دخلت الغز الذين كانوا عصاة فى وجه قبلى سبعة سنين الى أرض مصر مكسوريين من قدام مراد بك وابراهيم بك وأن المذكورين الذين كسروهم أتوا وراهم فى البر الغربى الى حد أم خنان وأقاموا بالناحية المذكورة اثنى عشر يوماً وأرادوا يملكوا الجيزة فما أمكنهم من كثرة المدافع ان يبلغوا قصدهم فولوا راجعين الى الصعيد ثانى مرة وكان معهم أكابر قبط مصر ومعلميها وان الباشا عمل آلة حرب عظيمة وأرسلها مع التجريدة وراهم



علاقة المماليك بالاقباط والنزلاء الاجانب

— ١٥ —

ان علاقة المماليك بالمصريين كانت علاقة غريبة لامثيل لها فانه فضلا عن أن هؤلاء المماليك كانوا أغرابا عن هذه الديار ولم يكن لهم هم الا قضاء مصالحهم الشخصية وارواء مطامعهم الاشعبية فانهم كانوا لايجدون لهم نفوذاً فى هذه البلاد إلا بالتفريق بين عنصرى المصريين. فلاقى المصريون من جورهم وفظائعهم مالايطاق. وخصوصا الاقباط. وسنتكلم عند ذلك بالتفصيل فى هذا الفصل

اذا نظرنا الى مصر طول عصر المماليك، نجد ان ملوك السلاطين البحرية، ومن بعدهم الجراكسة وأخيراً الولاة العثمانيين، لم يكن لهم هم سوى استنزاف أموال الناس بأى طريقة كانت وبدون استثناء. ولا تمييز بين المصريين ولا سيما لأن الولاة الذين كانوا يأتون اليها من القسطنطينية لم تطل مدة ولاية الواحد منهم أكثر من سنة، واذا سمح له بالبقاء فى منصبه أكثر من ذلك فلا يكون إلا يبذل الأموال الطائلة طمعاً فى تحصيل مايزيدعما دفعه اضعافا. وزيادة على ذلك انقسام المماليك على ذاتهم وقيامهم على بعضهم تارة وعلى الوالى تارة أخرى وانتهاز أهل الفساد ولا سيما العرب المعروفين بالهوارة هذا الاختلال فرصة للسلب والنهب وسفك دماء الامنيين من الناس. وبينما كان المماليك يقاتلون بعضهم فى مصر أو يحاصرون الوالى فى القلعة كان العرب يهجمون على البلاد وينهبون البيوت ويقتلون الرجال ويسبون النساء

وقد أفاض الكلام على هذا الاختلال وسوء تصرف الولاة والحكام المسيو ميلبيه قنصل فرنسا والجبرتى والرحالة بوكوك الانجليزى الذى أتى الى مصر سائحاً فى سنة ١٧٣٧ م وأقام بها بضعة أشهر. واذ كانت الحال فيها هادئة تمكن من الطواف فى جملة بلاد منها. ولكنه قال فى كتابه انه قلما كان يمضى يوم لم يسمع

فيه بموت واحد من الأمراء وزعماء المماليك أما فى معركة أو بالسم . وكانت الاختلافات التى تحدث بين المماليك أنفسهم تعود بالويل والثبور على الأهالى البعيدين عن المشاكل . فقد حدث أن تمرد المماليك سنة ٦٨٢ ه فى عصر برقة خان وهموا الى نبذ طاعته فغضب لذلك غضبا أعمى بصيرته فلم يميز بين المجرم والبرىء والمماليك والاهالى المسالمين فساقهم جميعاً بعصا واحدة وأخذهم بذنب واحد واعمل فيهم السيف ثلاثة أيام قتل فيه من المماليك جم غفير حتى غصت الشوارع والطرق بجثث القتلى رجالا ونساءاً وأطفالا

* * *

والغريب فى أمر هؤلاء المماليك انهم لم يمتزجوا بالسكان الأصليين بل عاشوا مترفعين فى معزل عنهم ، وقليل منهم من تزوج وكون له أسرة ، اذ كان ديدنهم الحروب والفروسية فلا يرضون بشيء يشغلهم عنها ، ومعظمهم كان يموت فى ساحة الوغى وسنه لاتتجاوز الخامسة والثلاثين ، ومن عاش منهم عيشة هادئة ورضى بالزواج (وهو النزر اليسير) كان نسله يندمج على مدى الأيام فى المصريين

وقد غالى المماليك فى أواخر العصر العثمانى فى ابتزاز الأموال من الاهلين وانغمسوا فى الترف فى مسكنهم وملبسهم ومعيشتهم ، على غير عادتهم الأولى المبنية على الخشونة والسذاجة فى كل شىء . وصارت حلة المملوك منهم لايقل ثمنها عما يعادل ٦٠٠ جنيه الآن (مع عظم قيمة النقود فى تلك الأيام) ، ولا يمتطون إلا خيول « نجد » العربية الأصيلة التى يبلغ ثمن أحدها نحو ٣٠٠ جنيه ولم يكن ذلك مقصوراً على البيكوات أنفسهم . بل أن مماليكهم الذين لم يرتقوا بعد الى مراتب الرياسة كانت ركائبهم مزينة بأفخر الحرائر ، ومزركشة من كل جانب بالذهب والفضة ، على حين ان المصريين الأصليين لم يسمح لهم الا ركوب البغال والحمير

وصار أهل البلاد هم العبيد الحقيقيون ، و « المماليك » هم السادة . اذ استولى المماليك على جميع الاملاك الا ما كان منها موقوفا على الاعمال الخيرية فى وصاية العلماء ، وتشعث حال الفلاح حتى صار رثا فى ملبسه ومسكنه ومأكله ، لايكاد يفيق من دفع ضريبة شرعية أو غير شرعية حتى يطالب بدفع أخرى . واذا امتنع عن الدفع (فقراً أو ادعاء) ضرب أو عذب حتى يدفع وربما قتل من أجل ذلك

واختل الأمن فى تلك الأيام ، وكثرت مناسر اللصوص وقطاع الطرق، فتأخرت التجارة ، وأهملت مرافق الزراعة ، وانقرض معظم الصناعات ، وكانت قد دخلت فى طور تقهقر بعد ان نقل السلطان سليم أمهر الصناع الى القسطنطينية فقضى الفقر واختلال الأمن على البقية الباقية منها

وفى أواخر القرن الثامن عشر للميلاد (الثانى عشر هـ) كان صنع السكر لايزال جاريا فى بعض أنحاء البلاد ، وكذلك بقى أثر من صناعة الحرير والكتان التى كانت لمصر فيها شهرة فائقة من قبل ، كما بقيت نماذج من صناعة الزجاج

على ان الذى لطف هذه الحالة ان ما كان يجبى من البلاد كان يصرف فى نفس البلاد ، فالثروة التى كانت ترد متجزئة الى خزائن البلاد وتتجمع فيها ، تنفق بعد متجزئة الى التجار من الاهلين اذ يكن ظلم المماليك وعسفهم ليمنعهم من الكرم وبذل الصدقات ، فكان كبار القوم يعيشون فى رخاء وسعة ، وكانت بيوتهم مفتحة للقادمين فى الغداء والعشاء ، وكانوا فى الأعياد يوزعون كثيراً من الاوز والعسل واللبن على الفقراء والمساكين كما يوزعون عليهم الحلوى أيضا فى أيام الجمعة والمواسم

* * *

ان علاقة المماليك بالأقباط كما أسلفنا كانت علاقة غريبة شاذة ، فقد شعر هؤلاء (المماليك) أنهم أغراب عن هذه الديار وكانت لهم مصالح كثيرة تحتاج الى عناية وخصوصاً الأعمال المالية التى كان يحتكرها الاقباط [١] منذ

١ — قال الكاتب الرحالة فولنى الذى زار مصر عن أصل (قبط Copt) التى تطلق باللغات الاوروبية على الاقباط فقال ان كلمة قبطى العربية يظهر أنها تحريف لكلمة (اجبتوس) اليونانية التى معناها (مصرى) اذ لابد من ملاحظة ان (يوشا) كان ينطق بها (au) عند قدماء اليونان وان العرب بالنظر الى عدم وجود حرف (g) كما ينطق أمام u,o,a ولا حرف P الفارسى يبدلون من هذه الحروف بحرفى Q (b) أى القاف والباء العربية فالاقباط والحالة هذه سلالة قدماء المصريين (انظر صفحة ٣٦٧) نفحة الى مصر لكلوت بك

وقد قرأت فى كتاب آخر ان أصل هذه الكلمة مشتق من كلمة قفط أحدى مدن الوجه القبلى التى كانت مأوى عظيما للاقباط فى العصر القديم ولكننى لاأقبل هذا الرأى (راجع صفحة ٥٣٦) من كتاب عادات وأخلاق المصريين تأليف وليم لان

Mannvers and customs of Modern Egyptians by W.Lane P 539

أقدم العصور ، وقد ثبت من المخلفات الاثرية الموجودة من هـــذه العصور أنها كلها من عمل المهندسين الاقباط وقد اضطر كثيرون من هؤلاء محاباة للسلاطين أن يسلبوا الـكنائس أنخر الأعمدة الموجودة فيها ليزينوا بها منشئات الخلفاء والسلاطين . ورغماً عن ذلك وان علاقة المماليك بالأقباط كانت علاقة منفعة وحاجة فان سيف المماليك بقى مسلطاً على رقابهم طوال هذه العصور الطويلة

فأول المصائب التى حاقت بهم كانت على يد رجل قبطى اعتنق الاسلام وسمى شرف الدين أبو القاسم هبه الله بن صاعد الذى كان وزيراً للأمير عز الدين ايبك فانه أرهقهم بالضرائب والمظالم التى ضجوا منها

وفى عهد الظاهر أحرقت أكثر جوامع القاهرة فاتهم الاقباط بحرقها وتوالت عليهم المصائب بسبب ذلك ثم اثبتت الحوادث بعد ذلك براءتهم . وفى عهد قلاوون كانت فاتحة أعماله أن أصدر أمراً بطرد جميع الـكتاب الاقباط من ديوان الجيش . ولما مات هـذا السلطان تولى بعده ابنه الخليل فظنوا ان أيام ذلهم قد انقضت فعادوا الى ركوب البغال والخيل وأخذوا فى تغيير هيئاتهم وملابسهم وعادوا الى ما كانوا عليه من العز أولا ولـكن الحوادث بعدئذ زادت نار الاضطهاد اضطراما فعاد المماليك الى سومهم العذاب وأمر الخليل بطرد جميع كتاب الدواوين الاقباط الذين كانوا عادوا اليها

وكان من عادة الأقباط أن يقيموا احتفالا سنويا فى اليوم الثامن من شهر بشنس فى ناحية شبرا يسمونه عيد الشهيد . ففى سنة ٧٠٢ هـ فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون أمر نكاية فيهم بابطال هذا العيد فابطل من ذلك العصر حتى اليوم

كانت كل هذه المصائب المتوالية داعية لاسلام كثير من الـكتاب الاقباط الذين أرادوا الانتقام من هؤلاء المماليك الغلاظ الاكباد . ففطن بعضهم لذلك فأوعزوا الى السلاطين ان يأمروا بعدم قبول اسلام الاقباط واذا أسلم أحد منهم فلا يبرح باب أحد الجوامع بل يعيش من احسان المسلمين أهل الخير

وفى هذا العصر كثر احراق الـكنائس ، فقام جماعة من رهبان الاقباط

واحرقوا عددا كبيراً من الجوامع ، فقامت حركة عامة فى جميع القاهرة على الاقباط ففنيت كنائسهم جميعها الا كنائس بابليون والبيوت التى حولها . وشمل الخوف جميع الاقباط الساكنين بمصر والفسطاط فلم يجسروا على الخروج من بيوتهم وبقوا محبوسين فيها أياما وسكنوا جميعاً بابليون لحصانتها وعدم امكان التغلب عليها . ولما علم ملك الأحباش بما حل بنصارى مصر أرسل رسولا بكتاب الى السلطان يطلب منه اعادة بناء الكنائس . ولما كان السلطان يخشى سلطة امبراطور الحبشة صرح لهم ببناء بعض الكنائس التى هدمت على شرط أن لايتوسعوا فيها أو يزيدوا عليها شيئاً مما كانت عليه قبل الهدم غير أن بعضها هدم بعد تمامه بدعوى أنها لم تبن على حالتها القديمة أو أنهم زادوا فى زخرفتها واعلاء بنائها

وفى أواخر عهد الناصر كان بين الاقباط الذين اسلموا رجلان أحدهما يسمى موفق الدين والاخر كامل الدين صارا يتنازعان ويكدران راحة الحكومة بسبب طمع كل منهما فى الوزارة والاستيلاء عليها واختصاصه بها . فألغاها السلطان وبذلك استقل موظفو الدواوين الاقباط بالأعمال الادارية فكانوا فى راحة لامنازع لهم فى أعمالهم مدة باقى حياته

وفى سنة ١٤٨٤ م هجم عرب الوجه القبلى على ديرى انطونيوس وبولا وقتلوا جميع من فيها من الرهبان وبقيا خرابا نحواً من ثمانين سنة وكان فيهما مكتبتان عظيمتان تحتويان على عدد عظيم من الكتب القديمة الثمينة فجمعوها وأحرقوها عن آخرها ولم يبق منها الا ماخفى عن عيونهم

وفى أواخر الجيل السابع عشر للميلاد ألف رجل من أعيان الاقباط يسمى (أبا دقن المنوفى) كتابا باللغة العربية شرح فيه حال الاقباط فى ذاك العصر وعوائدهم وتاريخهم فى ذلك العصر وهذا الكتاب الجليل موجود بمكتبة جامعة اكسفورد بانجلترا وقد ترجم الى اللاتينية ونشر بها سنة ١٦٧٥ م وترجمه أيضاً الى اللغة الانجليزية ونشره السر سادلير سنة ١٦٩٣ ميلادية . وفى نهاية هذا الجيل كان للفرنسويين بمصر قنصل يسمى المسيو ميلييه حضر البها فى سنة ١٦٩٢ م وكتب تاريخاً جليلا عن الاقباط وعلاقتهم بكنيسة روما

* * *

وأما حال الاقباط فى عهد الدولة العثمانية فقد كانت هادئة نوعا ما فى أول أيام هذه الدولة لرفع الاضطهاد عنهم وتشاغل المماليك بسبب الكوارث التى كانت تتساقط عليهم من وقت الى وقت وعاشوا كل هذه المدة مع غيرهم على أحسن حال. غير أنهم كانوا يزيدون عنهم فى المصائب من جراء الجزية التى صارت تسمى الجوالى . وفى عام ١٧٣٣ م صدر أمر السلطان للوالى بزيادة الجزية عليهم وعلى اليهود وجعلها ثلاث درجات الاولى أربعة دنانير والثانية اثنان والثالثة واحد ففرضت على جميع الذكور منهم بدون استثناء والزم البطريرك بدفعها عن القسوس

ولما فسدت الحال واختل النظام واستولى عرب الهوارة على معظم بلاد الوجه القبلى انتهى القبط اليهم فادخلوهم فى ذمتهم وحماهم فصار القبطى يخاطب العربى المنتمى اليه (ياابدوينى) والعربى يسمى القبطى الذى تحت حمايته « يانصرانينى » . ورغما عن ذلك فان حالهم كانت راضية وتحسنت أحوالهم وصار الاقباط يكنون بأسماء المماليك . ومع ذلك تسمع عن فترات استراح فيها الاقباط واكرم زعماؤهم وذلك لاطمئنان المماليك من جهتهم لعدم امكانهم الطموح للعرش الذى لا يتولاه الا مسلم ومن هنا نعلم السبب الذى من اجله تولى وزارات جميع سلاطين المماليك تقريبا وزراء من الاقباط . فيقال مثلا المعلم غبريال السادات والمعلم يوسف الالفى نسبة الى مخدوميهم . وفى النصف الثانى من الجيل الثامن عشر للميلاد فى عهد على بك الكبير تولى الوزارة وزيران قبطيان كان لهما فى التاريخ ذكرى مجيدة وهما المعلم رزق وأخوه المعلم ابراهيم الجوهرى وتجد ذكرهما فى الفصل الخاص بعلى بك الكبير . وفى عهد مراد وابراهيم ارسلت الدولة العلية حسن باشا ليهدىء الأحوال فى مصر فاذاق الاقباط الذل والهوان وأعاد الاوامر القديمة التى كانت تقضى عليهم بشد الزنار على أوساطهم وأمر برد الاموال التى وقفها المعلم ابراهيم الجوهرى على الديور والكنائس الى أموال الحكومة

وفى عصر الحملة الفرنسية حسنت حالة المصريين جميعاً للحرية الدينية التى منحها الفرنسيون للجميع وعند عودة الحملة الفرنسية الى الديار الفرنسية بعد أن

خابت مساعيها هاج الرعاع واحرقوا الكنائس وغيرها فقامت طائفة من الاقباط وكونوا جيشاً قبطياً رد عنهم غائلة الردى بقيادة الجنرال يعقوب الذى خرج مع الحملة الفرنسية ومات فى فرنسا . ومن الذين خرجوا أيضاً معه من مصر المعلم الياس بقطر صاحب القاموس الفرنسوى والعربى

وعاش الأقباط فى حياة مريرة بقية عهد المماليك حتى خلصهم من هذا الضغط محمد على باشا الكبير فان أحوالهم أخذت فى الارتقاء وأمورهم فى الاستقرار

* * *

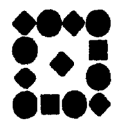
فى عهد دولتى المماليك الأولى والثانية نجد ان علاقة المماليك بالنزلاء الأجانب كانت معدومة الا العلاقة الحربية التى كانت قائمة بين المصريين والصليبيين وانا نجد انه من الصعوبة أن نجد ذكراً لزيارة أحد من الأجانب أو اقامته فى مصر أو الولايات التى كانت محكومة بالمصريين الا اننا نجد فى عهد مماليك الطبقة الثالثة ذكراً للسفراء الأجانب وبعض الزوار الاوربيين الذين حضروا الى مصر (وذلك لتمتع الأجانب بالامتيازات التى منحتها لهم الدولة العلية) لاغراض تجارية أو سياسية أو علمية ثم أننا نجد ان جالية كبيرة فى أواخر عهد هذه الطبقة استوطنت مصر . الا ان عزلة المماليك عن بقية العالم . فى جهل تام عن قوى الدول الاوربية واطماعها ، أو بعضها بعض ، ولذا نجد ان المصريين لم ينتفعوا باقامة الجالية الاوربية النشطة التى كانت مستوطنة بمصر ، بل اكتفوا بالنظر اليهم بعين الازدراء والمقت ، ظناً منهم ان دولهم مازالت على الضعف الذى سمعوه عنهم أيام الحروب الصليبية ، وفاتهم ان الزمن قد تغير ، وان أوربا أصبحت على مبلغ من القوة وسعة العلم وعظم الدراية والفنون الحربية بحيث لايمكن مصادمته الا بمثله

وكانت مظالم المماليك على التجار الاوربيين لانطاق ارهاقهم بالضرائب الكثيرة الثقيلة الحمل ، ثم اهانتهم ومصادرتهم فى أموالهم بدون أسباب تدعو لذلك . واننا نجد كل ذلك مذكوراً فى تقارير قناصل فرنسا فى مصر — ونعنى تقرير

ماجالون Magallon الذى اتخذته الحكومة الفرنسية ذريعة لحملتها على مصر وهو يشكو مر الشكوى من معاملة المماليك للتجار الفرنسيين سواء فى الاسكندرية ورشيد ودمياط والقاهرة

وقبل ذلك فى عهد مراد بك وابراهيم بك عام ١٧٨٦ م (١٢٠٠ هـ) وصلت الجيوش التركية الى الاسكندرية بقيادة حسن باشا . ولما علمت الحكومة الروسية بذلك أوعزت الى قنصلها فى الاسكندرية بتعليمات سرية ان يتحد بمحالفة مع البكوات المماليك ضد الدولة العلية . ففى الحال ابتدأ القنصل بفتح المخابرات بين الأميرين فى هذا الصدد ولكن هذا المملوكين رفضا كل مداخله أوربية ظنا منهما أنهما كفء لمقاومة الدولة العلية وحدهما بعد ان يتمما استعداداتهما الحربية . لكن وصل حسن باشا التركى بجيوشه الى الاسكندرية فجأة كأنه قد سبق السيف العزل

هذا المثلان يعطيانا فكرة عن المعاملة التى لاقاها النزلاء الاجانب فى مصر ثم تظهر لنا أيضاً أى عقلية كان يتمتع بها أولئك المماليك



علاقة المماليك بالخلافة الاسلاميه

— ١٦ —

بقيت الخلافة الاسلامية فى بغداد عاصمة العراق حتى اجتاحها المغول بقيادة هولاكو من بغداد . فقد خرب هذه المدينة وأهلك أكثرأهلها وخصوصاً العباسيين أرباب الخلافة الذين تعقبهم واحداً بعد واحد . وقد فكر بيبرس بعد توليه عرش مصر بعام واحد سنة ١٢٦١ م إن يعيد الخلافة العباسية وان يجعل مقرهامصر ، وكان غرض بيبرس من ذلك ان يوطد مركزه ضد أعدائه لاستمداده السلطة من سلطة عليا رسمية هى سلطة الخلافة . وكان أهم من ذلك لديه القضاء على نفوذ الشيعة الذى كان لايزال باقياً فى مصر منذ عهد الفاطميين بتولية خليفة سنى ، فارسل رسله لهذا الغرض باحثة عن أى عباسى تكون قد أخطأته مذبحة هولاكو فعثر على عباسى مختف فى سوريا ففرح بالعثور عليه فرحا لايوصف وفعلا ارسل لعماله فى سوريا باكرامه وتنظيم موكب حافل يعود به العباسى إلى مصر . وعندما جاءت البشائر بقرب مقدم الموكب خرج السلطان بنفسه بموكبه الفاخر وحاشيته لانتظار العباسى القادم خارج المدينة ، وقد تبع السلطان فى خروجه جميع أهل الملة من المسيحيين واليهود . الاولون يحملون فى أيديهم الانجيل والاخيرون يحملون التوراة . وقد دخل العباسى الى المدينة دخول الفاتح المنتصر ، فى موكب لامثيل له من الوجاهة والفخامة بين تهليل الناس وافراحهم وسار الموكب الى القلعة حيث بويع للعباسى بالخلافة ودعى « المستنصر بالله » وأقسم له بيبرس ورجال حكومته على الخضوع والامتثال ، وفى نفس الوقت قلد الخليفة بيبرس سلطنة البلاد وعند صلاة الجمعة دعى فى الخطبة لآل عباس ، وعقب ذلك وقف الخليفة ودعا للسلطان بدوام الملك والبقاء .

ودامت الافراح بعد ذلك فى القاهرة لمدة شهر . وفى احدى هذه المهراجانات، قام العرب والمماليك بمبارزات حبية على النيل فى جهة بولاق . وبعد نهاية هذه

المبارزات خلع الخليفة على السلطان الخلع وهى « جبة سوداء وعمامة بنفسجية وطوق من الذهب ، وقلده سيفاً عربياً » ومنحه تقليد المملكة بعد ان تلاه عليه وفيه حث للسلطان على نصر الاسلام والدفاع عنه والحرب فى سبيله ، وواجباته نحو الرعية والعدل بهم والاشفاق عليهم ، وتلت ذلك أفراح لاتحصى فقد تلقى بيبرس هذا التقليد بين دق الطبول وعزف الزمور وتهليل الناس وتكبيرهم وعاد الموكب بعد ذلك فى طريقه الى القلعة فى مهرجان ليس له مثيل ، فقد كانت المدينة مزينة والطرقات من بولاق حتى القلعه مفروشة بالبسط . وقد سار الموكب بالترتيب يتقدمه السلطان ويتبعه الخليفة ومن خلفه الوزير على صهوة الجياد وأما الجند والشعب فقد تبعهم على الأقدام بين أصوات الحبور والافراح حتى القلعة وكان منظر ذلك الموكب من المناظر التى لايمكن وصفها ولا يحيط بها العقل لما احتوته من وسائل الفخامة ومظاهر الملك .

وقد أراد بيبرس بعد ذلك ان يقوم بخدمة للخليفة العباسى وليعزز مركزه بأن يعيد اليه خلافته العباسية فى بغداد وفعلا أعد جيشاً قوياً مدرباً ليقاتل به هولاكو . ولو أخلص بيبرس النية لهزم التتار هزيمة مؤكدة الا انه فى أثناء خروج بيبرس مع الجيش الى سوريا أسر اليه بعض الامراء انه فى تكوين خلافة عربية قوية فى بغداد خطر داهم على استقلال مصر ، وعندئذ صمم بيبرس على نفض يديه من مسألة الخليفة وتركه يخرج وحده مع جماعة قليلة من الجند لملاقاة التتار وفى أثناء سيره تركته المماليك وحيداً وانفضوا من حوله فانقض عليـــه المغول وقتلوه هو وحاشيته شر قتل

وعاد بيبرس فى أثناء ذلك الى مصر حيث وصلته أخبار هذه الفاجعة الأليمة ، التى كانت من تدبيره ووضعه ليتخلص من الخليفة الذى أعطاه من السلطة نفوذاً هائلا والذى قدمه عليـــه فى كل شىء ، وفى هذه المرة لم يقع فى مثل ماسقط فيه فى المرة الأولى من الهفوات فاحتاط لنفسه وولى أحد سلائل العباسيين أيضا الخلافة الا انه لم يعطه من السلطة شيئا ولم يجعل له أى نفوذ أو دخل فى شئون الدولة وجعله شخصاً عادياً فى الحاشية مراقباً سجيناً لايبارح القلعة الا باذن السلطان . ومنذ ذلك الوقت أصبح الخليفة وليس له من من الخلافة الا اسمها .

والعمل الوحيد الذى كان يقوم به هو أن يتمم الحاشية فى المهراجانات الرسمية المهمة ، وأهم عمل كان يقوم هو به ان يعترف بالسلطان الجديد ويمنحه البركة بصفته أكبر رئيس دينى اسلامى .

بقيت الحالة كما كانت منذ عهد بيبرس حتى عام ١٤١٠ — ١٤١١ م عند ماثار المماليك على السلطان فرج بن برقوق وقتلوه واجتمع العلماء والمشايخ وزعماء المماليك ، ولما كان الخليفة زعيم الثورة لاتهامه فرج بالخروج على الدين الاسلامى لضربه سكة للمملكة جعل عليها صورته ! ، فقد اجتمع الزعماء وطلبوا الى الخليفة العباسى ان يرتقى الى العرش ليصون الشريعة والدين من تلاعب المارقين ، وكان « عباس » الخليفة يرفض هذا المنصب لانه يعلم مقدار قوة المماليك وضعفه أمامهم ، فاشترط لقبوله العرش انه اذا خلع من السلطنة يحتفظ لنفسه بمركز الخلافة ، وقد تولى العرش عام ١٤١٢ م وهو فى سوريا « ولقب بالخليفة الامام المستعين بالله » وعاد فى ابهة هائلة الى عاصمة ملكه وقد فرح الناس بهذا الحادث فرحا جزيلا لتوقعهم انتعاش الخلافةبعودة النفوذ الزمنى اليها.

ولكن المماليك لم يستكينوا لذلك وسرعان ماأصبح الخليفة سجينهم حال عودته لمصر ، وقبض زعماؤهم على أزمة الأمور ثم حدث بعد ذلك بعام واحد إن ثار ثائر البدو فانتهز « شيخ » أكبر زعماء المماليك والحاكم الحقيقى للبلاد فى ذلك العصر، هذه الفرصة وطلب بوجوب تعينه سلطانا على البلاد لصالحها وصالح الحكومة ، وفعلا خلع عباس من العرش والخلافة وأرسلهسجينا إلىالاسكندرية ووثب شيخ بعد قليل الى العرش ، ومنذ ذلك الوقت حرمالخليفةمنجميعامتيازاته وأصبح عمله الوحيد ان يتبع الجيش فى جميع غزواته ليمنحه البركة

وقد بقيت الاحوال مرعية كما ذكرنا حتى خرج الغورى إلى حرب السلطان سليم فى موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦ م ، وذكرنا فى غير هذا المكان انكسار جنود المماليك وانحياز بعض قوادهم الخونة مع الخليفة والقضاةإلىالسلطانسليم ، وقد رافق الخليفة (المتوكل) سليما فى غزوه لمصر وبقى فى معسكره طول مدة حرب سليم للسلطان طومان كما أوضحنا ذلك ، وقد منح سليمفىبادىءالامرالخليفة سلطة عظيمة حتى انه ما كان ينفذ حكما شرعياً فى مصر الا بعد موافقته وقد رأينا

أيضاً قبول شفاعته فى كثير من الزعماء والعلماء .

ولما بارح سليم القاهرة استصحب معه الخليفة وجميع سلائل العباسيين ، إلى القسطنطنية ، وقد ساروا مهانين محتقرين ، واعتبروا أفراداً عاديين فى حاشية السلطان سليم ، وذلك لانه اتهم الخليفة بأنه لم يحافظ على أموال اليتامى التى عهد بها اليه بحكم وظيفته الدينية فى أثناء الهجوم على القاهرة ، ولذا ما كاد الركب يصل الى القسطنطينية حتى سجن فى حصن « القلاع السبع » فى ضواحى العاصمة التركية وبقى سجيناً معتقلا فى القلعة حتى مات السلطان سليم . وتلاه على العرش السلطان سليمان القانونى ، فأذن للخليفة البائس إن يترك معتقله فاستوطن القسطنطنية وعاش بقية أيامه زاهداً يتناول مرتباً بسيطا من خزانة الحكومة التركية

وتنازل الخليفة بعد ذلك عن الخلافة لسلاطين آل عثمان ، فلقبوا بألقاب الخلافة من ذلك اليوم وبقيت فيهم حوالى أربعة قرون إلى ان الغاها بطرد سلائل العثمانين من تركيا الغازى مصطفى كمال باشا .

وبعد ان أصبح الخليفة شخصاً عديم الاهمية بتنازله عن ألقابه ووظيفته سمح له بالعودة إلى القاهرة ، ولا نعلم بالضبط تاريخ عودة « المتوكل » الى مصر لان مصدرنا الوحيد فى هذه الفترة « تاريخ ابن اياس » ينتهى حتى عام ١٥١٢ م ولم يذكر فيه شيء عن تاريخ عودة الخليفة فلا بد ان قد عاد بعد هذا التاريخ .

ولما وصل الخليفة المنزوع الى مصر ، أثار الناس والعامة والعلماء وبقايا المماليك فتنة عامة ضد الاتراك وحكمهم ، ورأس بنفسه هذه الثورة ولكن الثورة فشلت فشلا نهائيا . وقضى الخليفة نحبه بائسا عام ١٥٣٨ م

المماليك والامتيازات الاجنبية [1]

تخضع مصر اليوم لنظام الامتيازات الأجنبية التى تفرضها علينا المعاهدات التى ارتبطت بها تركيا مع الدول الأوربية . وأهم هذه المعاهدات وأولها هى التى وقع عليها السلطان سليمان القانونى (الذى سمى قانونيا لسنه هذه القوانين) وفرانسوا الأول عام ١٥٣٥ ، ثم تلتها معاهدة أخرى بين الدولة العثمانية وانجلترا فى سنة ١٥٧٩ ، وبينها وبين هولندا عام ١٥٩٨ ، وبينها وبين المجر عام ١٦١٥ وروسيا عام ١٧٠٠ ، ومملكة نابولى عام ١٧٤٠ ، ومملكة دنماركا فى سنة ١٧٥٦ واسبانيا عام ١٧٨٢ ، وأميركا عام ١٨٣٠ ، ومعاهدة أخرى مع فرنسا عام ١٧٤٠

ولكننا نتساءل هل كانت هذه النظم جديدة فى حكومة المصريين ، وهل عرفها المصريون قبل عام ١٥٣٥ عندما وقع الأتراك أولى هذه المعاهدات السالفة الذكر ؟

الواقع ان المصريين عرفوا هذه الامتيازات ، وكانوا هم أول من استخدمها فى حكومة بلادهم فاذا نظرنا فى تاريخ مصر ورجعنا الى عام ١١٧٣ قبل ظهور دولة الأتراك ، وجدنا ان السلطان صلاح الدين الأيوبى أبرم معاهدة مع جمهورية « بيزا » فى ٢٥ سبتمبر من تلك السنة لتنظيم شئونه مع الأجانب . نقتصر على ذكر ماورد بديباجتها نقلا عن كتاب فيليب جلاد :

« بسم الله الرحمن الرحيم — هذه صورة الوفاق الذى أبرمه صلاح الدين مع

---

[1] الامتيازات الاجنبية نظام نشأ فى مصر من عهد طويل يرجع الى أيام صلاح الدين الايوبى ولكنه توطد وتثبتت أركانه على أيدى المماليك . فلما فتح الاتراك مصر على يد سليم الاول انتقل هذا النظام الى تركيا عن طريق مصر . وليس العكس الشائع صحيحا

هذا المقال وضع لاظهار الخطأ الفاحش القائل بأننا ورثنا هذا النظام عن تبعيتنا للسيادة التركية وعلى ذلك عندما نبحث فى الامتيازات الاجنبية يجب ان نبحث على ضوء هذه الحقيقة وهى أنها منحة من مصر للاجانب وليست حقوقا لهم وان مصر التى منحت يمكنها ان تسترد الهبة عند الحاجة

جمهورية بيزا بواسطة الدبران والوزير المرسل اليه من قبل القناصل . يقول فيه صلاح الدين ان الاحكام الآتى ذكرها يجب ان تكون نافذة فى عموم سلطنتى ، وينبغى ان يحاذر الجميع مخالفة أوامرى فى كافة مملكتى . وعلى جميع رعاياى أن يراعوا الاتفاق الصادر عنى ويحترموه لان كتابتى واجبة الاعتبار فى أيدى البيزانيين وحال ابرامى هذا العقد والوفاق أنا صلاح الدين كانت السنة ١١٧٤ لميلاد سيدنا عيسى الموافقة لعام ٥٦٩ للهجرة النبوية صلى الله على صاحبها وسلم ، اذ فى السنة المرقومة حضر إلى بلاطنا الملوكى ذو العظمة والعدل حضرة الدبروملبق رسولا مكرماً من قبل قناصل بيزا وأحضر معه الكتب من قنصلية الجمهورية المشار اليها فاستمعنا أقواله من فيه وتلونا الكتب التى أحضرها ، ففهمنا منها ان البيزانيين راغبون فى ولائنا واطاعة أوامرنا والمجىء الى ممالكنا كما فى الماضى . وقد فهمنا أيضاً من الرسول المومى اليه ومن الكتب المذكورة انه ، أى الرسول المذكور حضر باسم قناصل بيزا وجمهوريتها بحيث اعتبرنا ان لسانه لسانهم ويده أيديهم وان كل ما أجريناه نحن صلاح الدين معه يكون جاريا نافذاً بتمامه . وبعد ان تحقق لدينا انه حضر باسم جميع قناصل بيزا وجمهوريتها أدخلناه الى بلاطنا الملوكى وسألناه عن السبب الذى ألجأ القناصل والجمهورية لارساله الينا وعما يريده منا لنجيبه بكلام يعود لشرفنا وشرفهم ويكون سبباً للولاء والسلم فيما بيننا . فتكلم الرسول بكلام نذكره لكم وأجبناه بما أجبناه فنذكر جوابنا لكم . وقد أثبتنا كل ذلك فى عقد يحفظونه فى أيديهم كشهادة من بيننا وبينهم تثبت الوفاق الذى قررناه فيما بيننا . ومن مقتضى الوفاق المذكور انه اذا حدث أمر مخل من رعاياى أنا صلاح الدين فى الديار البيزانية أو من البيزانيين فى ممالكى يرجع كل منا الى الوفاق المذكور كأنه شاهد علينا لزمن طويل . ذلك ماسبب حضور الرسول المشار اليه الى بلاطنا الملوكى فى مراعاة لمصلحة التجار الذين يجيئون الى بلادنا ويحضرون معهم أصناف السلع والبضائع ويؤدون عليها الرسوم »

وبقيت معاهدة صلاح الدين هذه مرعية ومعتبرة مع الأجانب عموماً فى الديار المصرية حتى جاء عصر المماليك ، وفيه كثر ورود الأجانب الى هـــذه الديار

واتخذوا التجارة ونقل البضائع مهنة لهم فى السواحل المصرية ، ولما كانت حاجة المماليك اليهم عظيمة فى تصريف تجارة الشرق التى احتكروها أباحوا للاجانب الاستيطان فى الديار المصرية ، والبقاء فيها بقصد الاتجار فاصبح لهم قناصل فى جميع الموانىء والسواحل وداخل البلاد وعقد السلطان أبو النصر مع جمهورية فلورنسا سنة ١٤٨٨ معاهدة تنظم حقوق الأجانب وامتيازاتهم فى الديار المصرية والبلاد التابعة لها وهذا طرف مما جاء بها نقلا عن كتاب لطفى بك صفحة ١٥ :

« بسم الله الرحمن الرحيم — هذا أمر السلطان السامى رفع الله شأنه وأعلى مقامه — أننا نعرف جميع الولاة والحكام وولاة المسلمين المحمديين وكتاب سرنا المستخدمين فى مدينة الاسكندرية حفظهم الله وفى سائر مرافىء مملكتنا السنية الاسلامية ان المؤدب « لويجى دبلاستوفا » المرسل من قبل السلطان حاكم الفيورنتيين تقدم الى بابنا العالى وبعد ان أسعد بالجلوس فى حضرتنا السنية وعرض علينا باسم رئيسه الاشياء المتعلقة بامة الفيورنتيين وتجارها والمعاهدات التجارية السابق عقدها من السلاطين سلفائنا .. (من هذا يستدل على ان أمر هذه المعاهدات سابق لهذا التاريخ) التمس من مراحمنا تجديد المعاهدات المذكورة وتثبيتها بأمر سام منا فبناء على ذلك أمرنا جميع وزرائنا بأن يطيعوا أمرنا هذا ويقوموا بتنفيذ المعاهدات الآتى ذكرها بمزيد العناية والدقة »

وفى البند الرابع عشر من هذه المعاهدة تنظيم لحالة وقوع الخلاف بين الأجانب مما ينص على عدم تدخل الحكومة المصرية فى ذلك ، فجاء مانصه :

« اذا وقع خلاف ونزاع بين الفيورنتيين أنفسهم ليس لحكامنا وقضاتنا المسلمين ان يتداخلوا فى مسائلهم ، ولكن الحكم فى ذلك عايد لقنصل الفيورنتيين فيحكم فى مثل هذه الحالة بما يناسب القوانين الفيورنتية . هذا مانأمر باجرائه »

ويظهر لكل من يطلع على نصوص المعاهدات التى صدرت من المماليك للاجانب أنها تقضى بمحاكمتهم فيما يقع بينهم وبين المصريين من الخصومات أمام السلطة المحلية ، وانهم يعاملون حسب قوانين البلاد وكانت اذ ذاك تتبع نصوص الشريعة الاسلامية . ويؤيد ذلك ماورد صريحا بالمرسوم الشريف الصادر من

الملك قايتباى للفيورنتيين فى السابع من شهر جمادى الآخرة سنة ٩٠١ هـ ، ان من شروط البنادقة انه اذا وقعت محاكمة أو مخاصمة بمال أو غيره من مسلم على بندقى أو على مسلم من بندقى تكون المحاكمة مرفوعة الى الأبواب الشريفة ، ان كانا بالابواب الشريفة أو الى النائب أو الحاجب أو الى المباشرين بالثغر ، وألا يحكم بينهما غير المشار اليهم ، فرسم لهم باجرائهم فى ذلك على العادة والشروط القديمة ومنع من يعقد الحكم بينهم غير المشار اليهم الا بمقتضى الشرع الشريف »

وجاء بالمرسوم الشريف السالف الذكر مانصه :

« ذكر ان من شروط البنادقة ان ثم من الخاصكية والمماليك السلطانية والبريدية الذين يحضرون الى ثغر الاسكندرية من يشوش على طائفة البنادقة ويسجنهم ويهينهم ويضربهم قصداً لقطع مصانعتهم بغير مستند. ولا طريق نرسم لهم بمنع المذكورين من التعرض اليهم إلا بطريق أو مرسوم شريف . و كذلك لايسجنهم النائب ولايضربهم ولايمكن أحداً من التشويش عليهم ولامن يعارضهم الا بمستند شرعى أو بمرسوم شريف . واذا طلب أحد من البنادقة الحضور الى الأبواب الشريفة لا يمنع ولا تغلق عليه الابواب بل يمكن من البيع من غير تعويق . فالجناب العالى يتقدم باجراء جماع الفيورنتيين المذكورين على عادة البنادقة المذكورين ومنع من يشوش عليهم أو يتعرض لهم من المذكورين إلا بمستند شرعى أو بمرسوم شريف . ومن طلب منهم الحضور الى الأبواب الشريفة يمكن ولا يعوقه عن حكم شروط البنادقة المذكورين »

ومع عظم هذه الامتيازات والحقوق لم يكن يسمح لقناصلهم بالتدخل فى شئون الحكومة الا عند وفاة أحدهم ، ففى هذه الحالة فقط يصح للقنصل ان يضع يده على متروكاته بدون تدخل السلطة المحلية ، وقد ورد ذلك بالمرسوم الشريف المذكور أيضا « ذكر انه من العادة فى الشروط القديمة من الملوك السابقين انه اذا هلك أحد من طائفة البنادقة لايتعرض أحد من المسلمين لموجوداته بل يكون جميع مايخلفه تحت يد القنصل أو رفقته من التجار ، فرسم لهم بمنع من يتعرض لموجودات من يهلك منهم ، وان يتولى أمر الهالك القنصل أو رفقته حملا على

جارى العادة وما تضمنته الشروط المشار اليها ،

وقد وردت أكثر هذه النصوص فى المجموعة التى عنى بجمعها العلامة الايطالى المستشرق المسيو « امارى » واستخرجها من مكتبة فلورنسا وطبعها . وقد وجدنا بها أمراً عاليا صادرا من السلطان قايتباى لجماعة الفورنتيين (أهالى فلورنسا) فى ١٧ جمادى الآخرة سنة ٩٠١ يسمح لهم بالتجارة بثغر الاسكندرية واقامة قنصل لهم ، ووجدنا بها اتفاقا بين السلطان قانصوه الغورى وملك الفيورنتيين فى ١٤ ربيع الأول سنة ٩١٠ هـ يسمح باقامة قنصل للفيورنتيين فى مدينة الاسكندرية

واليك نموذجا من هذه المعاهدات القديمة وهو نص أمر عالى صادر بالسماح للفيورنتيين بأن يحضروا الى موانىء الاسكندرية ودمياط والبرلس ورشيد لاجل التجارة

« الاسم الشريف — مرسوم بأن يتقدم كل واقف عليه من جماعة الفيورنتيين وفقهم الله تعالى باعتماد ما تضمنه هذا المرسوم الشريف والعمل به على ماشرح فيه

« بسم الله الرحمن الرحيم — رسم بالامر الشريف العالى المولوى قانصوه — السلطانى الملكى الأشرفى السيفى أعلاه الله تعالى وشرفه وأنفذه وصرفه ان يسطر هذا المرسوم الشريف الى كل واقف عليه من جماعة الفيورنتيين وفقهم الله تعالى . يعلمهم ان المجلس السامى الاميرى الكبيرى العضدى الدحرى الاوحدى الاكملى السفى تغرى بردى الترجمان القاصد أدام الله سعده حضر الى خدمة أبوابنا الشريفة ، وذكر لنا أنه جهز اليكم أماناً شريفا لايحصل معه تشويش على أحد . فقد أحاطت علومنا الشريفة بذلك وهو ناشىء عن مقامنا الشريف سمحنا لكم ان تحضروا الى ميناتنا الشريفة وتبيعوا وتشتروا أسوة ببقية التجار . وعليكم أمان الله تعالى وأمان رسوله (صلعم) وأماننا الشريف ورسمنا بمنع من يتعرض لكم بأذية أو ضرر أو تشويش وألا يطالب الاب عن أبيه ولا أخ عن أخيه الا بمستند فى الثغر الاسكندرى أو فى ثغر من ثغور الاسلام بمستند شرعى فيتقدموا باعتماد مارسمنا من ذلك على الحكم المشروح أعلاه ويحضروا الى ثغور مملكتنا الشريفة طيبى القلب متشرحى الصدر آمنين على أنفسهم وأموالهم لايمسهم ضرر ولا سوء فيعلموا ذلك ويعتمدوه والله الموفق بمنه وكرمه

« وفى ثانى عشرين شهر جمادى الآخرة المبارك سنة ثلاث عشرة وتسعمائة حسب المرسوم الشريف ـــ الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ـــ نعم الوكيل ـــ حسبنا الله تعالى ـــ تم بحروفه

واستمرت هذه القوانين متبعة بل زيد فى الحرية التى أعطيت للاجانب استجلابا لهم للحضور الى هذه الديار فكثر عدد الوافدين منهم وأكثروا من الاستيطان خصوصا فى بلاد السواحل . وكان أكثر هؤلاء الاجانب من البندقية ومن أهل بيشا وفلونسا وكانت كل طائفة منهم تنزل فى خان خاص بها يقفل من الداخل فى المساء ولا يفتح عند الحاجة الا باذن من القنصل وكانت محلة الفرنسيين بالاسكندرية تدعى Fondique (١) ومنها أخذت كلمة فندق التى تستعمل الآن كأنها عربية صحيحة . وقد أضاع الاتراك على المصريين احتكارهم للتجارة ، وزاد الطين بلة اكتشاف البرتغاليين لطريق الرجاء الصالح وقضاؤهم على الاسطول المصرى فى ميناء الهند فى موقعة ديو ١٥٠٩ م ـــ وكان من أكبر من غلطات الاتراك مهاجمتهم لاملاك جمهورية البندقية واستيلاؤهم عليها ، وبذلك فقدت الديار المصرية أهميتها التجارية ، وضاعت قيمة جمهوريات البحر المتوسط ، فقل خروجهم للتجارة فى موانىء الشرق ونزح الاجانب عن الديار المصرية ، وبذا أصبحت هذه القوانين عديمة الاهمية لعدم وجود الاجانب فى الديار المصرية

وجاء عصر الاتراك بعد ان قضى سليم الاول على سلطان الامبراطورية المصرية فى مرج دابق سنة ١٥١٦ م فبدأ نزوح الاجانب الى العاصمة الجديدة (الاستانة) وسمح لهم أولا فى الاستيطان فيها بالشروط التى كانت تمنح لهم فى مصر ، ولما كثر عددهم فى تركيا فى عهد السلطان سليمان بدأ يفكر مع حليفته فرنسا فى تنظيم علاقاته مع الاجانب لكى يفدوا بالمتاجر لبلاده ، ولكى يضارب بهم نفوذ البرتغال الذى سلبه سلطان مورثيه المصريين فى الشرق ، فعقد مع الملك فرنسوا الاول عام ١٥٣٥ م أول معاهدة لامتيازات الفرنسيين فى الديار التركية وتلتها غيرها كما

ـ ١ ـ بقيت هذه الدار حتى عهد الحملة الفرنسية ونزل فيها بونابرت عند قدومه الى الاسكندرية بحملته الشهيرة

أسلفنا فى صدر هذا المقال . ومضمون كل هذه المعاهدات لايختلف بنصه عما كان المماليك يمنحونه عادة للاجانب

وكان من الواجب بالطبع على محمد علي باشا ومن خلفه من الخديويين احترام المعاهدات التى أبرمتها الدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر مع الحكومات الاوربية . ووجوب تنفيذ مامنحه سلاطين آل عثمان من الامتيازات للاجانب كما ورد بفرمان تولية محمد على المؤرخ فى أول يونيه ١٨٤١ م ففيه ان السلطان يسلمه مقاليد الحكم على البلاد المصرية ولكن يلزمه احترام جميع المعاهدات التى أبرمت والتى ستبرم بين الحكومة العثمانية وغيرها من الدول . وقد أجاب محمد على عن ذلك فى خطاب رفعه الى الصدر الاعظم فى ٢٥ يونية سنة ١٨٤١ م انه سيقوم بتنفيذ جميع المعاهدات المذكورة بالديار المصرية

* * *

فانت ترى من هذا ان الامتيازات الاجنبية نظام نشأ أولا فى مصر وانتقل الى تركيا من مصر بحكم وراثتها لسلطان مصر فى الشرق ، ولم ينتقل الينا عن طريق تركيا كما هو شائع خطأ



بدائع الفن فى هذا العصر

كانت مصر ولا تزال قلب الشرق العربى ، ومصدر الحضارة والفن للعالم الاسلامى ، فكان ارتقاء الفن العربى فى العالم عبارة عن سلسلة تطوره فى مصر . ولما قيض الله لمصر استقلالها حقبة طويلة وزعامتها على غيرها من الممالك العربية لابل على العالم العربى كله خصوصاً فى عهد المماليك ، كان درسنا للفن المصرى فى عهد المماليك هو دراسة تفصيلية لرقى وانحطاط الفن العربى

وستمهد للفن العربى فى عصر المماليك بكلمة صغيرة عن رقى الفن فى العصور التى سبقته ، ولا يفوتنا أن نذكر اننا كتبنا هذا الفصل مستعين بدليل دار الآثار العربيه

العصر الايوبى

كما يعلم من الفصول السابقة ان صلاح الدين انقذ بيت المقدس من الصليبيين بعد ان مكثوا به ثمانية وثمانين عاما ، فكان ذلك داعية لاتصال المشرق بالمغرب ، ذلك الاتصال الذى كان له اكبر أثر بين الابنية الاسلامية ولم يظهر ذلك دفعه ولم يكن بالشامل العام لجميع البلاد بل كان مبدأ ظهوره فى الشام حيث جاءها الصليبيون بكل مامن شأنه ان يساعدهم على تكوين امة صليبية

كانت غاية الصليبيين الاستيطان فى تلك البلاد التى كانوا يأملون أن يمتلكوها بالفتح حتى ان تنقلهم فى البلدان والقرى كان مقرونا بتشييد الكنائس وكان المسلمون اذا انتصروا عليهم يقلبونها مساجد . ولبث بيت المقدس فى يدهم حتى سنه ١١٨٣ هـ وحينما حلت أقدام الصليبيين بنوا الابنية العظيمة على طريقتهم

الغربية فتعلم مهندسو الشرق اشكالا جديدة وهم وان لم يقتدوا تماما بهذا الطراز المغاير لطرازهم الا أنهم قدروه ووعوا صيعته حين رأوها قريبة الانطباق والاتفاق مع طريقتهم فى العمارة

وكان صلاح الدين مؤسس هذه الدولة رجل حرب يميل الى العمارات الحربية ولتقدم فى العمارة لم ير من اللائق الاكتفاء بقصر الفاطميين فطلب الى وزيره الامين بهاء الدين الخصى قراقوش مسكنا جديداً فوق المقطم فبنى له قلعة الجبل وهى القلعة الحالية وعزم على توسيع اسوار المدينة ولكن لم تتحقق كل أمانيه فى ذلك وكان الحجر اللازم لهذه العمائر الكبيرة يؤخذ من هرم الجيزة الصغير

هذا ولم تقتصر همة بنى ايوب على الابنية العسكرية بل بذلوا الجهد الكبير والعناية الزائدة فى العمائر ذات المنفعة العمومية ، اما محلات العبادة والابنية الخيرية فاتبعوا فى تشييدها أوضاعا مخصوصة يظهر ان الموجب لاتخاذها أوجه سياسية وذلك ان الدولة التى خلفتها الدولة الايوبية كانت شيعية وكان مذهبهم منافيا لمذهب أهل السنة فلما أراد السلاطين من بنى أيوب أن يحيوا فى البلاد مذهب أهل السنة الذى خرج منه كثير من أهله فى عهد الفاطميين انشؤا مدارس كثيرة لتدريس المذاهب الاربعة . (١)

وهذه المدارس عبارة عن بناء فى وسطه صحن كبير مربع وفى كل جانب من جوانبه الاربعة ايوان مقبب فيصبح شكلها بهذا الوضع الشكل المتعامد . وهذه المدارس تبنى دائما على سمته القبلة ويتخذ فيها المحراب ومن ثم يرى بالسهولة ان المدرسة لا تخرج عن كونها جامعا من حيث تفاصيل اجزائها الاساسية بل انه لم يفرق فيما بعد بين المدارس والجوامع واستمر اتخاذ الشكل المتعامد زمنا مقارنا للاشكال القديمة ذات الايوانات وانما كان يرجع عليها فى المساجد الصغيرة

ويجدر بنا هنا ان نوفى المدارس حقها من البحث فنقول ان اقدم المدارس التى لا تزال لها بقية هى مدرسة السلطان الكامل التى بنيت فى سنة ٦٢٢ هـ وهى الآن خراب . ولم يبق شىء مما كان فى منتصف القرن الماضى يروق زائرها من المنظر البهيج

---

١ — اول مدرسة اسست بمصر هى مدرسة الناصر بقرب جامع عمرو وكان يدرس بها مذهب الامام الشافعى (راجع المقريزى صفحة ٣٦٣ جزء ثانى) وفى مدرسة السلطان الصالح نجم الدين وجدت للمرة الاولى أربع منابر للمذاهب الاربعة (راجع المقريزى صفحة ٣٧٤ جزء ثانى)

وان كانت لاتزال اوضاعها الاصلية ظاهرة وقد نقل ما كان باقيابها من زخارفها الثمينة الكثيرة الى دار الآثار العربية وحفظ بالغرفة الثالثة وهذه الزخارف متممة لما عثرنا عليه فى جامع الصالح طلائع الذى بينه وبين المدرسة المذكورة تقارب كثير .

وبالمدارس التى شادها السلطان الصالح نجم الدين بعد المدرسة الكاملية بثمان عشرة سنة دقائق خاصة وهذه المدرسة عبارة عن بناءين منفصلين عن بعضهما بدهليز يدخل اليه من تحت المنارة وهى وان كان فى وجهاتها ما فى الجامع الاقمر من الحنيات التى سبقت الاشارة اليها الا ان الزوايا الداخلة للسقف استدارت اضلاعها بوجود المقرنصات فى جزئها العلوى .

وفى هذه المدارس استخدمت المقرنصات فى غير ما استخدمت فيه فى الجامع الاقمر فتراها مستعملة استعمالا بديعا فى علو حنية المناره (١) ومن جملة الزخارف الخصوصية لهذه المدارس العصابات المفلجة ونقوش اخرى اتخذت نموذجات للزخرفة فى كثير من آثار الاعصر التالية . ومما ينسب لهذا العصر أيضا من الترقى فى ضروب من العمارة اتخاذ مقرنصات زوايا القباب فان خرطوم الزوايا بعد ان كان مدونا من حنية واحدة كما فى جامع الحاكم أصبح مركبا من مجموعة حنيات اذ عملت مقرنصات فيه السلطان الصالح وقبة الامام الشافعى المعاصرة له تقريبا على هذا النسق .

ويظهر تأثير الغرب فى المبانى الشرقية ظهوراً تاما فى تربة السلطان الصالح التى بنيت بعد عمارة مدارسه بسبع سنوات وهى تتصل بنافذة فى حائط الايوان ولها وجهة رسمها مثل رسم وجهة هذه المداوس ان لم نقل من كل وجه فعلى الاقل فى العموميات . فمن دلائل هذا التأثيرات الغربية الافريز العلوى المنقوش فيه ورق شجر مثنية اطرافه اذ لا يتردد المتأمل فيه فى ادراك اصله الغربى يؤيد ذلك الخطأ الحاصل فى الوضع والتطبيق لان الافريز جاء وضعه قائما عند الباب فيظهر انه مختص له على حسب الشكل العربى بحيث ان الاوراق ترى مغايرة لوضعها الطبيعى اما التربة الملحقة بالمدرسة فهى من الابتداع الجديد الذى لا يخفى موقعه من الاهمية ولم يزل ينسج على منواله فى العصور التالية ومن لوازمه وجود القبة فوق التربة .

(١) بالجزء العلوى من المنارة كثير من المقرنصات ولكنها ليست من عهد بنائها بل من وقت اصلاحها

وفى هذه المدارس يلاحظ ايضا تحسين ظاهر فى صناعة نقش الاخشاب بالنسبة لماكانت عليه فى بنايات الفاطميين اذ استبدلت النقوش ذات الرسم الواسع بنقوشات عربية دقيقة ولكن للاسف ان بين هاتين الطريقتين فترة طويلة ضائعة آثارها اذ ان الاخشاب ذات النقوش التى اصلها من جامع الصالح طلائع ليس لدينا منها الا اوتارا من عهد تشييده ومن ثم ننتقل دفعة واحدة من غير تدرج الى مصاريع التربتين اللتين سبق الكلام عليهما أعنى تربة الصالح وضريح الامام الشافعى وحيث كان باب هذا الضريح من سنة ٦٠٨ هـ فيكون بين هذين الضريبين من النقوش نصف قرن تقريبا . وبعد هذا التاريخ تقدمت صناعة الخشب المشغول بسرعة وبلغت درجة من الاتقان عالية

وقبل لن نختم الكلام على قبر الصالح نجم الدين لا بجد يدا من ذكر الوزرات الرخام المحلى بها داخله فان رسمها ليس عليه مسحة من البهاء وكل من يراه لا يصدق التقدم العظيم الذى حصل بعد ذلك بعشرين عاما

عهد المماليك البحرية

فى الايام الاولى من حكومة المماليك البحرية نجد فى البنايات من الاشكال ومادة الصناعة ما يجد النقاش اصله فى غير مصر وبين الزخارف المتخذة من الجص المحلى بها جامع الظاهر بيبرس الكبير الذى بنى فى سنة ٦٦٥ هـ وبين طراز الواجهات المنسوج على منواله فى ابنية قلاوون تشابه عجيب وكلاهما عليه مسحة تدل على انه من غير صناعة اهل البلاد ولا شىء يدل على عدم التقيد فى الصناعة بضابط مخصوص ولا قواعد مربوطة مثل الواقعة الآتية : وهى ان محمداً الناصر لما انشأ المدرسة المنسوبة اليه فى القاهره اصطنع الباب من مواد اصلها من بوابة من الطراز القوطى أخذها من كنيسة عكا سنة ٦٩٠هـ وجاء بها الى مصر غنيمة شاهدة له بالنصر على الصلبيين فى احدى حروبه معهم ولننبه مع ذلك إلى ان هذه الحالة التى فيها استعمل الشكل الغريب بدون تمهيد وتوفيق سابق عليه قليل المثال فى تاريخ الصناعة

على ان هذا المثال ليس من شأنه إن يحدث كبير أثر على ترقى فن العمارة العربى المطرد هذا ومع كثرة الابنية التى شادها الصليبيون فى سوريا وانتقلت أشكالها الى ماجاورها من البلاد بحكم التقليد فانها لم تصل مصر الا محورة حيث كان يوفق بينها وبين مقتضيات ذوق أهل البلد

ولذلك كان من المتعين ان يقوم سد حائل دون تغلب الاشكال المتعددة المجردة عن الضبط والتناسب على صناعة الابنية العربية . فجاء حكم محمد الناصر من أقوى العوامل على تطهير هذه الصناعة لتخير المناسب ورد غير المناسب من الاشكال الاجنبية . لأنه كان زمن امن وجد وقد كان للناس بالسلطان الناصر اسوة فى ذلك حيث سن هذه السنة اذ شاد بالقاهرة مدرسة جعل فيها قبره ومسجداً عظيما بالقلعة كما أنه أتم بناء المارستان الذى شرع والده فى بنائه قبل وفاته فاقتدى به . ونسج على منواله أهله وذووه ووجهاء دولته

وعادت النهضة التى امتاز بها هذا العصر بأحسن النتائج على الصناعة لان التردد وعدم الضبط فيها زالا وتبدلا بأحكام وصراحة

ومع كثرة التنوع الناشئة من غزارة مادة الاشكال والتراكيب ظهرت وحدة فى التصوير صريحة جليه لاالتباس فيها أضحت أساساً لطراز يعز نظيره فى الاتقان وسرى الترقى التدريجى فى وضع الوجهات وشمل القواعد والاصول التى ورثناها عن الزمن السابق فغدت سطوح هذه الوجهات تتخذ فيها مجموعة من الحنايا العالية القليلة الغور يراها الناظر فوق الجدران كأنها صفف اعدت لأن يتخذ اليها الشبابيك صفوفا وفى نهاية هذه الحنيات غطاء أفقى من مداميك المقرنصات ويرى الباب من الشكل ذاته غير ان الحنية فيه أكثر اتساعا وابعد غوراً وترتب على هذا الوضع إن كثر استعمال المقرنصات والتفنن فيها

وفى هذه الابنية اتخذت الوجهات المتقنة الصنع من حجر النحت غالبا من لونين واستعمل فيها زيادة فى الرونق الرخام الابيض والاسود وجعلت فيها المزررات البديعة فوق نفيس نوافذ الابواب المصنوعة من الرخام الابيض والاسود نادرة الوجود

وفى أعلى الوجهات أحدث طراز للكتابة ينتهى بافريز تعلوه الشرفات وفى داخل الجوامع ذوات الايوانات استعملت عمد الرخام دون غيرها دعائم وكانت تؤخذ من العمائر القديمة ولاجل أن يبلغ البناء ارتفاعاً مناسبا لحجمه كانوا يرفعون مبدأ العقود

وأما السقوف فكانت تعمل من الخشب وتنقش العوارض التى تحملها نقشا

جميلا محلى بالذهب وتعمل وزرات الجدران من الفسيفساء بارتفاع عدة أمتار وفسيفساء الارضية يضاهى فى الجمال فسيفساء الجدران والكل منسجم للغاية ويزيد البناء طلاوة . وبهاء المنبر والكرسى وكلاهما محليان بتطعيم غريب والوان مستغربة رائقة ثم الثريات المتخذه من النحاس الاحمر ومصابيح الزجاج المدهون بالمينا . وما قلناه عن الجوامع يصدق على سائر الابنية ولكن للاسف ليس لدينا من هذه المبانى عمارة كاملة الا أن الاجزاء الباقية منها تمكننا من تصور كيفية تأليف المجموع وتثبت لنا عظم العمارات التى شيدت فى تلك الايام

عهد المماليك الجراكسة

لم يطرأ فى عهدهم شىء يعوق سير الفنون فى جادة الترقى المطرد . وغاية ما يذكر فى هذا الباب هو انهم صاروا يتبعون فى تشييد المبانى الدينية الشكل المتعامد ايثارا له على غيره بحيث أصبح من النادر ان نرى جامعا ذا ايوانات لانه لما كثرت الجوامع بمصر جاء الشكل المتعامد مساعداً على تصغير حجم الجوامع الذى اقتضاه ضيق الفضاء

ولا شك فى أن هذا هو السبب فى صغر جوامع أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجرى حتى أمكن تسقيف صحونها

ولما كان من المتعين انشاء مرافق اخرى عديدة مع عدم الخروج بها عن خطوط تنظيم الشوارع التى كانت أخذت فى الاتساع احتال المهندسون على ذلك بطرق عجيبة ابتدعوها . ومن هذه المرافق الاسبلة والكتاتيب التى هى ملازمة للجوامع فى عهد الجراكسة كانوا يستصوبون اقامتها فى أظهر نواحى الجوامع . وأول جامع بنى به كتاب هو جامع الامير الجاى اليوسفى من دولة المماليك البحرية (يروى المقريزى فى تاريخه ان أول جامع الحق به كتاب هو جامع آق سنقر)

وكان المهندسون يعنون على الاخص بالقبور فلم يجعلوها فى ركن غير ظاهر من المساجد لما كان الحال فى عهد المماليك البحرية بل صارت من الجامع الجزء المهم وان كان الجامع المبنى فيه القبر عظيم الاتساع

وفى آخر القرن الخامس عشر أحييت خطة الفاطميين فصارت القبور وقبابها لحمة كانت أو غير لحمة تقام فى بناء خاص بها

وفى أيام المماليك الجراكسة أدخلت على فن البناء تعديلات عظيمة حيث توسعوا فى استعمال الحجر المنحوت وبنوا به الجدران الداخلية وزخرفوها بنقوش معتبرة وفى داخل الجوامع وفى وجهاتها كانوا يوسعون محلا للنقوش العربية والزخارف والطراز . ومع ان الخط الكوفى كان قد استبدل من زمان مديد بالخط النسخ الا أنهم كانوا يرجعون اليه لموافقته للزخرفة ولم تكن العمارات الاهلية على مايظهر من البقايا الباقية منها ، دون المساجد والمدارس فى الفخامة والاحكام فشيدت القصور فى غاية الابهة وصرف فى زخرفتها جميع أفانين الصناعة الدقيقة ، واتخذت فيها لاستقبال الزائرين مقاعد ذات بواكى تطل على حيشان واسعة ثم خصصت من بين غرف الدور القاعات الواسعة بعناية خاصة فكسيت جدرانها بالفسيفساء وموه سقفها بالذهب وركبت فيها المشربيات التى يدخل منها الضوء المشعشع وبذلك كانت مقيلا مستعذبا ومقبولا من هجير الصيف

ومن الابنية الاهلية الوكائل والاحواض وكثير منها مُحل للاعجاب هذا وآخر درجة بلغتها الصناعة الاهلية المصرية على ايام الدولة الجركسية تعرف بما كان يصرفه مهندسوها من العناية فى زخرفة الابنية من الخارج . وقد سبق لنا القول بأن مهندسى الدولة الفاطمية قد سعوا فى هذا السبيل ولكن سعيهم لم ينتج اثراً يذكر حتى عهد المماليك الجراكسة لان من مميزات العمارة العربية عدم زخرفة ابنيتها من الخارج . ولم تكن الزخرفة الخارجية قبل هذه الدولة لتتناول من اشهر الاثار غير البوابة والمأذنة وبعض المرافق الاخرى حيث يكون سائر العمارة فى غاية البساطة والتجرد من التأنق . ولكن فى عهد سلاطين الجراكسة راق المهندسين ان يجعلوا ابنيتهم شائقة فى جميع جهاتها الخارجية ولذلك امتازت الآثار التى كثرت فى مصر من ذلك العهد بالاتقان جملة وتفصيلا وهو الامر الذى اعتادت العيون ان تطالب به كل عمل من الاعمال الهندسية

عهد المماليك البكوات

اصبحت مصر فى عهد هؤلاء ايالة تركية وقلت اهميتها السياسية والادبية وكان لهذا الانقلاب اثر عظيم على مدنيتها اذ لم تعد مصر فى زمن هؤلاء الباشوات تعتبر مهداً للحضارة وأصبح لا فرق بين عاصمتها وسائر عواصم الولايات التركية

ولذا نجد ان النهضة القديمة قد وقفت تماما فى هذا العصر. وفى الواقع ليس بمصر غير ابنية قليلة تنسب للولاة الاتراك وهى اصغر من ان يكون لها قيمة فنية تعادل قيمة الابنية التى تركها المماليك فى عهديهما الزاهرين. ولم يستحدث الاتراك فى مصر الا الشكل التركى للجوامع وهو شكل اصله من كنائس بيزنطة القديمة. واول جامع استأنس فى بنائه المهندسون بهذه الاشكال البيزنطية هو الجامع القريب من الضريح المشهور بسارية الجبل الذى شيد فوق القلعة بعد عشر سنين من دخول الاتراك مصر. ويليه جامع سنان باشا الكبير ببولاق وقد بنى فى سنة ٩٧٩ ه (١٥٧١ م) ثم جامع الملكة صفية بنى فى سنة ١٠١٩ (١٦١٠ م) واهم شىء فى الوضع الجديد للجوامع اتخاذ القباب. وهذه البدعة المخالفة للتقاليد القديمة مخالفة كلية صارت هى الاساس الذى عليه المعول فى زمن الترك واصبحت تتخذ فى وسط الجوامع بعد ان كانت اشارة للاضرحة والترب فى الزمن الماضى.

ومع ذلك فقد يعثر على جوامع مبنية على الطراز القديم ولكنها قليلة جدا ويأتى مثل ذلك من الاهالى. وهذا والظاهر ان ما كان بين البيكوات والباشوات وبين المصريين والاتراك من التنازع اثر حتى على الابنية الخيرية، وقد كان بناؤهم للمساجد شيئا نادراً فانهم كانوا يؤثرون عليها ابنية اخرى دونها فى الاهمية كالأسبلة والكتاتيب والتكايا والوكائل وبعد ان كانت الاسبلة من ملحقات الجوامع صارت تبنى لها محال قائمة بنفسها. اما من حيث الحلية فاهم تغيير طرأ عليها هو استحداث القيشانى فى كسوة الجدران من داخل الابنية. اما الزخرفة فيشاهد فيها تأخر اذ لم نعد نجد مثل زخارف ايام قايتباى لان الابنية التى شيدت فى عهد الترك بسيطة تنم عن تحرى الاقتصاد خلافا لما كان يبذل فيها قصد التحسين فى الزمن الاول. وقلما تجد عمارات عليها آثار دقة الصنعة المعهودة فى الازمنة السابقة. وهذا المستثنى انما وجد فى القرن الاول من عهد الترك مثل سبيل خسرو باشا بالنحاسين. ومن بعده صارت قلة المادة الصناعية تتضح وتزداد ظهورا.

وسبب هذا ان الصناع الاجانب قلما كانوا يستأنسون بالاساليب البلدية كما ان الاهالى ما كانوا يستحسنون الزخرفة لعدم موافقتها لأذواقهم وعاداتهم وتقاليدهم

ومن موجبات انحطاط الصناعة فقر البلاد . على اننا نعترف بان الصناعة العربية مازالت متغلبة على الصناعة الاجنبية

وقد جمع فى بعض الابنية بين الطريقين ونتج عن جمعهما شكل جميل كما فى سبيل الكخيا عبد الرحمن المبنى فى سنة ١١٥٧ (١٧٤٤ م) وهو واقع فى ملتقى شارعى النحاسين والجمالية وله ثلاث وجهات وبالدور الارضى منه السبيل وله ثلاث شبابيك على الشارعين المذكورين وبالدور العلوى منه الكتاب ومصبعات هذا السبيل المصنوعه من النحاس ونقوش بروز شبابيكه ذات الاشكال النباتية وحلية الشقة المحمولة على الحرمدانات كل ذلك يشهد بانها ليست اهلية وان كان الغالب على شكل العمارة الاوضاع العربية الصرفة . وهناك سبيلان آخران يعرفان بسبيلى السلطان محمود والسلطان مصطفى وهما من بنايات ذلك العهد ولكنهما لايقاسان بسبيل عبد الرحمن كتخدا .

نعم انهما يحتويان على بعض النقوش العربية ولكن شكلهما الاهلى يبعدهما عن امثالهما من المبانى التى تنسب لذلك العصر الزاهر . فبينما ترى القيشانى المحلى بهسبيل كتخدا من الداخل شرقيا ترى القيشانى المكسوة به جدران سبيل السلطان مصطفى افرنجيا هولنديا . اما عمارات الشبابيك فكسوتها منه على غير نظام . وقصارى القول ان التاثير الافرنجى واضح وضوحا تاما فى هذا السبيل . وها نحن وصلنا الى ختام القرن الماضى الذى فيه استردت مصر استقلالها على يدى محمد على . وتاريخ ذلك لم يبعد عهدنا به حتى نحتاج لايراده هنا

* * *

ومخلفات هذا العصر لا بل العصور — اكثر من ان تعد او تحصى فان اكثر مبانى وجوامع القاهرة ، لا بل اجلها وافخمها من صنع هذه المدة وكان هؤلاء العتاة الجبابرة المماليك لكى يكفروا عن آثامهم وشرورهم وشغبهم وطغيانهم . يتقربون الى العامة بانشائهم الجوامع الفخمة والتكايا والمبانى العظيمة

ودار الآثار العربية بالقاهرة حافلة بمخلفات هذه العصور فان أجمل محفوظات الدار هى ولا ريب من آثار عصر المماليك . واذا لاحظنا مجموعة الجص والرخام الموجودة بهذه الدار نجد ان القطع المحصورة مابين

الرقمين ٧٣ — ٧٨ هى من مخلفات دولة المماليك الاولى ، والقطع المحصورة مابين ٨٧ — ١٠٠ هى من مخلفات دولة المماليك الثانية . واما دولة المماليك الثالثة فاز مجموعةمخلفاتها الجصيةمحصورة مابين الرقمين ١٠٦ — ١٧٢ وهذه المجموعات كلها محفوظة فى الغرف الثلاث الاولى من الدار

أما مجموعة الاخشاب المحفوظة بالغرفة الرابعة بالدار المذكورة فان مجموعتها عديمة النظير ، والغالب فىالاخشاب المخلفة عنهذا العصر إنها تحتوى على كتابات عليها أسماء الآمر بصناعاتها بقلم النسخ المعروف بالمملوكى وهذه المخلفات محصورة مابين الرقمين ٣٢ — ٩٥

وهناك مجموعة من أبواب وقطع أخشاب عليها زخارف من بقايا هذا العصر محفوظة بالقاعة السادسة تبتدى أرقامها من ٤٩ وتنتهى عند ٢١٧

وهناك عدا هذه المجموعات النفيسة مجموعات اخرى فخمة محفوظة فى غرف الدار العديدة ومنها مجموعات اخرى انفس منها لعبت بها أيدى العابثين ولصوص الاثار فخرجت من القطر الى متاحف لندن وباريس وليدن ونيويورك وغيرها من المتاحف الاجنبية (١)

---

(١) يجب ان اشير الى انى استمددت مقالى هذا من دليل دار الاثار العربية

المماليك والمال

— ١٩ —

عند مازار فولنى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر قدر عدد المماليك بنحو ٨٥٠٠ مملوك من الرؤساء الذين ينفق الواحد منهم على سلاحه وملبسه وزوجاته وسراريه ، نحو ٢٥٠٠ الفين وخمسمائة جنيه فى العام . وهذا تقدير شاهد عيان

وكان البكوات الكبار من المماليك يخلعون على أتباعهم فى أيام المواسم الخلع النفيسة المصنوعة فى فرنسا أو البندقية ، ومن كشامير الهند وحرابر دمشق وكانوا إذا اعتقوا مملوكا ورقوه درجة يمنحونه منزلا فاخراً مؤثثاً بالرياش الفاخر ويزوجونه ، ويهبونه الجوارى الحسان . وكان التنافس بين زعماء المماليك سبباً فى تخريب البلاد فاذا خاف أحدهم على نفسه من فتك الآخرين ، يغير بجماعته على مديرية من المديريات ويستولى على خراجها ويتولى أخذ ضرائبها من الملتزمين وكثيرا مايستحل المديرية أو المديرتين لنفسه ملكا حلالاً

ولا يخفى ان الغزوات التى قام بها على بك الكبير من سنة ١٧٦٦—١٧٨٥ م كلفت مصر وأهلها أكثر من ستة وعشرين مليونا من الجنيهات . وقد ذكر فولنى أن على بك الكبير ابتاع خنجراً مرصعاً بالجواهر الكريمة بمبلغ ٢٥٠٠٠ جنيه

وقد وصف فيفان دينون «١» فى كتابه مافى قصر مراد بك بالجيزة وصفاً بليغاً ، بما فيه من طرقات وبساتين ومفروشات ، وروى كتاب الحملة الفرنسية أن الجنود الفرنسيين كانوا يجدون فى ملابس كل واحد من المماليك الصرعى فى ميدان القتال (وقعة امبابة) مالا يقل عن نحو مائتين أو مائتين وخمسين قطعة من الذهب ، عدا ماتقدر به ملابس الواحد منهم وطيلسانه وسلاحه وسراج جواده من المبالغ الطائلة

وحين هرب على بك بعد ان خذله انصاره الى الشام التجأ الى صديقه الشيخ ظاهر فى عكا أخذ معه من الاموال ثمانمائة الف محبوب ذهبا يحملها على

«١» فيفان هذا رجل فرنسى قدم الى القاهرة بعد استيلاء الفرنسيين عليها عن طريق رشيد والف كتابا عن رحلته

٢٥ جملا ونقل أيضاً معه من المصوغ والحلى ماقدرت قيمته بمبلغ ثلاثة ملايين محبوب ذهب . أى ماتقدر قيمته بحوالى ستة وتسعين ألف جنيه ، وقد وصف فولنى فى رحلته فى الشام ملابس جنود على بك وصفاً دقيقاً فقال أن ملابسهم تتكون من أربعة أو خمسة أردية وطيلسانات تتدلى الى أرجلهم . وكان قميص الفارس منهم من القطن الناعم الابيض والثوب المتدلى فوق القميص من القماش الهندى الخفيف ، وفوق ذلك القفطان من حرير مزركش تمتد أكمامه حتى اطراف الاصابع ، ثم « الكرك » باكمام قصيرة ، ويطوف حول الرقبة فراء من السمور ولكل واحد منهم طيلسان يلبسه فى الحفلات يلف به جسمه جميعه . . وكان عدد هذا الجيش ٤٠,٠٠٠ مقاتل ، فاحكم أيها القارىء على عظم المبلغ للازم لالباس هذا الجيش العظيم

وفى عام ١٣٠٢ م بعد ان انتصر الناصر فى موقعه « مرج الصفر » وأزمع على العودة الى عاصمة ملكه من دمشق الى مصر ، أمر أن يفرش له الطريق بالبسط . وفعلا لم يمس حافر السلطان الارض فى طريقه حتى مصر . وأعمال هذا السلطان وأخبار بذخه لايمكن ان يصدقها العقل لولا ان رواها مؤرخون معاصرون موثوق بهم ، فقد أمر هذا السلطان مرة وهو مزمع على الخروج الى الحج ، ان تقام له واحة صناعية غناء ، لتقام عليها مائدة طعامه ، فى كل مرحلة ينزل فيها الركب من مراحل الصحراء حتى وصل مكة وأدى فريضته . وعاد بنفس الطريقة الى مصر ، وقد انفقت احدى زوجاته فى سفرها لقضاء الحج نحو مائة الف دينار . وقد انفق فى زواج كل من بناته نحو ٨٠٠,٠٠٠ دينار . وقد احتفل فى زواج ولى عهده احتفالا ملوكيا لم يرو التاريخ له مثيلا فقد أوقد فى تلك الليلة نحو ٣٠٠٠ مصباح ، وقد مر جميع أشراف الدولة والخليفة وزعماء المماليك ، مع مماليكهم الخواص ، حانين رؤوسهم وحاملين المصابيح بأيديهم أمام السلطان العتيد ، وفى نفس الوقت اجتمع فى الحريم زوجات السابقين ومررن أمام زوجة ولى العهد حانيات رؤوسهن ومقدمات للعروس الهدايا راقصات أمامها لتسليتها

ولم تكن تلك فقط أخبار بذخ الناصر فقد كان مغرما جداً بالخيول يبذل عن سعة فى سبيل اقتناء النادر منها . فقد اشترى مرة حصانا استلطفه بمبلغ ٣٠,٠٠٠ دينار ، ولم يبلغ فى ذلك العهد ثمن أى جواد أكثر من ١٠,٠٠٠ دينار .

وقد بذل الناصر فى بناء قصور عديدة للصيد مبالغ باهظة لايحصيها العد ، وذكر المقريزى للدلالة على عظم بذخ الناصر إنه استحضر فى زواج ابنه ١٨٠٠٠ رأس من السكر وذبح ٢٠٫٠٠٠ رأس ماشية

وتلى عصر الناصر عصر أحفاده وكان عصر خلاعة ومجون وتهتك وبذخ وأسراف لامثيل له فقد أهدى السلطان المظفر « حاجى » الى أحدى محظياته هدايا تكاد تكون خرافية ، منها عقد من اللؤلؤ قيمة ٤٠٠٫٠٠٠ دينار ، وعمل لها قلنسوة رصعها بلآلىء قيمتها ١٠٠٫٠٠٠ دينار ، ولم يعمل حاجى هذا العمل وحده بل ان الاشرف برسباى أعجب بامرأة رقيقة ، فتزوجها وصنع لها ثوبا واحداً كلفه ٣٠٫٠٠٠ دينار

وقد خرج مرة قايتباى للحج ، وكانت مصاريفه فى طول الطريق ملوكية وكان بذخه مضرب الأمثال ، وقد بنى فى جميع الأماكن التى زارها مدارس وجوامع وتبرع بهبات جيدة لجميع الأماكن المقدسة ، وفى عودته الى مصر ، فرشت الطرقات بالبسط واستقبلت السلطانة زوجها العائد من الحج بفرش الطريق من باب القلعة الى عتبة قصرها بالحرير الموشى بالذهب

وكانت لقايتباى محظية تدعى « اميلباى » تزوجها بعد ذلك السلطان جبيلاط وكانت هذه المحظية غنية حتى أنه حين زواجها استخدم فى نقل متاعها الى مسكنها الجديد ، مئات من البغال

وكان بلاط الغورى أكبر مثال لبذخ المماليك الذى ليس له مثيل ، فقد استعمل الذهب الدقيق الصنع ليس فى مائدة السلطان فحسب ، بل فى كل أرجاء القصر ، وكما يقال ، حتى فى صنع أدوات المطبخ . أما لباس السلطان وأدوات زينته فقد جملت بكل ماغلا ثمنه وكان بلاطه يحوى آلاف المماليك الذين اشتراهم حديثاً ، والشعراء الذين أوقفوا حياتهم على مدحه ، والمغنين والموسيقيين ، والقصاصين الذى احتشدوا حوله لتسليته

ولما خرج الغورى هذا لحرب السلطان سليم أودع أمواله قلعة حلب فلما هزم ومات فى اثناء القتال استولى السلطان سليم على تلك النفائس والاموال التى قدرها المؤرخون بمبلغ « مائة مليون قطعة ذهبية »

فانت ترى من هذه القصص مقدار عظم ثروة هؤلاء المماليك . والآن فنحن

نتساءل من أين للماليك هذا المال وهذه الثروة حتى ومصر فى الوقت الحاضر لا يمكنها أبداً أن تدر هذا المال رغم تقدمها فى تلك العصور ذلك التقدم العظيم والبلاد خلو من المناجم، ومن موارد الثروة غير الزراعة التى لا يمكن أن يجنى منها المماليك رغم ظلمهم كل هذه الاموال ؟

الواقع أن الظروف خدمت المماليك فى تلك العصور خدمات جمة فقد كانوا هم المالكين المطلق الحكم فى مصر وسوريا . ولذا وقعت فى قبضهم جميع الموانى وطرق القوافل التى توصل التجارة الهندية الى أوربا ففرضوا على هذه المتأجر ماحلى لهم من الضرائب (نجد تفصيـــلا أكثر لذلك فى باب علاقة المماليك بالبرتغال والبندقية فارجع اليه) ولكى يعلم القارىء مقدار الثروة التى خبأها هؤلاء الطغاة ننقل لك مثلا عن كتاب The Egyptian Ninteenth Century by Cameron : « كان التاجر الشرقى يصدر التجارة من الهند وقيمتها مثلا عشرة الاف جنيه ، وكانت لابد ان ترسل لموانى مصر سواء فى البحر الاحمر أو عن طريق القوافل من بلاد فارس إلى سوريا ، وكانت المكوس تضرب عليها فى ميناء الوصول ولا تقل الضريبة عن ٤٠٠٠ جنيه ، فيصبح ثمنها على التاجر ١٤٠٠٠ جنيه ، وفى مرور هذه التجارة فى داخليه البلاد حتى وصولها ميناء الاصدار لا يمكن ان يصل ثمنها الى أقل من ٣٠٠٠٠ جنيه بما يدخل عليها من الضرائب فى أثناء مرورها فى المديريات والاقاليم وتكاليف نقل ورشا ومصاريف اخرى . وتباع هذه البضاعة فى ميناء التصدير لتاجر بندقى أو جنوى ، فلا يقدر على اصدارها قبل دفع ضريبة الاصدار وقدرها ٥٠٠٠ جنيه فيصبح ثمنها على التاجر الاوربى ٣٥٠٠٠ جنيه ، فيكون مادخل جيوب المماليك من مجموع هذه الضرائب يقدر بنحو ١٠٠٠٠ جنيه أى نحو ٢٥ فى المائة من ثمن البضاعة حين تقديرها ، أو ربع ثمنها الاساسى »

ومما يجب ان نذكره فصلا عن هذا المورد العظيم للمال ، ان المماليك كانو يأخذون من زوار الاماكن المقدسة من المسيحيين أتاوات عظيمة فى مقابل السماح لهم بزيارة تلك الاماكن

ومن هذا يظهر للقارىء ان النيار الذهبى تدفق على جيوب المماليك من كل وكان عوناً صوب عظيما لهم على البذخ والانفاق

كلمة عامة عن اخلاقهم وعصرهم (١)

—٢٠—

يجب ان يسمى هذا الفصل « كلمة ختامية عن المماليك وحياتهم » وأريد بهذه الكلمة الختامية ان أعطى صورة صادقة عن حياة هؤلاء الناس الفريدى النشأة والذين عاشوا وحكموا البلاد بطريقة فذة لاتضارعها غيرها فى العالم كله

فكما ان حياتهم كانت غريبة كذلك كانت أحكامها أغرب ، ولو نظرنا فى تاريخ سلاطينهم لوجدنا أمثلة جمة على ذلك ، فهذا السلطان العظيم قلاوون من سلاطين الطبقة الاولى ، أمر مرة بأن يوثق لص وهو ممدود على ظهر جمل وأمر أن يطاف به فى المدينة حتى يقضى عليه ، وقد أمر هو أيضا ، بدفن رجل مسيحى حيا لأنه تزوج من امرأة مسلمة وأما تلك الزوجة التعسة فقد جدع أنفها . ومما يدل دلالة تامة على الحياة فى ذلك العصر ، ان المملوك بدلا من أن يخجل من أصله الحقير ، كان يفاخر به ، فقلاوون هذا كان من ألقابه الرسمية الالفى لأنه اشترى بألف دينار ، وقد تمكن مرة أحد المماليك المدعو « قوصون » سنة ١٣٤٢ م من الوصول الى العرش ، ولكن المماليك انفضوا حوله فى اللحظة الاخيرة لأنه لم تتوافر فيه شروط المملوك أى انه لم يشتر فى بادىء أمره كمملوك ، بل حضر الى السلطان الناصر من تلقاء نفسه فى حاشية زوجته المغولية فوهب نفسه للسلطان بمحض ارادته فلم تكن له تلك المكانة الاجتماعية التى كانت لمملوك اشترى بالمال

وأننا نجد فى مطالعة تاريخ الناصر للمرة الاولى ذكراً طويلا للامير لاجين وهذا الامير كان الحاكم الفعلى للبلاد فى عهد الناصر فى المرة الاولى وفى عهد كتبغا وفى ذلك العهد قبض هذا الرجل على ثلثمائة شخص كما يروى المقريزى وأمر فصلبوا جميعا على ابواب المدينة . وقد تمكن هذا الرجل فى ديسمبر عام ١٢٩٦

---

(١) يجب ان أمر هنا ان مصدر هذا الفصل [illegible] فى مصر ، درفتح مصر الحديث ،

من الوثوب الى العرش على جثث أعدائه ، فما كاد يثبت على العرش حتى حاول أن يغير فى تقسيم الأراضى وذلك لأن الأراضى الاميرية كانت مقسمة الى أربعة وعشرين قيراطاً ، عشرة للامراء ، وعشرة للجيش ، وأربعة للسطان وحاشيته ، غير أن القسم الأخير فى التقسيم الجديد وزع بطريقة اغضبت الامراء ورجال الجيش . فقام عليه المماليك وقتلوه وهو يلعب الشطرنج ليلا فى قصره . والغريب فى أمر هذا السطان ان مؤرخى زمانه من الغربيين يقررون أنه من أصل جرمانى ثم اعتنق الاسلام ، وهذه خرافة اذ أن مؤرخى عصره من الشرقيين كتبوا عن تاريخه بالتفصيل من يوم ان اشترى مملوكا وهو فى سن الثامنة حتى وصل العرش . وانما الثابت أنه من أصل أغريق

وفى تلك الأيام حدث وباء مات فيه كما يقرر ابن أياس ٧٠٢٠٠ نسمة وبلغ ثمن البطيخة فى ذلك القحط مائة درهم ومات فى القاهرة وحدها فى شهر واحد ١٧٥٠٠ وكانت جثث الموتى تطرح بغير دفن وتأكلها الكلاب فى الشوارع

وكان عهد الناصر خير عهود الاقباط واليهود النازلين فى مملكته فقد عاملهم بالرفق ، وذلك لعلمه بأنهم لن يكون منهم من يناهضه فى الملك

وكان الناصر هذا يغار على ملكه من جميع الناس حتى من أولاده ، وكان يخشى أية شبهة فى أى كان تنبىء عن طمعه فى العرش . ولذا لم يعين وليا لعهده حتى كاد يفارق الحياة ، ومما يؤسف له ان أحد أكبر أولاده كان شر مثال يحتذى به فى أنسح الرذائل ، وقد نفاه والده الى الكرك بعد إن خابت مساعيه فى ابعاده عن أحد فتيان المماليك . . . . وكذلك أولع « أنوق » أحد أبنائه بفتاة ولعاً شديداً . وقد وصف المقريزى وفاة « الناصر » فقال « سبحان من لايحول ولا يزول — هذا ملك أعظم المعمور من الارض ، مات غريباً وغسل طريحاً ، ودفن وحيداً . ان فى ذلك لعبرة لأولى الألعاب »

ومما يعطينا فكرة تامة عن اخلاق هؤلاء الأقوام القصة الآتية : فى عصر السلطان الاشرف « شعبان بن الناصر » وصل مصر بعث صليبى يطلب رهائن تنفيذ شروط الصلح بين السلطان والصليبيين . فسلمهم الأشرف بعضاً من المجرمين

المحكوم عليهم بالاعدام بعد ألبسوهم أفخر لباس ، وأرسل معهم بعض النساء والاطفال كأنهم عائلاتهم

وأصبح النفوذ للوزراء فى نهاية عصر الاسرة الاولى ، حتى أننا نرى أن برقوق (الذى أصبح بعد ذلك أول سلاطين الاسرة الثانية) يطمع فى أيام سلطنة على ، ان يولى طفلا لزوجة مطلقة من الناصر على العرش ، كانت قد صرحت بأنها حامل عندما لحقت بزوجها الثانى ، وعند ذلك أعلن الخليفة بأن سلوك هذه السيدة شائن ومخالف للدين الاسلامى ، ومما يجب ذكره عن نهاية أسرة المماليك الاولى أن آخر ملوكهم « حاجى » كان طفلا صغيراً ، فعزله برقوق عن العرش فأخذ السلطان من دارالحكم وأرجع الى الحريم وبهذا انتهى عهدطبقة المماليك الاولى

تولى برقوق العرش وكان أول سلاطين الطبقة الثانية من المماليك ، وكان قاسياً شديداً فى حكمه ومما يذكر عن مدة حكمه للدلالة على الاحوال الاجتماعية فى ذلك العصر أن برقوق ترك القاهره يوماً فى سفرة الى سوريا فاناب عنه فى حكمها أميرا يدعى « كسبغا » فسن هذا الحاكم قانونا لسير السيدات فى الشوارع وحظرعليهن زيارة الجبانات أوالخروج جماعات فى الليل ، وكان قدبولغ قبل زمانه فى اتساع ملابسهن حتى كانت أكمام القميص وبدنه ٧٢ ذراعا من القماش فى عرض ثلاثة ونصف فأمر كسبغا بنقص هذا المقدار الى ٢٤ ذراعا ، ولما عاد السلطان الى عاصمة ملكه ألغى هذا القرار . ويقول المقريزى أنه رأى فى زمنه بعض السيدات يلبسن ملابس قصيرة ضيقة تسمى (قميص كسبغا)

وخلف برقوق على عرش المماليك ابنه فرج ، وقد انغمس فرج فى الموبقات واشتهر بالرذائل ، فكان فى بعض نوبات غضبة يقتل بيده أحيانا الامراء الذين يرتاب فيهم والمماليك من حوله . وقد أرسل « فرج » مرة فى طلب مطلقة له . فلما جاءت اليه إجابة لطلبه ، تبعها وهى تجرى جريحة صارخة ، وحز رأسها ولف جسدها فى ملاءة واستدعى زوجها وسأله عن معرفته اياها ، ثم هجم على زوجها وهومذعور وقطع رأسه : وأمر بدفن الجثتين معاً ، مع ان هذين الزوجين لم يرتكبا

شيئاً لايقره الشرع او العرف بزواجهما لأن المرأة كانت مطلقة من السلطان من زمان طويل

وقد كره العلماء والأمراء فرجا هذا لأنه ضرب سكة فى عهده ووضع صورته عليها فقامت عليه ثورة رجال الدين لأنهم عدوا ذلك احتقاراً للشريعة ، وقد قتل أحد الفدائيين فرجا هذا وألقيت جثته الى مزبلة ، وبعد يومين أو ثلاثة دفنه أحد الأهالى سراً

وتولى بعد فرج عدة سلاطين لا أهمية لحكمهم إلا أننا نذكر شيئاً مهما حدث فى عصر المؤيد شيخ . وذلك أن هذا السلطان أحدث تغييراً مهماً فى نظام الجيش لأن الجيش كان مكونا من

١ — جنود نظامية يدفع لهم بيت المال مرتباتهم
٢ — مماليك الأمراء المختلفين الذين كانوا يمدونهم من أقطاعاتهم
٣ — مماليك السلطان وأجورهم من الاملاك السطانية

وكان الأمراء قد بدأوا ينقلون جنودهم الى الصفوف النظامية تخلصا من نفقاتهم ، فعلاجا لهذه الحالة أعطى المماليك الخيرة فى البقاء فى خدمة مواليهم الامراء أو الاندماج فى الجيش النظامى

ومما يعطى فكرة تامة عن الحالة العقلية للبلاد فى ذلك العصر ، ماحدث من هذا السلطان وحاشيته . فقد اصاب مصر فى عهده طاعون ووباء شديدان ، اهلكاشعبا كبيرا ، فما كان من السلطان الا ان لبس ثياب الدراويش وخرج فى حاشية كبيرة على رأسها الخليفة ، والعلماء خلفهم رافعون المصاحف ، وتلاهم القسوس يحملون الانجيل ومن بعدهم شيوخ اليهود يحملون التوراة ، وسار هذا الموكب الهذ حتى ضريح برقوق حيث سجد السلطان والحاشية على التراب وصلوا لله طالبين رفع الطاعون

وفى عهده ايضا شح ماء النيل ، فعمت المجاعة والقحط ، فانقطع للصلاة والصيام وفى يوم الجمعة دعا له الناس بالبركة فقال لهم « لاتطلبوا معونة الله لى فما انا الا مثلكم وفرد منكم » وقد ذكر المقريزى هاتين القصتين مستهزئا بالسلطان قائلا انه كان فى مقدوره بتوزيع قليل من المخزون فى خزنته ان يفرج الحالة اكثر مما فعلت صلاته

وتولى السلطان المظفر أحمد بعد أبيه شيخ ، وهو طفل صغير وقد حمل من الحريم وهو يصرخ اذ كان لا يزال طفلا على حصان وسير به الى مكان الاجتماع حيث تولى السلطنة وهو لم يبلغ بعد ١٦ شهراً .

وتولى السلطان الاشرف برسباى بعد ذلك فاراد أن يحبب الناس اليه فاصدر مراسيم شديدة ضد المسيحيين واليهود ، ثم غير العادة التى كانت تقضى على كل من يقرب من مجلس السلطان ان يمس الارض بيده أولا ثم يقبلها . بأن سمح للناس بتقبيل أطراف ردائه بدلا من الارض . وفى عصر هذا السلطان احتكر تجارة السكر وبيعه وكان يوصف السكر بأنه دواء الطاعون

ومما اتصف به المماليك ولم نذكر أمثلة عليه هو خياناتهم الفظيعة وذلك لأن تاريخهم كله عبارة عن حوادث خيانة متواصلة وبينما نجد المملوك منهم يصل الى العرش على أكتاف ثلاثة أو أربعة من مساعديه نجد أن أول مايعمله عندما يصل الى العرش أن يحز رؤوس أولئك الرؤساء الذين ساعدوه على النهوض والوصول الى الملك ، ومما يجب أن يلاحظ على المصريين فى عصر المماليك أنهم فقدوا الروح القومية تماما ولم يحاولوا أن يقوموا طول تلك العصور الطويلة ولا مرة واحـــدة بمحاولة تدل على رغبتهم ، فى طرد أولئك الاغراب واعادة استقلالهم . وحدثت محاولة واحدة من هذا القبيل فى سنة ١٣٩٤ م ، بقيادة رجل عربى غريب من أشراف مكة ، فقد قام يساعده جماعة من المصريين لطرد المماليك من مصر ، فقبض على الشريف وزميل آخر له ، وعذبا عذابا أليما ليبنبئا عن أعوانهما فرفضا بأن يبوحا بشىء ، بل أقر بأنهما المسئولان الوحيدان عن ذلك ، وأفصحا بكل شجاعة انهما انما قاما بالواجب نحو الكتاب والسنـــة ، وقضيا نحبهما تحت التعذيب

* *

ولم يك مماليك الطبقة الثالثة خيرا من مماليك هاتين الطبقتين ، بل يمكن أن نقرر هنا أن مماليك الطبقة الثالثة كانوا شراً مستطيراً ، وسنروى قصة واحدة تدل دلالة كافية على عقلية هؤلاء القوم ننقلها عن كتاب « مسيو مارسل »

فقد ذكر فى ترجمة مراد بك أنه فرض ضريبة كبيرة على اليهود تجبى على أموالهم . ولما كانت الضريبة أعظم من أن تحتملها تلك الطائفة الصغيرة فقد اجتمع اليهود وتداولوا فى الامر وقر رأيهم على ارسال حبرين لبقين منهم ليجتمعا بمراد ويطلبا منه انقاص الضريبة ، أوالغائها ، وقد تمكن هذان الحبران من اقناع مراد بك بان عمرو بن العاص لما بنى جامعه دفن فى أرضه كنزاً عظيما ، فرفع مراد الضريبة عنهم وأمر فى اليوم الثانى بترميم الجامع وكان غرضه من هذا أن ينقب عن هذا الكنز الموهوم ولما تهدم الجامع فى اثناء التنقيب ولم يوجد شيء فقد اضطر مراد لاعادة بناء الجامع

وخيرما نختم به كتابنا هذا هو القصة التالية ، التى تدل دلالة كافية على أنه كان من السهل فى تلك الايام السالفة ، أن طفلا يولد ويخطف من بين أحضان والديه ، ويباع رقيقا فيصير مملوكا ، وينهض به الجد الباهر الى العرش فيصبح سلطانا . فقد ذكر سافارى فى خطاباته التى كان يرسلها لملك فرنسا (وهذه الخطابات جمعت فى كتاب وطبعت فى باريس سنة ١٧٨٥ ونقلت الى الانجليزية فى سنة ١٧٨٦ وموجودة باللغتين فى دار الكتب الملكية) عن مراد بك هذه الحكاية : حدث فى احدى الاعوام قحط شديد فى سوريا . فخرج رجل يبيع مايملك ليبيع ... بقى أولاده ، وبينما هو فى السوق رأى قافلة مصرية وصلت دمشق وسمعهم يتحدثون عن مراد بك وعظمة ملكه ، فسمع منهم وصفهم لهذا الامير ، وخيل لهذا الرجل ان هذه الاوصاف تنطبق على وصف ابنه الذى خطف منه وهو لايزال طفلا . فصمم على السفر الى مصر . فباع ممتلكاته وبارح بلدته اليها وهناك التقى بمراد وعرف فيه ابنه (١) وبقى الشيخ مدة مكرماً فى مصر ولما كان مسيحياً فقد رغبه مراد فى الاسلام فرفض . وبعد حين عاد الى دمشق ومعه من الهدايا والاموال مايفوق العد والوصف

---

(١) هذه القصة لا يمكن ان تكون حقيقية لان الجبرتى وهو معاصر لهذا العصر لم يذكرها انما ذكرها سافارى تسلية لشقيق الملك وقد حدثت هذه القصة حقيقة لعلى بك الكبير كما أوردنا ذلك فى فصل سابق

بعض نواحي المماليك الخلقية والاجتماعية

عصر حكم الطبقة الاولى

— ٢١ —

فى هذا المقال ، بعض الحوادث التاريخية العربية ، منها يمكن ان يقف القارىء على الناحية الخلقية والعقلية لعصر حكم المماليك فى مصر

كانت الاراضى الاميرية . فى عهد المماليك ، مقسمة الى أربعة وعشرين قيراطاً وكان المماليك أوقواد الجيش والمديرون والوزراء يستولون على عشرة منها قيمة مرتباتهم ، وتقسم عشرة قراريط اخرى على أفراد الجيش ، والضباط ، وما يتبقى وهو أربعة قراريط فكانت تصرف على مخصصات البلاط والحاشية ، وقد اتبع المماليك هذا النظام وحافظوا عليه ولم يشذوا عنه من عهد بيبرس حتى جاء السلطان لاجين الى العرش فى ديسمبر سنة ١٢٩٦ م فقد تمكن هذا الافاق من الوصول الى العرش بعد ان قبض على ٣٠٠ مملوك وصلبهم على أبواب المدينة كما يروى المقريزي

لما وصل لاجين هذا للعرش بقوة الباطل أراد ان يزيد مخصصات السلطان عن الأربعة القراريط المتبعة فقاومه المماليك وانتهوا منه بقتله

وقد حكم مصر بعد ذلك أغرب سلطان عرفته البلاد ، فقد جمع النقيضين فبينما كان يعتبر أحسن حاكم ، يمكن ان يقال انه كان أسوأ سلطان ، ويعتبر عصره افكه وأغرب عصر . وقد كان هذا السلطان يغار على ملكه من جميع الناس وحتى من أولاده ، وكان لايتهاون فى الانتقام من أى انسان يشتبه فى ان له اى مطمح فى العرش ، ولذالم يعين وليا لعهده حتى كاد يفارق الحياة ، وكان اكبر أولاده المدعو « احمد » شر مثال يحتذى به فى اقبح الرذائل ، وقد نفاه والده الى الكرك بعد ان فشلت مساعيه فى ابعاده عن غلام مملوك ؟ ! . . . واما ابنه الثانى المدعو « انوق » فقد اولع بقينة شركسية ولعاظما وأهمل كل شىء فى الحياة ليتفرغ لمعبودته

وقد ذكر ابن أياس عن حكمه نادرة لطيفة ، اذ يظهر ان عصره كان عصر تهتك وتبهرج وقد هال السلطان ذلك فامر بتعيين ضابطة ملحقه بشرطية القاهرة لتشرف على المتنزهات ولتحجز منهن من تخرج عن حدود الادب فى ملبسها وخطواتها

ولا يزيد هذا غرابة عما أتاه وزير برقوق كمسغبا الذى وضع مقاييس لاتساع ملابس النساء لايمكن أن تتعداها كما سبق ذكره

عصر حكم الطبقة الثانية

كان من العادات الشائعة أن يأمر السلطان بتنفيذ أحكام الاعدام فى مجلسه وعلى ذلك لايمكننا أن نستغرب ماأتاه فرج مع مطلقته فقد كان هذا السلطان ظالماً فاسقاً قاسياً فى أحكامه واشتهر حكمه بالارهاب والقتل، وهذه الأساليب القاسية التى كان يتبعها المماليك هى نفسها أساليب العصر الذى عاش فيه العالم فى ذلك الحين . فبينما كانت أوربا تقاسى فى ذلك الوقت محاكم التفتيش واسيا ويلات وأحكام التتار ، كان الشرق العربى يقاسى مظالم وأحكام هذه الطبقة الشاذة من الافاكين الذين سموا اصطلاحا بالمماليك

ولا يستغرب من العامة فى ذلك العصر أن يتهموا مثل السلطان فرج بالالحاد لضربه عملة عليها صورته فانه لعهد قريب كان الجهلاء يعتبرون التصوير محرما شرعا

وقد كثر فى عهد المماليك اصابة البلاد بالطواعين . كانما المصايب تجر ورائها المصايب ، ومما زاد الطينة بلة أن احتكر المماليك بيع السكر الذى كان يعتبر فى ذلك الوقت دواء لهذا الداء الوبيل . ولم يعمل المماليك على تخفيف ويلات الشعب بل قد يخيل للمؤرخ أنه قد طاب للمماليك كثرة الوفيات ليسهل عليهم ادعاء وراثتهم للموتى ونهب أموالهم وقد قص المقريزى فى تاريخه ماحدث أثناء اصابة البلاد بهذاء الداء وأنحى باللائمة على المماليك قائلا « أنه كان فى مقدور السلطان بتوزيع قليل من المخزون فى خزانته أن يفرج الحالة أكثر مما فعلت صلاته » التى دعى الشعب الى اقامتها ليمين الله بالفرج

ومن الصفات البارزة التى اتصف بها المماليك ، فضلا عن ذلك هو حبهم للمال وتفننهم فى ابتزازه بكل الوسائل ، فقد استحدثوا من أنواع الضرائب ما لا يمكن أن يصل اليه فكر أى ظالم ، وبرغم ذلك كانت الضرائب تجمع مضاعفة مرات . ولم يكن يوجد فى ذلك الحين فرد واحد يمتنع عن دفعها أو يثور فى وجه ظالميه . وكان هذا سبباً مهما فى كراهية المصريين للامتلاك العقارى وقد بقيت هذه النفرة فى أذهان المصريين حتى عهد حديث جداً ، اذ أنه امتنع أكثر

المصريين من الاستحواز على الأباعد التى كانت تفرقها الدائرة السنية بأثمان بخسة . وقد اتصف المماليك ، بالخيانة ومحبتهم للغدر فكان المملوك لايكاد يصل إلى العرش حتى ينكل بمساعديه ويعمل على استئصال شأفتهم ولكن قد يغتفر لهم لأن روح ذلك العصر كانت روح تنازع للبقاء جامحة ، وكان التنازع شديدا والتطلع الى العلاء أمنية كل مملوك فكان من اللازم أن يتبع المماليك المثل القائل ان الغاية تبرر الوسيلة .

وبينما كانت معاملة المماليك لبعضهم موسومة بالغدر والخيانة المتوالية نجد أنهم أحسنوا معاملة الذميين من الأهالى وذلك لعلمهم بأن غير المسلم لن ينازعهم العرش ولن يصل حتى بمجرد التفكير الى ولاية السلطنة .

وقد عاشت مصر فى عهد المماليك ، نفس المعيشة التى عاشها العالم فى عهد الاقطاع فقد كان السلطان يقطع العقارات لمماليكه الخواص وهؤلاء يقطعونها لمماليكهم كل بدوره ، فكان السلطان اذا احتاج لجند للقيام بحرب يلجأ الى مماليكه يطالبهم بالخدمة فينضم هؤلاء اليه ومعهم مماليكهم والآخرون ومعهم أتباعهم وهكذا . ولكن يلاحظ أنه لما أصاب البلاد الفقر لما قلت مواردها صار المماليك يتخلصون من مماليكهم الأصاغر بالحاقهم بجيش السلطان كما حدث ذلك فى عهد المؤيد شيخ كما أسلفنا الشرح .

عصر حكم الطبقة الثالثة

وكان عهد المماليك عهد فروسية ونظم اقطاع ، فقد كان المماليك ينقسمون الى احزاب ، ففى النهار يخرج أفراد الحزبين المتعاديين الى المبارزة والطعان ويدوم ذلك طول النهار حتى اذا أمسى الليل وأعطيت الاشارة أبطلت المبارزة وأخذ كل فريق يدفن موتاه وينقل جرحاه ويعود الباقون الى المدينة كأنه لم يحدث بينهم شىء وفى اليوم التالى يعاودون الكرة وهكذا دواليك حتى يخضع حزب لمطلب الفريق الآخر

وقد كان عصر المماليك أهم عصر فى تاريخ الآثار العربية فمن مخلفات هذا العصر كل الآثار التى تزخر بها دار الآثار العربية ، ويمكن ان يقال بالاجمال ان أهم الآثار العربية الفخمة هى من صنع المماليك ويرجع ذلك الى الدور المهم الذى لعبه المماليك فى القرون الوسطى وإلى السلطة الهائلة التى تمتعوا بها فى

ادارة شئون البلاد ، وقد يقال ان شعور المماليك بشدة المظالم التى كانوا يصبونها على رأس الشعب دعتهم الى تشييد الجوامع والتكايا والزوايا الخ كفارة عن ظلمهم له وتقربا للمولى .

ومهما يقال عن شدة ظلم هذه الطغمة وشرورها فانه من المستحيل أن تنكر فضلها فى حفظ استقلال البلاد تلك الحقبة الطويلة من الدهر وعما فظتها على كيان مصر بصفتها دولة مستقلة على رأس الشرق العربى ، فقد كانت القاهرة فى ذلك الحين مركزاً مهما فى عالم السياسة الدولية وخصوصا الشرقية وكانت الرسل والسفارات المصرية ترسل الى كل الجهات وكانت الاعلام المصرية مظفرة أينما سارت وحلت

وبينما كان المماليك يحافظون على استقلال البلاد يمكن أن يقال عن الاهالى أنهم فقدوا الروح الحربية والقومية وطابت لهم الاستكانة الى الذل ، حتى لم نسمع عن محاولة فى سبيل الاستقلال من ربقة حكم المماليك ، غير تلك التى حدثت عام ١٢٩٤ م (١) وقام بها أعراب إلا أنه يجب أن يذكر هنا أن مصريا واحدا هو الذى فكر فى استقلال هذا الوطن فى ذلك العصر المظلم وسلك اليه الطريق السوى فقد قام الجنرال يعقوب المصرى بمفاوضة الحكومة الانجليزية عند انسحاب الحملة الفرنسية لتساعده على اعادة استقلال البلاد . وقد نشرت أخيرا مذكراته عن ذلك

وقد تنبه هذا القائد المصرى الى قوة الدولة الانجليزية الناشئة وعظمة أسطولها ففضل أن يتحد معها بدلا من منافستها فرنسا . ولو كان محمد على تنبه بعده الى هذه الحقيقة لما حاق بمصر ما لحقها من المصايب على يدهم بعد ذلك فلنذكر نحن المصريون وليذكر معنا أحفادنا من بعدنا هذا المصرى الذى فكر وحيداً فى استقلال هذه البلاد وتحريرها من نير الأجانب ومات فى سبيل هذه الفكرة غريباً عن هذه الديار

---

(١) راجع صفحة ١٥٨ من هذا الكتاب

فهرست الكتاب

صفحة

مطبعة المجلة الجديدة لصاحبها سلامة موسى شارع الملكة نازلى بالقاهرة
مستعدة لطبع جميع الكتب والمجلات أجود طبع